بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده

١٠

الأخلاق

بين

الفلاسفة وعلماء الإسلام

الطبعة الأولى

١٩٨٦ م - ١٤٠٧ هـ

الطبعة الثانية (مزيده ومنقحه)

١٩٩٣ م - ١٤١٤ هـ

دار الدعوة

للطبع والنشر والتوزيع

٢ شارع منشا . محرم بك ، الاسكندرية

ت : ٤٩٠١٩١٤

الأخلاق

بين الفلاسفة وعلماء الإسلام

دكتور
مصطفى حلمي
أستاذ بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة




بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمه

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وخاتم النبيين ، سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين .

وبعد ، فان البحث فى موضوع (الأخلاق) ليس جديدا فى مجال الثقافة بعامة والثقافة الاسلامية بخاصة ، ففى ضوء إزدهار المعارف والعلوم الإنسانية فى العصر الحديث . نال علم الاخلاق ـــ أو الفلسفة الخلقية ـــ حظا وفيرا من عناية الباحثين والكتاب ، فمنهم من عرض هذه القضية من جانب المناهج الغربيه ، والآخر من جانب وجهة النظر الاسلامية مبينا علاقة الأخلاق فى الاسلام بالكتاب والسنة مستقرئا الآيات والأحاديث التى تحض على الفضائل الاخلاقيه فى الانشطة الانسانية كلها ـ وما أكثرها .

ولعل الأخلاق فى الفلسفة الغربية قد حظيت بأغلب الأبحاث منذ إدخال الفلسفة الى جامعاتنا بمباحثها المختلفة .

ولا نزعم اننا سنأتى بجديد فى مجال هذه الدراسات ولكننا ندلف اليها من نفس الباب الذى دلفنا منه الى ما سبق لنا بحثه من قضايا الفكر الاسلامى المعاصر ، ونقصد بذلك المنهج المقارن بين فلسفة العصر الغربية السائدة وما يقابلها من إستقراء

لمواقف إسلامية فاحصة وناقدة [1] .

إن الدافع الذى يحركنا للالتزام بهذا المنهج هو اننا نعيش كأمة اسلامية فى فترة المخاض حيث نعانى آلام ولادة جديدة ـ قد تكون عسرة ـ ولكنها بمشيئة الله تعالى ستنتهى بميلاد اسلامى متجدد فى القرن الخامس عشر الهجرى الذى نحن فى مستهله الآن .

ومع ادراكنا للصعوبات والعراقيل التى يجب تخطيها ، فان الاسهام فى عمل مثمر يبدأ من مواصلة بيان أوجه إعجاز الاسلام فى كافة أركانه ونظمه : العقيده والعبادات والنظم والقيم والفضائل الاخلاقية .

ولما كان الانسان (حى حساس متحرك بالارادة) أو انه (حامل قيم) ، أو انه (همام وحارث) ، فمعنى ذلك انه يعمل بموجب ما يعتقده من عقائد أو فلسفات ويسعى فى اعماله وسلوكه طبقا لمعتقداته .

ومن هنا لعلنا نرسم طريقا مختصرا فى دراسة الحضارات اذا بحثنا فى العقائد والفلسفات والنظم الاخلاقية المرتبطة بها ، باعتبار ان الانسان هو الاصل فى قيام الحضارات وسقوطها بمكوناته العقديه الفلسفيه ودوافعه السلوكية وقيمه الاخلاقيه .

وبموجب هذا المنهج أيضا فان الدراسه الاخلاقيه تكشف عن (جوهر) الحضارة المعاصرة اذا بحثنا فى تلافيف عقل وقلب الانسان الغربى من خلال تراثه الفلسفى ومذاهبه الاخلاقية . ولعلنا بذلك نستطيع الوصول الى فهم اعمق لجوانب القصور فى حضارته التى تبدو فى الظاهر مزدهرة فاتنة ، ولكنها فى حقيقتها ـ بدراسة

---

(١) ينظر كتابينا (الاسلام والمذاهب الفلسفيه المعاصرة) ط دار الدعوه ١٩٨٦ ـــ ١٤٠٦ هـ
و (السلفيه بين العقيدة الاسلاميه والفلسفة الغربية) ط دار الدعوة ١٩٨٣ ـــ ١٤٠٣ هـ

فلسفتها الاخلاقية ــ تكشف عن مخاطر تهدد العالم اذ أصبح التقدم التكنولوجى فى خطر ــ لان العلم بغير ضوابط أخلاقية ، تصبح آثاره المدمرة أكثر بكثير من فوائده وها هى التهديدات بالحروب النووية وحرب الكواكب وغيرها من الكوارث التى تهدد البشرية بأوخم العواقب ، ماثلة أمامنا .

وعندما نحيط بجوانب المذاهب الاخلاقية السائدة نستطيع الحكم بقدر من الدقة على مدى قدرة استمرار الحضارة الغربية على البقاء أو حتى علاج نفسها وانقاذ العالم من المخاطر التى تهدده ، فهل تستطيع اخلاق (المنفعة) أو الاخلاق العملية البراجماتية أو الماركسية أو الوجودية الاستمرار فى الاسهام فى تقدم هذه الحضارة وبقائها ؟

اننا بعد دراسة هذه المذاهب كما يتضح من كتابنا نشك فى امكان تحقيق هذا الغرض ، فقد تعرضت (الاخلاق) والمبادئ الاخلاقية فى اوروبا وامريكا تاريخيا ــ وفى العصر الحديث ايضا ــ تعرضت لعدة تقلبات جنحت بها من (النفعية) الى (الوضعية العملية) و (الماركسية) و (الوجودية) ، وان كانت هناك ايضا مذاهب (مثالية) الا انها ذات النفوذ الاقل بين المذاهب الاخرى .

وهكذا اخذت هذه الحضارة تبدل اخلاقياتها وسلوكياتها كما تغير ازياءها فى العصور المختلفة .

اما النظرة المقابلة ، فتوضح ــ على العكس ــ ان القيم الاخلاقية الاسلامية الثابتة ظلت باقية ابدا لم تتغير ولكن المسلمين هم الذين تغيروا وأصبح واجبا عليهم تعديل سلوكياته وفقا لها اذا ارادوا اثبات استحقاقهم لقيادة العالم من جديد .

وبعد هذه العجالة لا نريد القفز منذ الآن الى النتائج المستخلصة من الكتاب ولكننا نود من القارئ مشاركتنا فى تأمل القضايا العديدة المتشابكة الأطراف التى يثيرها

بحث موضوع (الاخلاق) بجوانبه وأركانه المختلفة وسنمر عليها بطريقة اجمالية قبل تناولها بالتفصيل بيى دفتى الكتاب :

١ ـ الاخلاق بين فلاسفة اليونان والعصر الحديث :

اننا نرضى بحكم أحد الفلاسفة المعاصرين على دور أرسطو وافلاطون فى مسئوليتهما عن التميز العنصرى ونظرة التعالى التى دفعت بالانسان الاوروبى الى تحقير ما دونه من أجناس أخرى وتبرير استعمار واستغلال واستعباد غير الاوروبيين يقول برتراند رسل (لقد أخطأ اليونان خطأ فاحشا حين أحسوا شعور السيادة على الشعوب البربرية ، ولا شك ان ارسطو قد عبر عن فكرتهم العامة فى ذلك حين قال (ان اجناس الشمال مليئة بشعلة الحياة واجناس الجنوب متحضرة ، واليونان وحدهم هم الذين يجمعون الطرفين فشعلة الحياة تملؤهم وهم فى الوقت نفسه متحضرون ، وافلاطون وأرسطو كلاهما قد ذهبا الى انه من الخطأ ان يتخذ من اليونان عبيد لكن ذلك عندهما جائز بالنسبة للشعوب البربرية) [١] .

ثم يبرز لنا رسل فكرة اخرى قال بها ارسطو حيث قبل عدم السماواة داخل المجتمع نفسه مما جعل راسل يتساءل (هل نرضى من الوجهة الخلقية عن مجتمع يسير وفق دستور من شأنه ان يخص الاقلية بأحسن الاشياء ويطالب الأكثرية بالقناعة بما هو دون ذلك ؟ يقول أفلاطون وأرسطو (نعم) ويوافقهما نيتشه) .

ويصدر حكمة على مثل هذا الاعتقاد بانه يخلق مشكلة اخلاقية سياسية فى آن واحد ، وبعد تحليل مستفيض يصل راسل الى اصدار حكمة الآتى (لهذه الاسباب فى رأيى يكون كتاب (الاخلاق) قليل الاهمية الذاتيه على الرغم من شهرته) [٢]

---

(١) تاريخ الفلسفة الغربية : برتراند رسل جـ ١ ص ٢٥١ ، ترجمة د. زكي نجيب محمود ومراجعة احمد امين ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٦٧ م

(٢) نفسه ص ٢٨٤ ، ٢٩٥ .

واذا كان هذا حال التصورات الاخلاقية عند فلاسفة اليونان فان امتداد تأثيرهم على الحضارة المعاصرة يجعلنا فى موقف اليقظة والتحذير من الاقتداء بقيمها الاخلاقية التى هى فى حقيقتها لا تخرج ، اما عن هدم الاخلاق وعدم الاعتراف بها كما فى الفلسفة الماركسية ، واما اخضاع الاخلاق الى وسيلة نفعية نأخذ بها ان حققت لنا المصالح والآمال ونلقى بها جانبا ونهملها ان لم تفعل.

وكلا التصورين يعبران عن الحضارة الغربية ، فان (ماركس)بسبب اعتقاده فى ان التقدم لا مندوحه عنه ، فقد ظن ان من الممكن (الاستغناء عن الاعتبارات الاخلاقية ، فاذا كانت الاشتراكية آتية فهى لا بد ان تكون تحسينا)[1] .

وهذه النظرية فى حقيقتها (لا اخلاقية) بالرغم من تناوله فى الحديث عن اخلاق الطبقة العاملة والقيم التى تضعها لنفسها لانه ما دامت القيم غير ثابته ، وانها تتغير وفقا للاغراض الطبقية فانه بذلك يهدم أهم ركن من أركان السلوك الاخلاقى الحق ، ولا ينطلى علينا حديثه عن التقدم المنتظر . وكذلك الفلسفة العملية الامريكية التى أقامت الاخلاق على تحقيق المنافع والمصالح بغير إقرار بثبات القيم الاخلاقية فى ذاتها ، ونكتفى بعبارة وردت على لسان احد الرؤساء السابقن ـ مستر ترومان ـ تفصح بجلاء عن هذا الاعتقاد حيث وصف مساعدة بلاده لاوروبا عقب الحرب العالمية الثانية بالمشروع المسمى بمشروع النقطة الرابعة فقال (ان مشروع النقطة الرابعة يعنى بالنسبة للولايات المتحدة توسيع نطاق التجارة وزيادة أسواق التصريف وتموين أمريكا بالمواد الاولية) ، وشاركه فى الرأى وزير الخارجية آنذاك حيث قال (ان الدافع على الرغبة فى نجاح المشروع ليس حب امريكا للنوع البشرى

---

(١) تاريخ الفلسفة الحديثة : برتراند رسل ـ جـ ٣ ترجمة محمد فتحي الشنيطي ٤٣٤ الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٩٧ ،

، بل هو مصلحة امريكا العملية) [1] .

٢ ـــ الشريعة الاسلامية وفضائلها الاخلاقية :

ووفقا لما توصلنا اليه من نتائج فى هذا الكتاب بموضوعية كاملة نستطيع البرهنة على ضرورة الاستمساك بشريعتنا الالهية التى تتصف ضمن ما تتصف به بالاخلاقيات والاتجاه بالانسان الى تحقيق (خلافة) الله تعالى فى الارض بتنفيذ مكارم الشريعة . يقول الاصفهانى (ومكارم الشريعة هى الحكمة والقيام بالعدالة بين الناس والحلم والاحساس والفضل والقصد منها أن تبلغ الى جنة المأوى وجوار رب العزة تعالى) [2] .

والشريعة فى هذا المجال لها دوران :

(أ) دور الردع والالزام كما يرى ابن جزم حيث تكف الناس عن القتل الذى فيه فناء الخلق وعن الزنا الذى فيه فساد النسل وخراب المواريث وعن الظلم الذى فيه الضرر على الانفس والاموال وخراب الارض وعن الرذائل من البغى والحسد والكذب والجبن والبخل والنميمة والغش والخيانة وسائر الرذائل [3] .

(ب) دور الحث على الاتصاف بمكارم الاخلاق كقول الله تعالى ﴿ **ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى** ﴾ وقوله تعالى ﴿ **قل تعالوا اتل ما حرم ربكم عليكم الا تشركوا به شيئاً وبالوالدين احسانا** ﴾ (الى انقضاء تلك الخصال فى سورة الانعام) (من الآيه ١٥١ وما بعدها) .

---

(١) التبشير والاستعمار في البلاد العربية : د. مصطفى الخالدي و د. عمر فروخ ص ١٩٦ المكتبة العصرية ـــ بيروت ١٩٧٣ م .

(٢) الذريعة الى مكارم اشريعة : الراغب الاصفهاني ص ٩١ . تحقيق الدكتور ابو اليزيد العجمي ط دار الوفاء للطباعة والنشر ١٤٠٥ هـ ـــ ١٩٥٨ م .

(٣) الفصل فى الملل والاهواء والنحل : ابن حزم جـ ١ ص ٧٩ ـــ ٨٠ ط صبيح ١٣٤٧ هـ .

والآيات كثيرة فى هذا الغرض حيث تحقق الاخلاق الفاضلة بحيث تجعلنا نؤيد الرأى القائل بأن (الشريعة انما هى تخلق بمكارم الاخلاق) [١] .

كذلك يتضح سمو شريعتنا بمقارنتها اجمالا بالشرائع السابقة عليها فإن الشرائع الثلاث ـ كما يفصلها شيخ الاسلام ابن تيمية ـ شريعة عدل فقط ، وشريعة فضل فقط وشريعة تجمع بين العدل والفضل ، فتوجب العدل وتندب الى الفضل ، وهذه اكمل الشرائع الثلاث ، وهى شريعة القرآن الذى يجمع فيه بين العدل والفضل ، مع انا لا ننكر ان يكون موسى عليه السلام اوجب العدل وندب الى الفضل ، وكذلك المسيح عليه السلام ايضا اوجب العدل وندب الى الفضل ...

والقرآن بين أن السعداء اهل الجنة ، فهم اولياء الله نوعان ، أبرار مقتصدون ومقربون سابقون . فالدرجة الاولى تحصل بالعدل وهى أداء الواجبات وترك المحرمات ، والثانية لا تحصل الا بالفضل وهى أداء الواجبات والمستحبات وترك المحرمات والمكروهات ، فالشريعة الكاملة تجمع العدل والفضل كقوله تعالى ﴿ **وان كان ذو عسرة فنظرة الى ميسرة** ﴾ فهذا عدل واجب ، من خرج عنه استحق العقوبة فى الدنيا والآخرة ، ثم قال ﴿ **وان تصدقوا خير لكم ان كنتم تعلمون** ﴾ (البقرة ٢٨٠) فهذا فضل مستحب مندوب اليه ، من فعله أثابه الله ورفع درجاته ، ومن تركه لم يعاقبه .

وقال تعالى ﴿ **ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة ودية مسلمة الى اهله** ﴾ فهذا عدل ، ثم قال ﴿ **الا ان يصدقوا** ﴾ فهذا فضل . وقال تعالى ﴿ **والجروح قصاص** ﴾ فهذا عدل ، ثم قال ﴿ **فمن تصدق به فهو كفارة له** ﴾ فهذا فضل .

وقال تعالى ﴿ **وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به** ﴾ فهذا عدل ثم قال

---

(١) تفسير القاسمي المسمي محاسن التأويل جـ ١ ص ٩٠ تصحيح محمد فؤاد عبد الباقي ط عيابي الحلي ١٣٧٦ هـ ـ ١٩٥٧ م .

﴿ ولئن صبرتم لهو خير للصابرين ﴾ فهذا فضل .

وقال تعالى ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴾ فهذا عدل ، ثم قال ﴿ فمن عفا واصلح فاجره على الله ﴾ فهذا فضل .

وهو سبحانه دائما يحرم الظلم ويوجب العدل ويندب الى الفضل والآيات ايضا كثيرة ، منها قوله تعالى ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله انه لا يحب الظالمين . ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل . انما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الارض بغير الحق أولئك لهم عذاب اليم . ولمن صبر وغفر ان ذلك لمن عزم الامور ﴾ وقال ﴿ ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغى عليه لينصرنه الله ان الله لعفو غفور ﴾ .

وهذا من أحسن الكلام وأعدله وأفضله ، حيث يشرع العدل فقال ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴾ ثم ندب الى الفضل فقال ﴿ فمن عفا وأصلح فأجره على الله انه لا يحب الظالمين ﴾ (١) .

فهذا احسن شرع وأجمله يرغب فى الصبر والعفو والاصلاح بغاية الترغيب ويذكر ما فيه من الفضائل والمحاسن وحميد العاقبة ، ويرفع عن المنتصف ممن ظلمه الملام والعدل ، ويبين انه لا حرج عليه ولا سبيل اذا انتصر بعد ما ظلم (٢) .

وان كانت العقيدة للمسلم بمثابة الجذور للشجرة فان الثمار هى الاخلاق وسياجها الشريعة التى تحيط هذه الاخلاق الفاضلة فتمنع عنها الريح العاصف وتهئ لها النمو والوفرة ، ومن ثم فاننا لا نتصور ان تزكو الاخلاق بالمفهوم الاسلامى وسط

---

(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح : ابن تيمية ـ جـ ٣ ص ٢٢٩ ـ ٢٣٠ مطبعه مدنى بدون تاريخ .

(٢) نفسه ص ٢٥٧ ـ ٢٥٨

أحراش من القوانين الوضعية التي قد تعرقل جهود المسلم نحو سلوك الحد الادنى للرقى الاخلاقى ، ونعنى بذلك الالتزام بالحلال والانتهاء عن الحرام ، بينما تحيط به قوانين تبيح شرب الخمر وصناعته ولا تحرم الزنا وتقنن التعامل بالربا وغير ذلك من (كبائر) فى شريعة الاسلام .

٣ ـ الايمان بالقدر فى الاسلام لا يتنافى مع اطلاق حرية الانسان فى العمل والسلوك :

ونأتى الى أهم عامل له صلة وثيقة بالمشكلة الاخلاقية وهى اطلاق الحرية للارادة وتحميل الانسان المسئوليه عن افعاله حيث التبس الامر بين الايمان بالقدر وبين الاعتقاد فى حرية الانسان ومسئوليته عن افعاله . حدث هذا بين المسلمين انفسهم فظهرت فرقة تسمى بـ (الجبرية) وربما امتدت العدوى الى غيرها من المسلمين ـ لا سيما فى العصور الاخيرة عندما فشى الجهل بعقائد الاسلام الصحيحة الا بين القلائل الذين لا يخلو منهم عصر من العصور .

ولكن المؤكد ان المسلمين الاوائل وفى العصور الزاهرة كانوا يعملون ويجتهدون تحت مظلة الايمان بالقدر ، ولم يمنعهم هذا الايمان من السعى والنشاط ، وما توقفت حركة الحضارة الاسلاميه الا فى ظل الاعتقاد المنحرف الذى أدى بهم الى الجبرية المعطلة عن العمل ، والبحث والسير قدما نحو الافضل والأرقى .

وهنا نحن نوضح المسألة بالاسترشاد بفهم السلف ، فان تاريخنا لا يعنى فقط قرونا مضت وانقضت ، ولكنه يحمل فى طياته النموذج الذى تحقق فى عصر الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين ومن تبعهم ، هذا النموذج يظل حيا شامخا ايضا فى جانبيه التشريعى والاخلاقى .

وكان الصحابة رضى الله عنهم على وعى كامل بالاحاديث التى قيلت لهم فى هذا الصدد بحيث فهموا منها ان (القدر السابق لا يمنع العمل ولا يوجب الاتكال

عليه بل يوجب الجد والاجتهاد ، ولهذا لما سمع بعض الصحابة ذلك الحديث الخاص بالقدر قال : ما كنت أشد اجتهادا مني الآن ، وهذا مما يدل على جلالة فقه الصحابة ودقة افهامهم وصحة علومهم [(١)] .

ويضرب ابن القيم الامثلة على ان سعي الانسان الى تحقيق أغراضه في الدنيا لا يتم الا بالسعي والاجتهاد في العمل كطلاب العلم والمتطلع الى تكثير النسل بالزواج والباحث عن زيادة الزرع بالغرس والعناية والحصد الى غير ذلك من أعمال الانسان العادية التي يسعى بارادته لتحقيقها كالاكل والشرب واللبس وغيرها ، الى ان يختم كل ذلك بقوله (وهذا شأن امور المعاش والمعاد ، فمن عطل العمل اتكالا على القدر السابق فهو بمنزلة من عطل الاكل والشرب والحركة في المعاش وسائر أسبابه اتكالا على ما قدر له ، وقد فطر الله سبحانه عبادة على الحرص على الاسباب التي بها مرام معاشهم ومصالحهم الدنيوية بل فطر الله على ذلك سائر الحيوانات ... فالقدر السابق معين على الاعمال وما يحث عليها ومقتضى لها ، لا انه مناف لها وصاد عنها ... فالنبي ﷺ ارشد الامة في القدر الى أمرين هما سببا السعادة : الايمان بالاقدار فانه نظام التوحيد ، والاتيان بالاسباب التي توصل الى خيره وتحجز عن شره وذلك نظام الشرع) [(١)] .

---

(١) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والتعليل : ابن القيم ص ٢٥ مكتبة الرياض الحديثة ـ مصورة عن طبعة الخانجي ١٣٢٣ هـ .

اما الحديث فقد اوردنا نصه بالكتاب عند عرض آراء بان القيم ، ولابأس من ذكر بعض الفاظه هنا للاستئناس حيث قال الرسول ﷺ (ما من نفس منفوسه الا كتب مكانها من الجنة أو النار والا قد كتبت شقية أو سعيدة فقال رجل يا رسول الله افلا نتكل وندع العمل .. فقال الرسول ﷺ اعملوا فكل ميسر لما خلق له .. ثم قرأ ﴿ **فاما مع اعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى واما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى** ﴾

(٢) نفسه ص ٢٦ .

وبعد ، فاننا نقدم هذا الكتاب لطلابنا ومثقفينا اسهاما منا فى اقناعهم بأن من حقنا وواجبنا الاستمساك بتراثنا الثقافى ذى النظام التشريعى والاخلاقى المتميز بحيث يغنينا عن الدوران فى فلك أى نظام ثقافى آخر ، غربيا كان أو شرقيا .

واذا كان الفكر الفلسفى قد أصاب النظام الاخلاقى بما يشبه الفوضى ، فان نظامنا الاخلاقى ما زال فى قمته لانه مستمد من الوحى الالهى ، وشرح تفاصيله علماؤنا وحكماؤنا عن دراية وفهم ، ونقلوه الينا عبر الاجيال .

صحيح اننا لم نعد نعبر عنه فى اوضاعنا العامة ــــ اللهم الا القلة منا ــــ ولكنه يظل مرتفعا شامخا لكى يساعدنا على قياسى مدى انحدارنا عنه ويظل حافزا للارتقاء اليه . ومن الحق أيضا القول فى النهاية بان اقتحام الغرب العسكرى والاقتصادى والسياسى والثقافى لامتنا قد أسهم اسهاما كبيرا فى تدهورنا .

والله تعالى المسئول ان يأخذ بيدنا الى ما يحب ويرضى

من مكارم الأخلاق ومعاليها .

وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين .

الجيزة فى ١٦ صفر سنة ١٩٠٤ هـ .

٢٠ أكتوبر سنة ١٩٨٦ م .

مصطفى بن محمد حلمى

الباب الأول

مذاهب أخلاقيه في الفلسفة الغربية

الفصـــل الأول : تعريف علم الأخلاق وصلته بعلوم أخرى .

الفصل الثاني : الأخلاق عند فلاسفة اليونان

الفصل الثالث : مذاهب أخلاقية فى الفلسفة الحديثة .

الباب الأول

مذاهب أخلاقية في الفلسفة الغربية

الفصل الأول

تعريف علم الأخلاق وصلاته بعلوم أخرى وأهدافه

ان أول ما ينبغى البدء به فى دراسة علم من العلوم هو التعريف به وبموضوعه فاذا حاولنا تعريف علم الاخلاق ، فانه من المسلم به أن نقدم المعنى اللغوى لأن الخلق فى اللغة هو (السجيه والطبع والعادة) ولكن المسألة ليست بهذه البساطة لأن كلمة (خلق) وحدها تحتمل معنيين الخلق الحسن والخلق القبيح ، ولذا فاننا ننتقل من تعريف الخلق لغويا الى تعريف علم الاخلاق وموضوع دراسته .

ويمكن تعريف علم الأخلاق من حيث البحث عن المبادئ وترتيبها واستنباطها والكشف عن أهميتها للحياة الأخلاقية ، مع بيان الواجبات التى يلتزم بها الانسان[1] .

ومن التعريفات لهذا العلم ما يتجه به نحو سلوك الانسان بالنظر الى مثل أعلى حتى يمكن وضع قواعد عامة للسلوك والافعال تعين على (فعل الخير والابتعاد عن الشر)[2] .

---

(١) مقدمة كتاب علم الأخلاق الى نيقوس ماخوس لارسطو : بارتلمى ص ٨ . ترجمة احمد لطفى السيد ، مطبعة دار الكتب ١٣٤٢ هـ ـ ١٩٢٤ م .

(٢) مقدمة فى الفلسفة العامة : د. يحيى هويدى . .

ويعتبر علم الأخلاق ـ أو الفلسفة الخلقية ـ عادة من العلوم المعيارية ـ اى لا تقتصر على دراسة ما هو كائن أو الاوضاع الراهنة ولكن بما ينبغى أن تكون عليه ـ ولذا فان مهمته هو (وضع الشروط التى يجب توافرها فى الارادة الانسانية وفى الأفعال الانسانية لكى تصبح موضوعا لاحكامنا الأخلاقية عليها) [(١)] .

ومن هذا التعريف نرى أننا فى حاجة الى ايضاح كثير من الموضوعات فى المجال الأخلاقى .

ان أول مسألة تواجهنا فى دراسة الأخلاق هى معرفة الفرق بين الارادة الخلقية والارادة الطبيعية ، فان أفعال الانسان وسلوكه منها ما هو صادر عن دوافع طبيعية غريزية بحته شأنه فيها شأن الحيوان ، ومنها ما يخضع للقوانين والمبادئ والقواعد (ان الحياة الانسانية الصحيحة لا تبدأ الا من حيث تنتهى الحياة الحيوانية الصرفة) [(٢)] .

كما يواجهنا أيضا النظر فى القيم أو المبادئ الخلقية أو المثل العليا .

أى على وجه الاجمال ، نحن فى دراستنا للأخلاق نقف وجها لوجه أمام الانسان الذى يخوض تجربة الحياة الابتلائية بكل ما فيها من خير وشر ، ونحاول أن نتعرف على مدى قدرته على اجتياز هذا الطريق أو ذاك .

وهنا نجد قدرا كبيرا من الاتفاق على أن المبادئ الخلقية والمثل العليا قد حازت فى تاريخ الانسانية الطويل على قدر ثابت من التأييد . فقد غرس الله تعالى فينا بصائر أخلاقية فطرية ، اذ مهما بلغت درجة الانحراف والفساد اللذين قد نسقط فيهما وفيما عدا حالات استثنائية خاصة بضلال الضمير ، فاننا نعترف ونحب ونقدر

---

(١) مدخل لدراسة الفلسفة ص ٨٩ : ٩١ ، تأليف ليون جوتييه ترجمة محمد يوسف موسى سنة١٣٦٤ هـ ـ، ١٩٤٥ م دار الكتب الاهلية .

(٢) المشكلة الخلقية : زكريا ابراهيم . ص ٣٣ مكتبة مصر بالفجالة سنة ١٩٦٩ م .

الفضيلة فى ذاتها وفى غيرها حتى ان أعوزتنا الشجاعة للارتفاع الى مستواها) [1] .

والذى ظهر من دراسة علماء النفس فى بحوثهم فى سيكلوجية الشعوب أن الاحكام التقديرية على السلوك الانسانى ظهرت أول ما ظهرت فى صورة الأفكار الدينية والاعمال التى يطالب بها الدين . كما ظهرت فى العرف والتقاليد الاجتماعية[2] .

كذلك كشف الدراسات الانثروبولوجية الحديثة أن تاريخ الحضارة البشرية ملئ بالشرائع الأخلاقية وانها تتقارب تقاربا شديداً [3] ، وحتى اذا افترضنا وجود اختلافات بينها فانه ليس هناك ما يمنع ظهور أخلاقية مطلقة [4] . وهذا يعنى أن الاساس الاخلاقى فى البشرية فطرى ، وأن للقيم وجودها الذاتى حيث تفرض نفسها على الوجدان البشرى بطريقة أولية حدسية (أما عجز بعض الأشخاص عن ادراك القيم أو التمييز بينها انماهو « العمى الخلقى » الذى قد يرجع الى انعدام النضج أو نقص التربية لديهم) [5] .

واذا عدنا الى استعراض التعريف الذى بدأنا به كلامنا ، فاننا نجد أنفسنا فى حاجة الى بيان الآتى :

١ـ صفة علم الاخلاق كعلم معيارى وليس علماً وضعيا .

٢ـ التعريف بالقيم أو المبادئ الاخلاقية .

٣ـ الالزام الاخلاقى .

---

(١) مدخل الى دراسة القرآن الكريم : د. دراز ص ٨٩ ترجمة محمد عبد العظيم على ـ مراجعة د. السيد بدوى دار القرآن الكريم ـ دار القلم بالكويت ١٣٩١ هـ ـ ١٩٧١ م .

(٢) مدخل لدراسة الفلسفة : جوتييه ص ٩١ .

(٣) المشكلة الخلقية :.زكريا ابراهيم . ص ٦٢ . (٤) نفسة ص ٦٣ . (٥) نفسة ص ٧٦ .

(١) علم الاخلاق علم معيارى :

اتضح لنا من التعريفات الآنفة لعلم الاخلاق أن النظرة التقليدية له تعده علما معياريا أى يدرس ما ينبغى ان يكون عليه السلوك الانسانى فيضع بذلك قوانين الافعال الانسانية ومثلها أو المبادئ العليا لها ، وكان هذا هو الاتجاه التقليدى (المعتمد بين جمهرة الأخلاقيين فى فهم هذا العلم وتحديد منهجه . ولكن مدرسة من علماء الاجتماع فى فرنسا قد اتجهت بالأخلاق فى نهاية القرن الغابر ومطلع القرن الراهن اتجاها اجتماعيا صورت فيه علم الاخلاق فرعا من علم الاجتماع موضوعا ومنهجا[١] .

وقد ذهب أتباع هذه المدرسة الى اعتبار علم الأخلاق علما وضعيا فهدموا بذلك التصور التقليدى له[٢] .

لقد فصل ليفى بريل واستاذه دروكيم علم الاجتماع عن الفلسفة وأطلقا عليه اسم (علم العادات) اشارة الى ان الاخلاق هى دراسة موضوعية تجريبية لقوانين العادات الخلقية عند الانسان .

ولكن علم الاخلاق ـ حتى كعلم عادات ـ لا يمكن أن يتجرد عن المبادئ والقيم المعنوية التى لا تخضع للتجربة .

ان الطرق التجريبية لم تحل لنا اطلاقا هذه المبادئ التى هى فى جوهرها معنوية ، فان التجربة لم تخبرنا عن حقيقة الخير أو الشر أو السعادة أو الكرم أو الشجاعة ... الخ .

ومن الثابت تاريخيا ان من المحاولات التى عرضت المبادئ الخلقية للاهتزاز كانت

(١) المجمل فى تاريخ علم الاخلاق : سد جويك جـ ١ ص ١٠

(٢) نفسة ص ١١ / ١٢

بواسطة السوفسطائية القدماء فى بلاد اليونان حيث أنهم فى نظريتهم فى المعرفة قد اتخذو من الفرد مقياسا للاشياء فأصبحت الحقائق وليدة الاحساسات والانطباعات الذاتية الفردية فشككوا فى وجود الحقيقة الموضوعية الثابته . كما امتدت نظريتهم الأبستمولوجية أى فى المعرفة ـ الى مجال الاخلاق (فكان الفرد مقياس الخيـــر والشـــر) (١) .

ووقف فى وجههم سقراط بشدة رافضا قبول نظريتهم فى المعرفة والنتائج الأخلاقية لمذهبهم ، ورد الحقائق الى العقل ، وأقر بوجود قيم موضوعية مطلقة (لا تختلف باختلاف الزمان والمكان ، ولا تتغير بتغير الظروف والأحوال) (٢) .

وتتفق النظريه السقراطية مع ما ذهب اليه الفلاسفة التقليديون حيث وضعوا الأخلاق ضمن علومهم المعيارية كما أوضحنا ـــ فأصبح موضوع الأخلاق عندهم هو قيمة الخير (٣) وبهذا التوضيح يظهر الفرق الأساسى بين النظرية الفلسفية التقليدية للأخلاق وبين النظرية الوضعية أو الوصفية أو التقريرية ـــ التى تبناها بعض علماء الاجتماع ـ حيث أصبحت الأخلاق عندهم هى مجرد (القواعد السلوكية التى تسلم بها جماعة من الناس فى حقبة من حقب التاريخ) (٤) فنزعوا عن القيم الأخلاقية فكرة الثبات والدوام التى عرفناها عند مثل سقراط .

وربما نشأت المشكلة فى ميدان البحث الأخلاقى ان الأخلاق ترفض دافع البحث عن اللذة لذاتها كسلوك أخلاقى ، لأن الشعور الخلقى يظهرنا ان ابتغاء اللذة لا بد أن يفضى الى حالة أليمة من التشتت الروحى والضياع النفسى ، أى أن مسايرة الطبيعة من حيث نشدان اللذة وتجنب الألم لا تحقق لدى الانسان مكارم الأخلاق التى يستمدها من معرفته للقيم والمبادئ الأخلاقية والمثل العليا .

---

(١) الفلسفة الخلقية : د. توفيق الطويل ص ١١ . (٢) نفس المصدر ونفس الصفحة .

(٣) مشكلة الفلسفة : د. زكريا ابراهيم ص ٥٠٢ . (٤) نفسه ص ٢٠٤

وفى نظرة اجمالية عامة لآراء فلاسفة الأخلاق رأينا سقراط قد خلع على الاخلاق طابعا عقليا لأنه عد الفضيلة علم والرذيلة جهل ، وكذلك اتجة كانط فى العصر الحديث الى اعتبار الأوامر المطلقة فى الأخلاق بمنزلة البديهيات فى الرياضة أو الطبيعة .

ومن واقع هذه النظريات وغيرها التى تضع الأخلاق فى صورة مبادئ وقوانين أخلاقية بصورة معيارية نعمل على تحديد القواعد كالحال فى المنطق ، فان الاخلاق فى هذه الحالة تصبح تشريعا وتضطلع بمهمة التكليف والالزام لا بمهمة العلم أو المعرفة) [1].

(٢) التعريف بالقيم :

وفى تعريفنا للمبادئ نستطيع أن نقول انها سواء كانت خاصة بالعلوم أم بالأخلاق فهى القضايا الأولية (التى تعد نقطة بدء ضرورية لكل بحث كمبادئ علم الهندسة ، وكمبدأ الحتمية العام فى علم الطبيعة ، وكمبدأ الواجب المطلق فى الأخلاق [2] .

وكان من الشعارات التى تمسك بها كثير من فلاسفة الأخلاق فى القرون الوسطى بأوربا هو انه من الضرورى الا توضع المبادئ موضع الشك أو المناقشة . وكان القديس أوغسطين مثلا يذهب الى أن هذه المبادئ حقائق أبدية ترتبط بالوجود الالهى) [3] .

ولكن فى العصر الحديث أصابت المبادئ الاخلاقية ما أصاب باقى المبادئ للعلوم الاخرى ، وأصبحت المكانة التى تتمتع بها هدفا للهجوم ، وذلك نتيجة

---

(١) نفسه ص ٢٠٩ .

(٢ و ٣) اتجاهات الفلسفة المعاصرة : بربيه ص ٨٩ .

للملاحظات (التى تقررها فلسفة العلوم فيما يتعلق بالتحولات الحديثة فى العلوم الرياضية والطبيعية وفى العلوم الاخلاقية والسياسية أيضا) [1] .

ومن الخطورة بمكان انزال القيم أو المبادئ الاخلاقية من مكانتها واستهدافها لتأثير النظريات النسبية التى سادت فى القرن التاسع عشر ، حيث امتدت فكره الحقائق النسبية الى ميدان الأخلاق وغلت فى القول بنسبيتها ، وسوت بين العادات الأخلاقيه المتغيرة فى كل قطر وفى كل أمة وفى كل عصر ، وبين القاعدة الأخلاقية الثابتة) [2] .

نخلص من كل ذلك الى أن كلمة القيم أو المبادئ تشير الى معانى الضرورة والكلية والثبات والاطلاق ، ولهذا فاننا نحذّر من النظر الى المبادئ الاخلاقية بمفهوم العصر الحاضر فى الغرب المتسم بطابع النسبية والمرونة ، لأننا اذا اخضعنا القيم الأخلاقية الى قوانين التغير والنسبية فلن نلبث ان نصيب الحقيقة فى الصميم (وبالتالى فانه لن يلبث أن يؤدى الى بلبلة الرأى العام الأخلاقى) [3] .

ولتفادى الوقوع فى هذا المأزق ، ينبغى تحرير الفعل الاخلاقى من التقيد بالزمان أو المكان ، لأنه لا يكون اخلاقا على الحقيقة الا اذا تخلص من الرغبة أو الهوى ، وانفصل عن الرغبة فى تحقيق منفعة أو رغبة [4] . أى التزم بقانون يخالف منافعه ورغباته .

(٣) الالزام الاخلاقى :

والالزام فى القانون الأخلاقى ينبع من ذاته ، أو بعبارة أخرى فان الاساس فى

---

(١) نفسه ص ٩٠ (٢) نفسه ص ٩٤

(٣) المشكله الخلقية : زكريا ابراهيم ص ٦٠ .

(٤) مقدمة اسس ميتافيزيقا الاخلاق: د. الشنيطى ص ٣

الالتزام صادر عن الانسان نفسه بمحض ارادته .

يقول كارليل (يجب على الانسان أن يفرض على نفسه قاعدة داخلية حتى يستطيع ان يحتفظ بتوازنه العقلى والعضوى . ان أى دولة قادرة على فرض القانون على الشعب بالقوة ، ولكن لا تستطيع أن تفرض عليه الاخلاق) [١] .

ولكن الالزام الاخلاقى يختلف عن الحتمية فى القانون الوضعى ، فهذا الالزام ينطوى على المسئولية الاخلاقية لان الافعال تصدر عنا ككائنات أخلاقية نملك الحرية وهى وثيقة الصلة بالاخلاق [٢] . وينبغى ان يدرك كل فرد ضرورة فعل الخير وتجنب فعل الشر وان يرغم نفسه على اتباع هذا المنهاج ببذل جهد ارادى ، فالالزام هو المحور الذى تدور حوله المشكلة الاخلاقية لان زوال فكرة الالزام تقضى على الحكمة العقلية والعملية التى ينبغى تحقيقها ، فاذا انعدم الالزام انعدمت المسئولية وضاع الأمل فى اقامة العدالة وعمت الفوضى وساد الاضطراب [٣] .

وهكذا فاننا نجد انفسنا امام علاقات واضحة محددة تتناول المبادئ الاخلاقية فى اطلاقها وثباتها وعموميتها كهدف اسمى يسعى الانسان لتحقيقه . ودعائم الالزام التى تشكل عنصر الضرورة للفعل الاخلاقى ، مع توافر حرية الارادة لتأكيد المسئولية حتى يصبح للثواب والعقاب معنى .

ولكننا سرعان ما نصطدم بالمشكلة الاخلاقية ، وهى مزدوجة تتمثل فى معرفة الخير ثم فى طريقة فعله [٤] وتتضح أبعاد هذه المشكلة فى الالحاح المستمر الذى

---

(١) الانسان ذلك المجهول : الكسيس كاريل ص ١٥٢ : ٤٥٣ .

(٢) الأخلاق بين الفلسفة وعلم الاجتماع ص ٦٧ ، دار المعارف

(٣) الأخلاق بين الفلسفة وعلم الاجتماع : د. سيد بدرى :ص ٦٧ دار المعارف بالاسكندرية ١٩٦٧ م

(٤) الفلسفة الخلقية : توفيق الطويل ص ٣١ .

يواجه الانسان فى نشاطه الدائم للاختيار بين هذا الفعل أو ذاك واضطراره لأن يفرض على نفسه قاعدة معينة للسلوك فيختار الأحسن من بين أوجه التصرف العديدة وأن يتخلص من أنانيته وحقدة (١) .

وما دمنا نعتبر الانسان هو محور دراستنا ، فان مما لا شك فيه ، أن النظر فى سلوك الانسان ينتقل بنا الى مشاكل جديدة تدخل فى نطاق دراستنا من حيث التزامه الخلقى ومسئوليته عن أفعاله التى ترتكز على ركنين أساسيين هما العقل وحرية الاختيار (٢) .

الانسان وحياته الأخلاقية :

ان النظام الاخلاقى يوجهنا ـــ كما يقول دوركايم ـــ نحو السيطرة على النفس بالذات ويعلمنا كيف نسلك على غير ما تريد دوافعنا الباطنة ، فلا يترك نشاطنا ينساب فى مجراه الطبيعى ، ولكن يعلمنا كيف نقدم السلوك بمجهود . ولذا فان كل فعل أخلاقى يتضمن مقاومة نبديها لميل معين ـــ وكبتا لشهوة ما ـــ وتقييدا لنـزوع خاص (٣) .

أضف الى ذلك أن الانسان هو الكائن الأخلاقى الذى أعده الله سبحانه لقابلية الارتفاع الى درجات الكمال بمقتضى روحه التى تمده لبلوغ الغاية المطلوبة وهو يشعر فى أعماقه بهذا النزاع الدائم بين روحه المهيأة وبين أخلاط عناصر جزئه الأرضى أى جسده المعرض للسقوط (٤) .

---

(١) الانسان ذلك المجهول ص ١٥١

(٢) فلسفة الاخلاق الصوفية عند ابن عربى : زكريا ابراهيم ص ١٧٩ .

(٣) التربية الاخلاقية : اميل دوركيم ص ٤٧

(٤) ابن باديس حياته وآثاره اعداد وتصنيف : د. عمار السالبى جـ ١ ـ ص ٥٠٥
دار ومكتبه الشركة الجزائرية ١٣٨٨ هـ ـ ١٩٦٨ م.

ان الدور الذى تقوم به الأخلاق هو تجريد هذا العنصر الروحى فترتقى به فوق المستوى الطبيعى [1] ، وهو ما يسميه بارتلمى المبدأ الأسمى أو القانون الملزم لنا .

وتفسير ذلك أن الانسان يجد فى نفسه صوتا يناجى ضميره فيمدحه اذا ما عمل صالحا ويلومه اذا ما عمل سيئا ، فهو بمثابة القانون الملزم الذى يناجى العقل (هو المبدأ الاسمى وفوق الانسانى) [2] .

ويذهب بارتلمى الى أننا نشعر فى أعماق نفوسنا بصدى هذا القانون ونعجز عن تغييره رغم وحى منافعنا وعمليات شهواتنا . هذا دليل على أنه أمر مغاير لنا ، وهو ما يعنيه بقوله (هو فينا ولكنه ليس ايانا) .

وربما يأتى فى العبارة التالية للاراده شارحا لمقصوده ، فان الارادة على عكس هذا القانون (هى نحن .. نحن ، وهى شخصنا .. وبقدرتنا المزدوجة على الطاعة والعصيان) [3] .

فالارادة تستطيع بما لها من حرية • ويطلق عليها صفات الهبة المعجزة المخيفة) ـ أن تنفذ هذا القانون أو تخالفه . ومن الصراع الناشب بينها يجد الانسان أنه يحمل فى نفسه ما يشبه القانون أو المحكمة تملك الحق فى اصدار الحكم بالادانة أو البراءة حسب أنواع سلوكه ، ورهن قدرتها على تنفيذ الاحكام قاصرة اما على الرضا ان عمل خيرا واما باللوم ووخز الضمير ان عمل شرا [4] .

ان الأخلاق اذن لصيقة بالاراده ، تدور معها ايجاباً وسلباً ، أى صعوداً الى المستوى الانسانى الراقى ، أو هبوطاً الى المستوى الحيوانى .

---

(١) المشكلة الأخلاقية : زكريا ابراهيم ص ٢٨ .

(٢) مقدمة كتاب الأخلاق لأرسطو : بارتلمى ص ١٣ (٣) باتلمى : ص ١٣

(٤) نفسه ص ١٣ .

وتأكيداً لهذه المكانة ، فان الدكتور دراز قد حدّد تعريف الخلق بأنه (قوة راسخة فى الارادة تنزع بها الى اختيار ما هو خير وصلاح وان كان الخلق حميداً « أو الى اختيار ما هو شر وجود » ان كان الخلق زميماً) [1]

وكأنه يضعنا بهذا التعريف أمام مرآة نفسنا لكى ننظر فيها ثم نعدل اتجاه ارادتنا لنتحرى فعل الخير ونتجنب فعل الشر .

وهذا هو هدفنا من دراسة علم الأخلاق .

الهدف من دراسة علم الأخلاق :

قلنا فى البداية إن الخلق فى اللغة هو السجية والطبع والعادة ولكن كلمة (خلق) وحدها لا تعطى معنى الأخلاق الحسنة لأنها تحتمل المعنيين الحسن والقبيح ، فكيف نكتسب الأخلاق الحسنة ونتخلص من الأخلاق السيئة ؟

ان هذا السؤال فى موضوعه تماما لأننا نعتقد أن ثمرة العلم العمل ، فلا يكفى فى الدراسة الأخلاقية البحث العلمى فى الحياة الخلقية وقوانينها ، ولكن يجب أن نهدف الى الاقناع بأنه فى امكاننا بواسطة الجهد الدائب ان نرتفع بأخلاقنا الى المستويات الحسنة وان نتخلص من الأخلاق السيئة ، وهذا ما تنبه اليه علماء الاسلام حيث هدفوا الى التخلق بالأخلاق الفاضلة بالتكلف والمران . منهم الامام ابن القيم الذى رأى أى تكون الخلق بالنفس يتم على مراحل ويأتى بالتكيف والتمرن ، كالتحلم والتشجع والتكرم وسائر الأخلاق ، فاذا تكلفه الانسان واستدعاه صار سجية وطبعا مستندا فى ذلك الى حديث الرسول ﷺ (ومن يتصبر يصبره الله) [2] .

---

(١) دراسات اسلامية فى العلاقات الاجتماعية والدولية : للدكتور محمد بن الله دراز ص ٨٨ ط دار القلم بالكويت ١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣

(٢) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين : ابن القيم ص ١٢ مطبعة الامام بمصر تعليق زكريا ابراهيم .

ويقول الراغب الاصفهانى (الانسان مفطور فى أصل الخلقة على أن يصلح أفعاله وأخلاقه وعلى أن يفسدها ، وميسر له أن يسلك طريق الخير والشر) [١] .

وتصبح الدراسة الأخلاقية مساعدة على بذل الجهد الأخلاقى المطلوب ، اذا اقتنعنا بعد البحث والدراسة ان فى امكان الانسان التخلص من أخلاقه الرديئة واكتساب الأخلاق الحسنة ، فالعلم لا بد أن يقودنا الى العمل والا فلا فائدة فيه اذ الاكتفاء بالعلم دون العمل مضيعة للوقت والجهد .

الهدف اذن من علم الأخلاق ـ كما يحدده ابن مسكويه (٤٢١ هـ) أن نحصل لانفسنا خلقا تصدر به عنا الافعال كلها جميلة ، وتكون مع ذلك سهلة علينا لا كلفة ولا مشقة ويكون ذلك بصناعة وعلى ترتيب تعليمى [٢] .

ويشير ابن مسكويه فى عبارته الى رياضة النفس وتقويمها بالتهذيب والصقل حتى تصير الأخلاق ملكه .

ويقول زميلنا الفاضل الدكتور عبد اللطيف العبد (انه لا بد من اعادة بناء شخصية الانسان المسلم على أساس من القيم الأخلاقية الرفيعة ، المستمده من شريعة الله تعالى . لا على أساس المنهج المادى وحده ، هذا المنهج الذى يجعل من الانسان شخصية هزيلة الروح . وشبحا بعيدا عن الانسانية والرحمة) [٣] .

ولتحقيق ذلك لا بد من معرفتنا بأنفسنا والوقوف على المعركة الدائرة فيها بين الارادة والغرائز .

---

(١) تفصيل النشأتين : للراغب الاصفهانى ص ٥٢ .

(٢) تهذيب الاخلاق : ابن مسكويه ص ٢

(٣) الأخلاق فى الاسلام : د. عبد اللطيف العبد ص ٥ مكتبة دار العلوم ١٤٠٥ هـ ١٩٨٥ م .

* الانسان بين الغريزة والارادة :

مهما تعددت النظريات الأخلاقية وتباينت الفلسفات التى تعالج المشكلات الأخلاقيه فانها تتفق على موضوع واحد تتخذ منه أساسا لابحاثها وهو الانسان بعامة والارادة الانسانية بخاصة اذ أن الأخلاق تدور على ماهية الانسان (١) . فهى تعنى بالبحث فى عواطفه وغرائزه وانفعالاته وميوله وحاجات أساسية يتفق فيها مع الحيوان ، وهى تمثل الحد الادنى للانسان . كما أن هذا الانسان يتميز عن الحيوان بالعقل والعلم والاراده . ولا يعنينا فى الدراسة الأخلاقيه كما قلنا العلوم والمعارف بل يعنينا فى المقام الاول الارادة الانسانية . ولهذا قلنا ان هذه الارادة هى مركز الدائرة فى معظم ـ ان لم يكن كافة مذاهب المفكرين الأخلاقيين والفلاسفة ، لأن علم الاخلاق يتناول دراسة أفعال الناس بالقياس الى مثل أعلى (٢) .

وعندئذ يتضح لناموضوع هذا العلم بصورة شاملة ولا نقصد بالافعال الفصل بين النشاط الفسيولوجى والنشاط العقلى فى الانسان الا مجرد محاولة تبسيط الموضوع الذى نحن بصدده . فالحقيقة أن الجسم والروح هما وجهان لشئ واحد ، فلا الروح ولا الجسم يمكن أن يفحص كل منهما على حده ـ اذ يتكون الانسان من جميع وجوه نشاطه الفعلية والمحتملة ، ولكننا مع هذا سنظل نتحدث عن الروح باعتبارها شيئا ذاتيًا (فالروح هى جانب أنفسنا المحدد طبيعتنا والذى يميز الانسان عن جميع الحيوانات الاخرى) (٣) .

والواقع أن كل عصر وكل مجتمع انما يضعان تحت (مفهوم الانسان) انسان (هذا العصر) أو (هذا المجتمع) لا (الانسان المطلق) أو الانسان بصفة عامة . واذا كان من الحق أن الرجل اليونانى قديما لم يكن يحسب للرجل البربرى أى

---

(١) تاريخ الفلسفة اليونانية : يوسف كرم ص ٥٣ .

(٢) مقدمة فى الفلسفة العامة : د. هويدى ص ٢٠٤ . (٣) الانسان ذلك المجهول ص ١٤١

حساب ، فان من الحق أيضا كما يقول دوركايم ـ ان الرجل الاوروبى فى أيامنا هذه ما يزال يعتقد أن الانسان هو على وجه التحديد (انسان هذا المجتمع الغربى المسيحى) [١] . وهذه النظرة تفسر لنا اختلاف الفلاسفة وعلماء الأخلاق فى معالجتهم للمسائل الأخلاقية ، وتكشف عن النزعة العنصرية أيضاً .

على أن الاكتفاء بوصف الانسان بأنه كائن ناطق روحى شاعر بذاته [٢] . قد يصلح فى مجال دراسة علم النفس الذى يعنى بدراسة الانسان من الناحية النفسية أو العقلية ، ولكنه لا يعطينا المدلول الرئيسى فى مجال الأخلاق اذ لابد من اثبات الارادة حتى يمكننا تحليل السلوك الانسان من حيث حرية الفعل أو العكس . وتظهر المسئولية الأخلاقية بوضوح اذا نظرنا الى ركنيها الرئيسيين وهما ـ كما بينا من قبل ـ العقل وحرية الاختيار [٣] وما دام الامر كذلك فان البحث فى مجال الاخلاق له صلة وثيقة بالتربية .

صلة الأخلاق بالتربية :

تبين لنا مما تقدم أن العنصر الجوهرى فى طبيعة الانسان هو العنصر العقلى أو الروحى ، واذا كان يتشابه مع الحيوان فى اشتراكهما فى الشهوات والاحساسات ، فانه يتميز بالعقل [٤] يستطيع بفضله أن يعرف ، كما يستطيع بفضل ارادته تهذيب شهواته بالرياضة والتربية .

وتظهر الوظيفة الاولى للمربى فى العمل على تفتيح ذهن الحدث أو الشاب

---

(١) المشكلة الخلقية : زكريا ابراهيم ص ٦١ .

(٢) مقدمة كتاب سد جويك : توفيق الطويل ص ٣٥ جـ ١ دار نشر الثقافة بالاسكندرية ١٩٩٤م

(٣) الكتاب التذكارى ـ ابن عربى: توفيق الطويل ص ١٧٩
الهيئة العامة للتأليف والنشر ١٣٨٩ هـ ١٩٦٩ .

(٤) الفلسفة الخلقية : د. توفيق الطويل ص ٣٢٣

للقيم الخلقية [1] .

والتربية لغويا من ربا يربو اذا زاد ونما . فهى تعهد الشئ ورعايته بالزياده والتنمية والتقوية والأخذ به فى طريق النضج والكمال الذى تؤهله له طبيعته) [2] .

وتظهر التربية الانسانية الكاملة اذا نظرنا الى احتياجات الانسان المتعددة ومواهبة المتنوعة واحطنا بقواه وملكاته جميعها لكى نتعهدها بالتنمية والتقوية .

وتتعدد أنواع التربية تبعا لقوى الانسان وملكاته ، فمنها التربية البدنية لتنمية الجسم وحفظ الصحة ، والتربية الأدبية التى تتعهد اللسان وتقومه وتصلح بيانه والتربية العقلية لتصحيح تفكيره وأحكامه ، والتربية العلمية التى تزوده بالمعلومات النافعة والتربية المهنية التى تساعده على كسب عيشه ، والتربية الفنية التى توقظ شعوره بجمال الكون ودقة تنسيقه وتنظيمه ، والتربية الاجتماعية وهدفها تنمية روح الايثار والغيرة ضد الانانية والتعريف بالنظم والقوانين السائدة بالمجتمع . وهناك أيضا التربية الانسانية لتوسيع الأفق والتنبيه الى الاخوة العالمية . والتربية الدينية للتسامى بالروح الى الافق الأعلى باطلاق . وتأتى التربية الخلقية للتوجيه المستمر للعمل على سنن الاستقامة حتى تتكون العادات الصالحة والأخلاق الحميدة الراسخة [3] .

ومن المعلوم أن التربية الخلقية هى السياج التى تحيط بألوان التربية جميعا ، فمن واجب الفنان مراعاة قانون الحشمة واللياقة والمحافظة على ستر الحياء والعفاف ، وعلى المعلم الاحسان فى اختيار مادة تدريسه العقلى واللغوى .. وهكذا ينبغى أن تخضع سائر ألوان التربية فى وسائلها وأساليبها وبواعثها لقواعد الآداب وأن نقيس

(١) المشكلة الخلقية : زكريا ابراهيم ص ١٥

(٢) دراسات اسلامية فى العلاقات الاجتماعية والدولية : د. دراز ص ١٢٣

دار القلم بالكويت ١٣٩٣ هـ : ١٩٧٣ م

(٣) نفسة ص ١٢٤

ذلك كله بمقاييس الفضيلة [1] .

وتحتاج التربية الخلقية الى أنواع من التعب والصبر وطول المرانة لتكوين الملكة الخلقية حى يصبح السلوك الأخلاقى عملا انبعاثيا محببا الى القلب . أما الكسالى الضعفاء فلا تتكون لديهم الملكات بل تموت مواهبهم وتضعف عزائمهم ، ويحرمون من الاضطلاع بأعباء الحياة والتأثير فيها بل يعيشون ويموتون فى جهالة جهلاء [2] .

كذلك لا ينبغى أن نغفل بيان الصلة الوثيقة بين الأخلاق والدين كمصدر رئيسى لقدسية القوانين الأخلاقية ودافع قوى للانسان الى الأعمال الخيرة .

صلة الأخلاق بالدين :

هناك تعريفات مختلفة للدين بوجه عام ، منها (أنه حالة خاصة بالشخص مؤلفة من عواطف وعقائد ، ومن أعمال عبادية تتعلق بالله) أو أنه نظام اجتماعى لطائفة من الناس يؤلف بينها اقامة شعائر موقوتة ، وتعبد ببعض الصلوات وايمان بأمر هو الكمال الذاتى المطلق وايمان باتصال الانسان بقوة روحانية أسمى هى الله الواحد ، أو هو احترام فى خشوع لقانون أو عادة أو عاطفة [3] .

واذا نظرنا الى الدين باعتباره معرفه الحق الأعلى وتوقيره .

والى الخلق باعتباره قوة النزوع الى فعل الخير وضبط النفس عن الهوى ، فاننا امام فضيلتين أحدهما نظرية والأخرى عملية .

---

(١) نفسة ص ١٢٥ .　　(٢) آداب الاسلام : محمد ابو بكر وآخرون ص ١٠٣ .

(٣) الدين والوحى والاسلام : مصطفى عبد الرازق ص ١٢ (مؤلفات الجميعة الفلسفية المصرية ط الحلبى ١٣٦٤هـ : ١٩٤٥ م.

غير أنه لما كانت الفضيلة العملية يمكن أن تتناول حياة الانسان فى نفسه وفى مختلف علائقه مع الخلق ومع الرب ، كان القانون الأخلاقى الكامل هو الذى يرسم طريق المعاملة الالهية كما يرسم طريق المعاملة الانسانية . وكذلك لما كانت الفكرة الدينية .

الناضجة هى التى لا تجعل من الالوهية مبدأ تدبير فعال فحسب ، بل مصدر حكم وتشريع فى الوقت نفسه ، كان القانون الدينى الكامل هو الذى لا يقف عند وصف الحقائق العليا النظرية واغراء النفس بحبها وتقديسها بل يمتد الى وجوه النشاط المختلفة فى الحياة العملية فيضع لها المنهاج السوى الذى يجب أن يسير عليه الفرد والجماعة . وهكذا يصل القانون الدينى اذا استكمل عناصره الى بسط جناحيه على علم الأخلاق كله ، بل على سائر القوانين المنظمة لعلاقات الأفراد والشعوب بحيث يجعلها جزءا متمماً لحقيقته ويصبغ كل قواعدها بصبغته القدسية [١] .

والعقيدة باعتبارها المصدر الرئيسى للاحساس بقدسية القوانين الأخلاقية هى أكبر دافع يدفع الانسان الى الاعمال الايجابية الخيرة وأقوى رادع يكفه عن اتباع الهوى [٢] .

وبذلك يظهر تفوق العقيدة الدينية فى الحياة الانسانية اذا قورنت بالقانون ذلك لأن القانون لا يكفى وحده لضبط السلوك الانسانى . ويذهب الفيلسوف الالمانى فيخته الى أن الأخلاق من غير دين عبث ، وبالمثل يضع غاندى الدين ومكارم الأخلاق فى مرتبة واحدة لا يقبلان الانفصال بل يرى أن الدين يغذى الأخلاق وينميها وينعشها كما أن الماء يغذى الزرع وينميه .

ولا نذهب بعيدا اذا استشهدنا بنتائج التحقيق التى اجراه القاضى البريطانى ديننج

(١) الدين : دراز ص ٥٥ ـ ٥٦ .　　(٢) الاتجاه الأخلاقى : المقداد يالجن ص ١٢٣ .

فى فضيحة الوزير البريطانى وكريستين كيلر حيث مكث نحو ثلاثة شهور يحقق فى هذه القضية قابل خلالها ١٨٠ رجلا وامرأة وعكف يدرس القضية بمنظار الباحث المدقق ، فخرج منها بنتيجة هامة أعلنها فى قوله (بدون الدين لا يمكن أن تكون هناك وبدون أخلاق لا يمكن أن يكون هناك قانون) [١] .

أما عن مكانة التدين فى الفطرة الانسانية ، فانه من العناد والمكابرة انكار هذه العاطفة الراسخة فى النفس البشرية ، اذ انها أشد عواطف الانسان لصوقا بنفسه وأعظمها تأثيرا فى حياة الأفراد والشعوب (ولقد صحب الدين الانسانية منذ نشأتها ، فهو قرينها وموجهها ، وليست تلك العاطفة وهما أو خيالا ، ولكنها عنصر جوهرى فى فطرة كل انسان)[٢] .

ودور الدين فى تربية الأفراد لا يقل شأنا عنه فى تربيه الجماعات والأمم ، بل واقامة الحضارات ، فليس مرد الحضارة ـ كما سنرى فى الفقره التالية ـ الى التقدم المادى الذى قد يحجب مؤقتا مظاهر الضعف والانحطاط الخلقى ، بل ان أساس الحضارات كلها هو الانسان ، منه يبدأ التقدم والتشييد والاكتشافات العلمية ، فلا يغنى العلوم والثقافات عن التربية والتهذيب الدينى لأن العلم سلاح ذو حدين يصلح للبناء والهدم أيضا ، ولا بد له من رقيب أخلاقى عند استخدامه لكى يوجه الى خير الانسانية ـــ لا لدمارها ونشر الشر والفساد فى ربوع الأرض . وهذا الرقيب هو العقيدة والأيمان [٣] .

وليس أدل على ذلك من الاقوال التى نسوقها لبعض أقطاب العلم والزعماء وقواد الحرب فى العالم الغربى نفسه . يقول روبرت ميللكيان العالم الطبيعى الأمريكى (ان

(١) الايمان والحياة : د. يوسف القرضاوى ص ٢١١ . مكتبة وهبة بالقاهرة .
(٢) مقدمة كتاب مبادئ علم الاجتماع لروجيه باتسنيد : د. قاسم .
(٣) الدين : د. دراز ص ١٠٢ .

أهم أمر فى الحياة هو الايمان بحقيقة المعنويات وقيمة الأخلاق . ولقد كان زوال هذا الايمان سببا للحرب العامة واذا لم نجتهد الآن لاكتسابه أو لتقويته فلن يبقى للعلم قيمة ، بل يصير العلم نكبة على البشرية) . وقد نصح الرئيس الأسبق للولايات المتحدة الأمريكية قومه بضرورة انقاذ حضارتهم بالمعنويات ، اذ لن يستطيعوا المثابرة على البقاء بماديتها (وأنها لا يمكن أن تنجو الا اذا سرى الروح الدينى فى جميع مسامها .. ذلك هو الأمر الذى يجب أن تتنافس فيه معابدنا ، ومنظماتنا السياسية ، وأصحاب رؤس أموالنا ، وكل فرد خائف من الله محب لبلده) واعتبر المارشال مونتجمرى (أحد القواد الكبار فى الحرب العالمية الثانية) أن أهم عوامل الانتصار فى الحرب هو العامل الأخلاقى موقنا بأن الجش اذا سار على غير مرضاة الله سار على غير هدى ، وحث جنوده بالانتصار على أنفسهم قبل العدو . وهو نفس الهدف الذى رمى اليه المارشال بيتان عقب توقيعه الهدنة أثر هزيمة فرنسا فى الحرب العالمية الثانية من النداء الذى وجهه الى أمته قال فيه (اننى أدعوكم أول كل شئ الى نهوض أخلاقى [1] .

ان العقيدة الدينية اذن تجعل للأخلاق فعالية وايجابية مؤثرة ، اذ أن الفكرة المجردة (لا تصبح عاملا فعالا الا اذا تضمنت عنصرا دينيا ، وهذا هو السبب فى أن الأخلاق الدينية أقوى من الأخلاق المدنية الى حد يستحيل معه المقارنه ، ولذلك لا يتحمس الانسان فى الخضوع لقواعد السلوك القائم على المنطق ، الا اذا نظر الى قوانين الحياة على أنها أوامر منزله من الذات الالهية [2] .

وخير دليل يبرهن على هذا الرأى ما يسجله لنا التاريخ الاسلامى من عجائب

---

(١) الدين : د. دراز ص ١٠٣ ـ ١٠٤ .

(٢) تأملات فى سلوك الانسان : د. الكسيس كارل : ص ١٤٠
ترجمة محمود القصاص بمراجعة د. محمود قاسم .

الانقياد والطاعة للأوامر الالهية التى كان المسلمون يصدعون بها حال التبليغ بها ، ومنها ما حدث عند نزول النهى عن الخمر (فعن أبى بريدة عن أبيه قال - بينما نحن قعود على شراب لنا ونحن نشرب الخمر حلا ، اذ قمت حتى آتى رسول الله ﷺ فأسلم عليه اذ نزل تحريم الخمر **﴿ يا أيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والانصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان ﴾** الى قوله **﴿ فهل أنتم منتهون ﴾** فجئت الى أصحابى فقرأتها عليهم الى قوله **﴿ فهل أنتم منتهون ﴾** قال ـــ وبعض القوم شربته فى يده قد شرب بعضها وبقى بعض فى الاناء ، فقال بالاناء تحت شفته العليا كما يفعل الحجام ، ثم صبوا فى باطيتهم فقالوا (انتهينا ربنا) [1] .

كذلك ضرب النساء المسلمات المثل فى التصديق لكتاب الله والايمان بالتنزيل ، اذ لما نزلت فى سورة النور **﴿ وليضربن بخمرهن ﴾** ، انقلب رجال الأنصار الى نسائهن يتلون عليهن ما أنزل الله اليهم منها ، يتلو الرجل على امرأته وابنته وأخته وعلى كل ذى قرابة فما منهم امرأة الا قامت الى مرطها المرحل فاعتجرت به تصديقا وايمانا بما أنزل الله من كتاب ، فأصبحن وراء رسول الله ﷺ كأن على رؤسهن الغربان [2] .

وما أحوجنا اذا أردنا استعادة أمجادنا من جديد الى الانقياد لأوامر شرع الله تعالى

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ١٧٧ ط دار الشعب بالقاهرة .

وأن ذلك من العناد الذى قوبل به قانون تحريم الخمر فى امريكا حتى اضطرت حكومتهاالى الغائه عام ١٩٣٣ بعد أن انفق ٦٠ مليون دولار على النوعية بمضارها ومفاسدها ، وبلغ ما تحملته الدوله فى سبيل تنفيذ القانون فى مده أربعة عشر عاماً ما لا يقل عن ٢٥٠ مليون جنيه ، وقد اعدم فيها ٣٠٠ نفس وسجن نحو خمسمائة الف فرد ، وصودرت أملاك ما يقرب من ٤٠٠ مليون وأربعة ملايين جنيه (تعليقة رقم ١ من كتاب ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين للندوى ص ٨٠) .

(٢) رواه ابو داود .

كما فعلت أجيال المسلمين من قبل ابان ازدهار حضارتنا الاسلامية ، لا سيّما اذا علمنا ـ كما بيّنا توّاً ـ أن الأخلاق هى الركن المكين للحضارات والأمم .

الأخلاق والحضارة

عندئذ تأتى مناسبة طرح الصلة بين الأخلاق والحضارة ، بادئين بتحليل آراء أحد الفلاسفة الذين تخصصوا فى قضية الحضارة وهو ألبرت شفيتزر فيعرّف الحضارة بأنها (بذل الجهود بوصفنا كائنات انسانية من أجل تكميل النوع الانسانى وتحقيق التقدم ... على أن نهب العالم والحياة معنى حقيقيّاً)

ويرى أن طابع الحضارة أخلاقى فى أساسه ، فهناك اذن ارتباط بين الحضارة ونظرتنا الى الكون والى الحياة ، فان المعتقدات ـ لا الانجازات التكنولوجية ـ هى القوة الدافعة للحضارة [١] .

ومرد اهتمامه بالمعنى والغرض يرجع الى أنه بافتقاد النظرة الكونية ، سيبقى الانسان سجين رغباته وآماله الموقوته التى تنقضى بتحقيقها ، ويبقى السؤال بلا إجابة ، أى : ما معنى حياتى وما الهدف منها ؟

إنه يخشى على أبناء حضارته من أثر فقدان المعنى الحقيقى للحياة ، ويرى أن مأساة الانسان المعاصر هى تضاؤل الحرية والقدرة على التفكير وأن بداية كل حياة روحية ذات قيمة هى الايمان الشجاع بالحق والقول به صراحة [٢] مقترحاً تخصيص ثلاث دقائق كل مساء للنظر فى السماء المرصعة بما لا نهاية له من النجوم

---

(١) فلسفة الحضارة ص ٥ ، ٧ ، ١٥ ترجمه د/ عبد الرحمن بدوى سلسلة الألف كتاب مصر ١٩٦٣ . ويحكم على الثوره الفرنسيه حكماً مخالفاً لما ترده المصادر الغربية والناقلين عنها فيقرر انها (كانت عاصفة ثلجية سقطت على أشجار مزهرة ص ٢٢٠

(٢) نفسه ص ٨٣

تمهيداً لإصلاح الأحوال التى نعيش فيها اليوم .

وربما كان اقتراحه هذا بسبب افتقاده لمعرفة ما نصت عليه العديد من الآيات القرآنية للحث على النظر والتدبر فى آيات الله تعالى فى السماء والأرض .

وعلى أية حال فانه عبّر عن فطرته فى حاجة الانسان الماسة الى التفكر فى أوقات متقاربة ـ كما ينبغى للمسلم أن يفعل (لا ثلاث دقائق فحسب كل مساء) ليتحرر من آلية الحياة الاجتماعية ويراجع نفسه ويجدّ نشاطه الذهنى ليظل متيقظاً ومدركا لمعنى الحياة والنشأة والغاية ، وعندئذ يتضح بجلاء ضرورة القيم الخلقية للحياة الانسانية ، فالخير فى حفظ الحياة وترقيتها وتقويتها ، والشّر هو تحطيمها وتضييق آفاقها[١] .

أما تعليل أذمة الحضارة فيقوم على اعتبار التقدم المادى أكبر بكثير جداً من تقدمها الروحى ، بينما لا يتحدد الطابع الجوهرى للحضارة بانجازاتها المادية ، بل باحتفاظ الأفراد بالمثل العليا لكمال الانسان ، وتحسين الأحوال الاجتماعية والسياسية للشعوب وللانسانية فى مجموعها[٢] .

ثم يأتى بمقترحاته الإنقاذ الحضارة المعاصرة وتجديدها وهى :ـ

١ ـ تجديد النظر الى الحياة ، وسعى جديد لإيجاد نظرة كونية[٣] .

٢ ـ هزّ الناس فى هذا العصر ودفعهم الى التفكير الأوّلى فى حقيقة الانسان ومكانته فى العالم ، لأن الكمال الروحى والأخلاقى للفرد هو الغاية القصوى من الحضارة[٤] .

---

(١) نفسه ص ٩٨ ، ٩٩

(٢) نفسه ص ١٠٧ ، ١٠٨

(٣) نفسه ص ١١٥

(٤) نفسه ص ١١٧

ونضيف تحليلاً ثانياً للدكتور مراد هوفمان الذى تجمعت لديه عناصر المنهج العلمى مع البحث والدراسة والمعايشة الواقعية لكلا الحضارتين الغربية والاسلامية :

إنه يرى أن الغرب انصرف منذ بداية القرن التاسع عشر عن الدين المسيحى واستبدله (بأيدولوجية دينية أخرى) تشكلت من فيورباخ وماركس وداروين ونيتشه وفرويد ، منطلقاً بها انطلاقة مادية هائلة أثرت على السواد الأعظم من الكتل البشرية فى القرن العشرين ، فى فقدان السمو فوق المادية وتمكّن المادية المبتذلة لدى الانسان الغير المرتبط بوازع يزعه (والذى يتخذ من عالم أحاسيه المادية مقياساً لكل شئ ، فالمتعة واللذة غاية وجوده ، وتعطشه لا يروى لاهثا خلف تحقيق الجنّة الاستهلاكية على الأرض)[1] .

وقد أصبحت هذه الظاهرة ـ عن طريق العدوى مع التقليد الحرفى ـ أحد أسباب تدهور العالم الاسلامى ، ولكن لم تصل الى حد التطور العقيم غير القويم الذى انتهى إليه العالم الغربى ، معللاً ذلك بأن دروع المقاومة للعالم الاسلامى تمثلت فى الاستمساك بالفضيلة والأخلاق الحميدة بالرغم من مظاهر التدهور .

واستخلص الدكتور مراد هوفمان ـ من دراسته وملاحظاته عن كثب ـ ان الاسلام (الذى زلزلته الكوارث الدامية والأزمات الطامية لم يقض نحبه ولم يُقبر ، بل على العكس انطلق زاخراً بالحياة والنشاط أقوى ما تكون الحياة ؛ حتى لقد بدأ

---

(٢) الاسلام كبديل للدكتور مراد هوفمان (سفير ألمانيا بالرباط) ترجمة د / غريب محمد غريب ص ٢٦ ط مؤسسة بافاريا ومجلة النور الكويتية ١٤٣١هـ ـ ١٩٩٣ م .

والمولف حاصل على درجة الدكتوراه فى القانون من جامعة هارفرد وعمل بالخارجية الألمانية وتولى مناصب فى بعثتها بالجزائر والمغرب وبرن وباريس وبروكسل وفيينا وبلجراد ، وله عدة مؤلفات منها (نهج فلسفى لتناول الاسلام و (دور الفلسفة الاسلامية) و (والاسلام هو البديل) و (يوميات ألمانى مسلم) .

البعض فى الغرب يعتقد أنه لابدّ مرة أخرى ـ أن يحسب للاسلام حساب وأن يخشى بأسه ، أما المجتمعات الصناعية الغربية ، فقد أخذت الأزمات بخناقها [١] .

وتتلخص هذه الأزمات فى تحول الخصال الحميدة والسلوك الحسن المنضبط الى قيم جديدة وأنماط سلوك مستحدثة كالأثرة والسلوك الجمعى الغير المتعقل فى مجموعات (شلل) تؤم المراقص ، والفوضى الخلقية وإباحة الإجهاض وجنون الاستهلاك والعداء الأعمى للتراث أو لكل ما يعدّ تقليدياً والإباحية الجنسية التى لا تعرف محظورا أو محرما والمخدرات بأنواعها ... الخ [٢] .

ويقررفى النهاية ان الاسلام باعتباره دينا ونظام حكم مشروعا معتمدا (لم يفقد قط وظيفته وهيبته ، حتى فى تركيا نفسها ، اللهم إلا إذا استثنينا الفئة المتشبهة بالغرب ـ الغربية الثقافة واليد واللسان والزىّ) [٣] .

ثم يفخر كمسلم اعتنق الاسلام دينا بعد اقتناع وفهم ، انه دين يدعو للفضيلة والأخلاق الحميدة بينما يعرف من خبراته السابقة عن مجتمعات الغرب أنّ الغربى يرى التحلىّ بالفضيلة والالتزام الخلقى ، يراه خطراً يقرّبه مما كان سائدا فى العصر الفيكتورى من التزمت الخلقى المصطنع . ثم يبدى رأيه فى العبارة التالية وكأنه

---

(١) نفسه ص ٢٧

(٢) نفسه باختصار ص ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩

وينظر أيضاً ص ٢١٥ عن تفاصيل مخزية لشواطئ العراة . وتبادل الأزواج والزوجات واللواط والسحاق وافلام الجنس الخ ...

(٣) نفسه ص ٣١

ويخصص تركيا بالذات لأنها أول البلاد التى تعرضت لحملة تغريب عنيفة على يد أتاتورك اليهودى الدونمى الذى قضى على الخلافة العثمانية وأصبح قدوة يتأس بها الثوريون فى الشرق الأسلامى .

يخاطب أحد مواطنية بقوله : (لتقل إذن إن الاسلام فى تمسكه بالفضيلة عتيق ، ولنا أن نعتز بذلك فنؤكد ان الاسلام فخور بهذا)[1] .

* * *

وسنمضى فى بحثنا فى الفصل التالى لعرض مذاهب الاخلاق عند بعض فلاسفة اليونان وبيان أوجه القصور فيها :

---

(١) نفسه ص ٢١٥

الفصل الثانى

الاخلاق عند بعض فلاسفه اليونان

سنبدأ فى هذا الفصل والذى يليه بالإطلال على الجانب الأخلاقى فى الفلسفتين اليونانية والحديثة ونرجو أن نفيد فائدتين :

الأولى :

اثبات عجز الفلاسفة عن اللحاق بآفاق الشريعة الاسلاميه حيث تحقق للانسان اذا ما التزم بها وطبقها أعلى مستوى أخلاقى ممكن على مستوى الفرد والجماعات والأمم ، ومن ثم فلا محيص عن اتباع شريعة الله تعالى دون غيرها .

الثانية :

اختصار الطريق لفهم جوهر الحضارة الغربية المعاصرة والوقوف على عللها وتفسر موقفها منا وما يمليه هذا الموقف من تحديد موقفنا نحن أيضا منها ، فان الأنظمة الغربية فى السياسة والاقتصاد والاجتماع قائمة على أصول فلسفية وأخلاقية .

وما دمنا مستهدفين كأمة ذات حضارة كانت رائدة العالم لعدة قرون لغزو عسكرى واقتصادى وثقافى منظّم متواصل ، فلا سبيل الى صده والعمل على ابطال مفعوله الا بمنهج مضاد فى مجال العلم والمعرفة ليصبح رائدا فى حيز العمل والسلوك والتعامل مع هذه الحضارة .

يقول جارودى (كان الشاغل الاساسى للمستعمر هو أن يقوض ثقة الشعوب المستعمرة فى نفسها ـ لقد سعى جاهدا ليدمر اعتزاز الشعوب بماضيها) [1] .

(١) محاضرات جارودى ص ١٣٩ مجلة الطليعة بالقاهرة سنة ١٩٧٠ م .

ان جارودى بسبب اخلاصه للقيم التى هى ملك الانسانية جمعاء كان دائم الحرص على توجيه النصح الى أهل أوروبا وأمريكا للانفتاح على قيم الشعوب الأخرى والتخلص من الاستعملاء حيث تزعم أوروبا وأمريكا الشمالية بأنها المركز الوحيد فى المبادرة التاريخية وفى خلق القيم .

وذهب جارودى الى أن الانسانية فى عصرنا الحاضر سوف تصاب بطعنات قاتلة اذا ما امتنعنا (أى أهل الغرب) عن البحث والكشف عن القيم التى من صنع تلك الشعوب التى عرقل الاستعمار نموها الأصيل وجردها من تاريخها الخاص [1] .

لذلك فان منهجنا الذى لن نحيد عنه قيد أنمله ـ والذى يمليه علينا الاخلاص لقواعد المنهج العلمى العقلى ـ هذا المنهج يتلخص فى دراسة ما عند الغرب من ألوان الثقافة التى تتناول الفلسفة وعلم النفس والاجتماع والأخلاق [2] اذ انها تشكل التكوين الثقافى للشخصية الغربية ثم موازنتها بتراثنا الاسلامى فى العلوم نفسها تاركين لبنى قومنا ـ من الطلاب والقراء ـ اصدار أحكامهم بأنفسهم حيث لا تعوزهم ملكة الاختيار .

---

(١) نفسه ص ١٥٣ .

(٢) نفذنا ذلك بكتابنا (**مناهج البحث فى العلوم الانسانيه (بين علماء الاسلام وفلاسفه الغرب)** حيث عقدنا مقارنة بين المنهجين الاسلامى والغربى فى علوم النفس والاجتماع والسياسة والاخلاق . ط دار الدعوة بالاسكندرية ١٤١٢ هـ ـ ١٩٩١ م .

سقراط والنظرية الخلقية

كان سقراط خصما عنيدا للسوفسطائيين ، وأخذ على عاتقه الرد على أباطيلهم بكل الوسائل بما فى ذلك مجادلة الناس فى الأسواق وعلى قارعة الطريق ، وعرضته مواقفه للمحاكمة حيث صدر الحكم باعدامه فتقبل هذا الحكم بصدر رحب ولم يحاول أن يبرئ نفسه (١) .

وان الباحث ليقف طويلا أمام العبارة التى أوردها الشهرستانى مسيرا الى نهى قومه عن عبادة الأوثان والشرك ، اذ يصفه بأنه (الحكيم الفاضل الزاهد من أهل أثينية ، وكان قد اقتبس الحكمة من فيثاغورس وأرسالاوس ، واقتصر من أصنافها على « الالهيات » والأخلاقيات واشتغل بالزهد ، ورياضة النفس وتهذيب الأخلاق وأعرض عن ملاذ الدنيا واعتزل الجبل وأقام فى غربه .. ثم يستطرد فى باقى الحديث عنه فيقول انه (نهى الرؤساء الذين كانوا فى زمانه عن الشرك وعبادة الاوثان ، فثوروا عليه الغاغة وألجأوا ملكهم الى قتله ، فحبسه الملك ، ثم سقاه السم وقضيته معروفة) (٢) .

وقد يظن القارى لأول وهلة أن الشهر ستانى يضعه فى اطار دينى حيث يدعو الى التوحيد ، ولكن النصوص التى وردت فى محاورات (فيدون) تؤيد هذه الرواية مما يدعم تحرى الشهرستانى للوقائع وأمانته ودقته فى القول ، وان اتفاق نصوص المحاورات التى نشرت حديثا تتفق مع عبارته الآنفة الذكر .

ومن واقع رواية (السحب) لأرسطو فان الخصم العنيد لسقراط أورد ضمن اتهاماته اياه . اتهامه (بالكفر بآلهة المدينة) (٣) وورد فى عريضة المحكمة (أنه ينكر

---

(١) تاريخ الفكر الفلسفى : د. ابو ريان ص ١١٠

(٢) الملل والنحل تحقيق بدران القسم الثانى : الشهرستانى ص ٨٩

(٣) تاريخ الفلسفة اليونانية : يوسف كرم ص ٥٤

آلهة المدينة ، ويقول بغيرهم ، ويفسد الشباب) [١] .

فماذا كان يقول سقراط أمام المحكمة ؟

إنه يقول إن إرادة الهية أوحت اليه أن يعظ مواطنيه ويحثهم على الصلاح بتعاليمه ، ونصائحه ، راغبا هدايتهم غير راغب فى عرض من أعراض الدنيا ، وانه يتقبل الحكم عليه فى كلا الحالتين بصدر رحب ، واذا صدر الحكم بموته فانه لا يخشى الموت ولا يعتبره شرا (بل يرى فيه الخير كل الخير سواء افترضناه سباتا أبديا أم بعثا لحياة جديدة [٢] .

وكان سقراط أثناء حياته يأبى تصديق ما يروى من شهوات الآلهة وخصوماتها لأن هذا يتضمن انهيار الدين من أساسه ، بينما يرى من مهام الدين (تكريم الضمير النقى للعدالة الالهية ، لا تقديم القرابين وتلاوة الصلوات مع تلطخ النفس بالاثم)[٣] وقد أرجع مصدر آرائه وتعاليمه الذى يبثها بين الشباب الى ذلك الصوت الذى كان يسمعه فى نفسه ينهاه عن اتيان الفعل الضار به (وكان يسميه بالروح الالهى ولا ينسبه لإله معين) [٤] .

أن المحنة السقراطية تكشف لنا عن احتمال قيام سقراط بمحاولة بعث لبقايا عقيدة دينية تأثر بها وأخذ عنها .

ومع هذا ، فانه من الصعب القطع برأى فى هذه المسألة لا سيما وأنه احيانا يتحدث عن آلهة واحيانا عن الاله ، ولكن دراسة الظروف والملابسات التى مر بها فى حياته تجعلنا نتساءل أيضا (هل كان يؤمن بوجود الله وخلود النفس ؟) [٥] .

---

(١) نفسة ص ٥٤ (٢) نفسة ص ٥٦ .

(٣) تاريخ الفلسفة اليونانية : يوسف كرم ص ٥٤ (٤) نفسة ص ٥٥

(٥) دراسات فى الفلسفة الاسلامية : د. محمود قاسم ص ١٧ دار المعارف .

لقد سبقنا أستاذنا الدكتور قاسم ـ يرحمه الله ـ بهذا التساؤل لكى يتخذ من الاجابة عليه دليلا على ان سقراط اتجه اتجاها روحيا خلقيا ودينيا بحيث يعد بمثابة رد فعل لمادية معاصريه ، كما يتخذ من التجربة السقراطية برهانا على زيف دعوى دوركايم الذى يرى فى العبقرية نتاجا للمجتمع ، اذ يثبت لنا سقراط بآرائه وسلوكه أن عبقريته لم تكن من صنع المجتمع (لكن عبقريته ، واستعداده النفسى الخاص ، دفعاه الى أن يفكر تفكيرا مخالفا لمعاصريه) [1] .

نظريته الخلقية :

كان لسقراط ارهاصات فى التفكير الخلقى تتمثل (فى العبارات البسيطة المتناثرة فى شعر الحكمة إبان القرن السابع والسادس قبل الميلاد) [2] ، وقد خلف لنا بعض الفلاسفة فى هذه الفترات شذرات من هذا القبيل لأن جل اهتمامهم كان متجهاً نحو موضوعات البحث الطبيعى والميتافيزيقى ، من هؤلاء فيثاغورث (٥٠٠ ق . م) وهيرقليطس (٤٧٠ ق . م) ، الا أن سقراط كان (أول من اهتم اهتماما ملحوظاً بدراسة السلوك الانسانى) [3] .

انه تصدى لمغالطات السوفسطائية التى تستهدف زعزعة المبادئ الأخلاقية والاجتماعية ، مما دعا سقراط الى الاهتمام فى فلسفته بالانسان وسلوكه بعد أن كان هذا البحث يشغل مكانا ثانويا فى البحث الفلسفى السابق عليه ، اذ انه لم يحفل بالنظريات العلمية ـ أى بالطبيعيات والرياضيات فى عصره حيث آثر النظر فى الانسان فانحصرت الفلسفة عنه فى محيط الأخلاق لأنها أهم ما يتصل بالانسان ويهمه (وهذا معنى قول شيشرون ان سقراط أنزل الفلسفة من السماء الى الأرض

---

(١) نفسه ص ١٣ .

(٢) الفلسفة الخلقية ، نشأتها وتطورها : د. توفيق الطويل ص ٢١ . دار النهضة العربية سنة ١٩٦٧

(٣) نفسه ص ٢١

، أو أنه حول النظر من الفلك والعناصر الى النفس ، وتدور الأخلاق على ماهية الانسان) [١] .

ولأهمية الدور الذى قام به سقراط فى ميدان الأخلاق ، ينبغى أن نعرض أولا بايجاز لموقف السوفسطائيين منها :

كان السوفسطائيون يدعون أن الطبيعة الانسانية شهوة وهوى ، وقد وضع المشرعون القوانين بغية قهر هذه الطبيعة ، فهى تتغير بتغير الظروف والعرف ، انها اذن نسبية (ومن حق الرجل القوى بالعصبية أو بالمال أو بالبأس أو بالدهاء أو بالجدل أن يستخف بها أو ينسخها ويجرى مع هوى الطبيعة) [٢] .

وقد أقام السوفسطائيون المعرفة أيضاً على الاحساس ، وذهب زعيمهم بروتاجوراس الى القول بأن الفرد هو مقياس الاشياء جميعا ، وبذا تتعدد الحقائق بتعدد مدركيها وامتنع وجود حق أو باطل فى ذاته [٣] .

ولئن كانت هذه النظرية فى المعرفة ، الا أنهم مدوا أثرها الى مجال الأخلاق وأصبحت القيم والمبادئ الخلقية ـ تبعاً لذلك ـ نسبية تتغير كما قلنا بتغير الزمان والمكان . لقد اطاحوا (بالحقائق الثابتة فى مجال المعرفة وأبطلوا القول بالمبادئ المطلقة فى مجال الأخلاق) [٤] .

ورأى سقراط لزاما عليه أن يهدم نظريتهم فى المعرفة أولا ، لأنها أساس البناء الأخلاقى لهم ، فأقام الحقائق الثابته على العقل فى ميدان المعرفة بعد فصله بين موضوع العقل وموضوع الحس ، وأصبح يرى أن الانسان له عقل وجسم ، فان قوة عقله هى التى تسيطر على دوافع الحس ونزواته ، مثبتا أنه (اذا كانت قوانين

---

(١) تاريخ الفلسفة اليونانية : يوسف كرم ص ٥٣ دار المعارف .

(٢) نفسة ص ٥٣ .

(٣) الفلسفة الخلقية : توفيق الطويل ص ٢٣

(٤) نفسه ص ٤٤ .

الأخلاق تتعارض مع الجانب الحيوانى فى طبيعتنا ، فإنها تتمشى مع طبيعتنا الانسانية العاقلة) [1] ، والقوانين العادلة تصدر عن العقل ، ويعدها صورة مطابقة للقوانين الغير المكتوبة التى رسمها الآلهة فى قلوب البشر ، فالذى يحترم هذه القوانين فإنه يحترم العقل والنظام الالهى أيضاً ، وحتى اذا احتال البعض لمخالفتها تفاديا للعقاب الذى قد يتعرض له فى الدنيا ، الا أنه سيؤخذ بالقصاص لا محالة فى الحياة المقبلة .

وأطلق سقراط عبارته المشهورة (الفضيلة علم والرذيلة جهل) ، لأنه يرى أن الانسان يريد الخير دائما ويهرب من الشر بالضرورة ، (فمن تبين ماهيته وعرف خيره بما هو انسان أراده حتما ، أما الشهوانى فرجل جهل نفسه وخيره ، ولا يعقل أنه يرتكب الشر عمدا) [2] .

وقد أشار سقراط الى خلود الروح ، وأن هذا الخلود هو الثمن المقابل لحياة النفس الفاضلة فى هذه الدنيا (وأن هذه النفس حينما تغادر الجسد سرعان ما تغمرها السعادة الدائمة لأنها ستحيا الى جوار الآلهة فى العالم العقلى) [3] .

وأثار سقراط مشكلات كثيرة فى المحيط الأخلاقى مازالت تشغل بال أهل الفكر حتى العصر الحاضر ، فقد أراد بناء الأخلاق على العقل ، وأسسها على قواعد ثابتة ، وألغى رد الأخلاقية الى سلطة خارجية .

ويظهر أثر النظرية السقراطية العكسى فى دوائر متأخرة علماء اللاهوت فى الغرب حيث يرون أن الله سبحانه وحده هو الذى يحدد الخير ويميز بينه وبين الشر ، كما اتضح أثرها المؤيد عند أصحاب المذاهب الوضعية من العقليين والحدسيين بعد تعديله . وما زال ناشبا بينهم وبين أصحاب المذاهب الذاتية من الأخلاقيين الذين اعتنقوا

---

(١) تاريخ الفلسفة اليونانية : يوسف كرم ص ٥٣ .

(٢) تاريخ الفكر الفلسفى : د. ابو ريان ص ١٢٥ ط الدار القومية سنة ١٩٦٥ .

(٣) الفلسفة الخلقية : د. توفيق الطويل ص ٣٢ .

مذهب السوفسطائيين معدلا [1] .

ومهما يكن من أمر ، فقد اتجه سقراط اتجاها روحيا خلقيا ودينيا ، اذ أعلن لقضاته ولشعب أثينا أنه يضع طاعة الاله فوق طاعتهم وفوق محبته لهم ، وانه لن يكف عن ارشادهم الى الفضيلة ـ أى السعادة وكان موقفه هذا رد فعل ضد الاتجاه المادى الغالب على معاصريه ، ولهذا فان اتجاهه الفلسفى الانسانى ـ كما يرى استاذنا الدكتور قاسم ـ (يعطينا ردا حاسما على نظريه بعض المحدثين الذين يفسرون العبقرية بأنها من صنع المجتمع .. ومنهم دوركايم) [2] .

نظرية أفلاطون فى الأخلاق :

تابع أفلاطون استاذه سقراط ابستمولوجيا وأخلاقيا ، ففى المعرفة فصل بين المعرفة الظنية بالمحسوسات والماهيات المفارقة للمادة (المثل) ، ومن هنا عد الخير أسمى المثل وهو عنده مصدر الوجود والكمال ، مخالفا بذلك سقراط اذ انه تجاوز الماهيات المتحققة فى الموجودات المحسوسة الى ما سماه بالمثل [3] .

ولإفلاطون دور كبير فى ابطال الاتجاه السوفسطائى الذى أقام الأخلاقية على الوجدان ، اذ استهدف افلاطون جعل القانون الأخلاقى عاما للناس فى كل عصر ومصر (ولا يتيسر هذا الا باقامته على أسمى جانب مشترك فى طبائع البشر ونعنى به العقل) [4] ، وزاد خطوة عن موقف استاذه تجاه السوفسطائية ، فرأى أن الفعل الخلقى يتضمن جزاءه فى باطنه ، وأن الانسان الفاضل يؤدى الفعل الخير لذاته باعتباره غاية فى نفسه ، وأبطل بذلك المذهب السوفسطائى الذى وضع غاية

(١) دراسات فى الفلسفة الاسلامية : د. محمود قاسم ص ١٢
وينظر ص ١٧ ، ١٩ دار المعارف ١٩٧٢

(٢) الفلسفة الخلقية : د. توفيق الطويل ص ٤٤

(٣) نفسه ص ٤٥

(٤) نفسه ص ٤٥

الأخلاقية خارجها ، ورهن الخيرية باللذة التى تنجم عنها [١] .

واعتبر افلاطون كأستاذه سقراط أن النفس أسمى من الجسد ، فهى الحاصلة على الوجود الحقيقى وما وجود الجسد الا وجودا ثانويا وغير مؤكد (وهو الذى يحمل قواها الروحية النبيلة ويوجهها وجهة غير أخلاقية لأنه مصدر الشرور والآثام ، ولهذا فان النفس تشقى بهذا الوجود الأرضى ، وتعود فتحاول الانطلاق من محبسها لتصعد الى العالم المعقول) [٢] .

وكان خصماً لدوداً للسوفسطائيين القائلين باللذة وان علامة العدالة هو سيادة الاقوى واذعان الاضعف له ، وان الجميع يبتغون السعادة فلا ضرورة للخضوع لأى قانون ، لانه يكفى ان يتعهد الانسان فى نفسه اقوى الشهوات حتى تتحقق العدالة والفضيلة والسعادة ، اذ على الشخص ان يستخدم ذكائه وشجاعته لارضاء شهواته مهما بلغت من قوة .

ويتلخص رد افلاطون فى ان انماء الشهوات هو فى الحقيقة تعهد آلام فى النفس لا تهدأ فتصبح حياة الشهوة موتا متكررا ، مثال ذلك (الأجرب الذى لا يفتأ يحس حاجته لحك جلده فيحك بقوة فتزيد حاجته ويقضى حاجته فى هذا العذاب) [٣] ، بينما الحكيم هو الذى يتقيد بحياة الاعتدال . ولما كان اهتمام افلاطون بالفرد ككائن اجتماعى أيضاً يعيش فى ظل نظام سياسى معين ، فان الاخلاق ارتبطت عنده بالسياسة [٤] ، ولذا فان الحكيم فى السياسة بوجه خاص يجب عليه الاعتدال وضبط شهواته قبل حكمه على الآخرين والا فسدت حاله وحالهم [٥] .

وردا على حياة اللذة التى تصورها اتباع المذهب السوفسطائى ، فإن افلاطون يرى

(١) تاريخ الفكر الفلسفى : د. ابو ريان ص ٢٤٤ (٢) تاريخ الفلسفة : يوسف كرم ص ٩٣

(٣) تاريخ الفكر الفلسفى : د. أبو ريان ص ٢٤٣ . (٤) تاريخ : يوسف كرم ص ٩٤

(٥) نفسه ص ٩٤ ،

على العكس ان خفة الانفعال وضعف اللذة والألم هى سمة الحياة الفاضلة ، وهى ألذ حياة ، بينما حياة الرذيلة هى التى تتسم بالألم الذى يغلب ويدوم [١] .

والفضائل عنده أربعة : ثلاث منها تدبر قوى النفس وهى :

١ ـ الحكمة فضيلة العقل تكمله بالحق ، وهى أولى الفضائل ومبدؤها .

٢ ـ العفة فضيلة القوة الشهوانية تلطف الأهواء .

٣ ـ الشجاعة وهى فضيلة القوة الغضبيه [٢] .

وقد رمز افلاطون بقوى النفس الثلاث ـ أى الغضبية والشهوانية والعقلية ـ بالعربة ذات الجوادين فهما بمثابة القوتين الغضبية والشهوانية (اما الحوذى الذى يشد أعنة الجوادين فهو يرمز الى القوة الناطقة) [٣] .

وذا ما تحققت الفضائل الثلاث للنفس ، تحقق فيها التناسب والنظام ، (ويسمى افلاطون حالة التناسب هذه العدالة) [٤] ، وهى الفضيلة الرابعة .

واذا كان العدل على المستوى الفردى عند افلاطون هو التوازن الصحيح بين القوى الثلاث ، فانه يصبح على المستوى الاجتماعى أداء الوظيفة المناسبة فى المجتمع [٥] .

والعدل والحكمة ـ فى رأى الدكتور سد جويك ـ هما الفضيلتان الرئيسيتان عن افلاطون ، وهما ـ متى بلغتا اسمى صورهما ـ تضمنت احداهما الاخرى

(١) نفسه ص ٩٥ . (٢) نفسه ص ٩٦ .

(٣) تاريخ الفكر الفلسفى فى الاسلام : د. ابو ريان جـ ٢ ص ٤١

(٤) الفلسفة العامة والاخلاق : د. كمال جعفر ص ١٨٢ ـ ١٨٣ .

(٥) المجمل فى تاريخ علم الاخلاق : سد جويك ص ١٢٣

بالتبادل (فالنفس الحكيمة هي بالضرورة تلك التى تعمل فيها كل القوى باتساق وانسجام ، ولا يكون عملها هذا كاملا ما لم تكن القوة الناطقة المهيمنة حكيمة حقاً) [١] .

واذ ما تحقق التوازن ـ أى العدالة ـ بين قوى النفس وفضائلها تحقق للنفس سعادتها ، وهى حالة باطنية عقلية أخلاقية ، يظهر فيها جمال النفس وصحتها (وسيطرة الجزء الالهى فيها على الشهوات ورغبات الجسد ، وهذا هو الوضع الذى ينبغى ان يكون عليه الانسان) [٢] .

انه يؤكد ان الفضيلة ـ أى الحكمة ـ يكمن فيها خير الانسان وسعادته . لبيان كذب دعوى السوفسطائيين الذين ينادون بطلب اللذة استجابة لنداء الطبيعة ، فان دليل كذبهم ان الطبيعة لا تدعو الى ان يعمل الانسان على دمار نفسه ، ولهذا فهو لا يكتفى بتقويض دعائم آرائهم ، بل يذهب الى ضرورة فرض انواع من العقوبات على المنحرفين الى الرذيلة ، فليس اشنع من ارتكاب المرء جريمة ثم الافلات بلا عقاب يصلحه ويقومّه . ويظهر تأثر افلاطون بالمذهب الفيثاغورى فى تصوره الجسم بأنه مصدر شقاء النفس وأصل جميع الشرور ، فهى سجن النفس ومانعته من الانطلاق الى العالم الاعلى ، ولا خلاص لها الا بالتطهر والمجاهدة ، وهكذا تنتهى الاخلاق عنده الى نوع من الزهد والنسك [٣] .

---

(١) تاريخ الفكر الفلسفى : د. ابو ريان ص ٢٤٥ (٢) نفسه ص ٢٤٥ ـ ٢٤٨

(٣) مدخل الى دراسة الفلسفة : كولبه ص ٩٢

٣ ـ الأخلاق عند أرسطو :

اذا كان افلاطون قد وضع الشروط التى ينبغى توافرها فى المقاييس الخلقية ، فان أرسطو هو واضع المذهب الاخلاقى المستند الى فكرة السعادة (١) .

يقول أرسطو فى مقدمة كتابه (الاخلاق النيقوماخية) « ان كل فن وكل فحص ، وكذلك كل فعل واستقصاء انما يقصد به ان يستهدف خيرا ما ، ولهذا السبب فقد قيل بحق ان الخير هو ما يهدف اليه الجميع » . ويفصل الغايات من الافعال واختلافها ، فيتساءل (فما هو اذن الخير فى كل واحد منها ؟) أليس هو الشئ الذى من أجله يصنع كل الباقى ؟) ، ويعدد الامثلة التى يشرح بها رأيه فيقول (فى الطب مثلا هو الصحة ، وفى فن الحركات العسكرية هو الظفر ، وهو البيت فى فن العمارة ، وهو غرض آخر فى فن آخر . لكن فى كل فعل ، وفى كل تصميم أدبى ، الخير هو الغاية نفسها التى تبتغى) (٢) .

واذا كانت الغائية ظاهرة فى الطبيعة ، فهى فى الانسان أظهر والاخلاق باعتباره علم عملى ـ والعمل يتجه بالضرورة الى تحقيق غاية ـ ومن ثم أصبح من الطبيعى ان يبدأ بحثه فى تحديد غاية الحياة ، لان الغايات متعددة ومترتبة فيما بينها ، لكن لا بد من التوقف عند حد لتسلسلها وهى الغاية القصوى التى تحتفظ بقيمة ذاتية وهى غاية الافعال جميعا (هذه الغاية هى من غير شك الخير الاعظم وان معرفتها لتهمنا الى اكبر حد ، لأن على معرفة الخير يتوقف توجيه الحياة) (٣) .

ويحدد ارسطو تعريفه للسعادة كغاية قصوى بقوله (على هذا فالسعادة هى اذن على التحقيق شئ نهائى كامل مكتف بنفسه ، مادام انه غاية جميع الاعمال

---

(١) علم الاخلاق الى نيقوماخوس (الترجمه العربيه) : ارسطو ص ١٨٩

(٢)تاريخ الفلسفة اليونانية : يوسف كرم ص ١٨٦ (٣) كتاب الاخلاق : أرسطو ص ١٩٢

الممكنة للانسان) [١] .

ويختلف الناس فى فهم السعادة حيث يقسمهم ارسطو الى مراتب ثلاثة من حيث السلوك الاخلاقى . فالطبائع العامية الغليظة ترى السعادة فى اللذة ، اذ يختار اكثر الناس بمحض ذوقهم عيشة البهائم . وضد هؤلاء اصحاب العقول الممتازة النشيطة وغايتهم تحقيق السعادة فى المجد ـ أو الكرامة السياسية ـ تبقى المرتبة الثالثة من مراتب السلوك الاخلاقية وهى مرتبة حياة الحكمة والتأمل أو العيشة التأملية والعقلية وهى السعادة الحقة عند ارسطو [٢] .

وقد اتخذ ارسطو منذ البداية نفس موقف سقراط وأفلاطون فى محاربة اللذة واعتبر السعادة غاية قصوى لافعال الانسان ، وها نحن نلاحظ فى تقسيمة للسلوك الاخلاقى ان الاقتصار على اللذة تجعل الانسان فى مرتبة البهائم ، ذلك ان الانسان يتميز عن سائر الكائنات بالعقل ـ وكمال وجوده مرهون بتأديته لهذه الوظيفة ، لانه يشارك النبات فى النمو والحيوان فى الحس ، ولكنه ينفرد دونهما بالتأمل العقلى (ومن ثم كانت مزاولة التأمل أكمل حالات الوجود الانسانى) [٣] .

صلة السعادة بالفضيلة :

وترتبط الفضيلة بالسعادة فى مذهب أرسطو ، فيقول (ما دام ان السعادة على حسب تعريفنا هى فاعلية ما للنفس مسيرة بالفضيلة الكاملة ، يجب علينا ان ندرس الفضيلة ، وسيكون هذا وسيلة عاجلة لتجديد فهم السعادة ذاتها أيضاً) [٤] .

والفضيلة تكون حيث تؤدى قوى الانسان وظيفتها . ولما كان االانسان يجمع بين

---

(١) كتاب الاخلاق : ارسطو ص ١٧٨ ـ ١٧٩

(٢) الفلسفة الخلقية : د. توفيق الطويل ص ٥٥ (٣) كتاب الاخلاق : ارسطو ص ٢١٩

(٤) الفلسفة الخلقية : د. الطويل ص ٥٦

الشهوة والعقل ، فان الفضائل صنفان ، احدهما يتمثل فى التغذى والحس ، والثانى يتمثل فى حياة التأمل العقلى ، ومن ثم تصبح فضيلة الصنف الاول فى السيطرة على الشهوات والاهواء بواسطة العقل ، وفضيلة الصنف الثانى فى حياة التأمل وهى اسمى من الاول بكثير ، والسعادة بصفة عامة تجمع بين هذين الصنفين [1] .

ومن نظرته الى هذه الثنائية فى الانسان ، أى الشهوة والعقل ، فان الفضائل نوعان أحدهما عقلى والآخر أخلاقى (فالفضيلة العقلية تكاد تنتج دائما من تعليم ، واليه يسند أصلها ونموها ، ومن هنا يجئ أن بها حاجة الى التجربة والزمان . وأما الفضيلة الاخلاقية فانها تتولد على الاخص من العادة والشيم ، ومن كلمة الشيم عينها بتغيير خفيف أتخذ الادب أسمه المسمى به)[2] .

فليست الفضيلة طبيعية اذن ، ولكن الطبيعى فينا قوى واستعدادات (فالفضائل ليست فينا بفعل الطبع وحده ، وليست فينا كذلك ضد ارادة الطبع ، ولكن الطبع قد جعلنا قابلين لها ، وان العادة لتنميها وتتمها فينا [3] ، ومن هذه العبارة ندرك أهمية التربية عند أرسطو ، فالفضيلة تتعلم كما يتعلم أى فن (بإتيان افعال مطابقة لكمال ذلك الفن . وتفقد باتيان أفعال مضادة . والافعال المطابقة تخلق ملكات أو قوى فعلية تجعلنا أقدر على اتيانها) [4] . معنى ذلك بلغة أرسطو اننا لا نكتسب الفضائل الا بعد ممارستنا لها ، شأنها فى ذلك شأن الفنون جميعها التى لا نتعلمها الا بممارستها فالانسان يصبح معماريا بأن يبنى ، وموسيقياً بممارسة الموسيقى ، ويصبح عادلا باقامة العدل ، وحكيماً بمزاولة الحكمة ، وشجاعا باستعمال الشجاعة [4] .

---

(١) كتاب الاخلاق : ارسطو ص ٢٢٥
(٢) الاخلاق : ارسطو ص ٢٢٦
(٣) تاريخ الفلسفة اليونانية : يوسف كرم ص ١٨٨
(٤) الاخلاق : أرسطو ص ٢٢٧
(٥) نفسه ص ٣٣١

واذا تساءلنا عن كيفية تحديد الفضائل الخلقية عند أرسطو ؟ لعثرنا على اجابته عندما يتحدث عن أفعال الانسان وضرورة الاخذ بفكرة الوسط ، فكما ان كثرة الاطعمة تفسد الصحة فكذلك قلتها عن الحد اللازم ، فالأمر كذلك بالنسبة للفضائل الانسانية كالعفة والشجاعة وغيرهما (ان الانسان الذى يخشى كل شئ ويفر من كل شئ ولا يستطيع ان يحتمل شيئاً هو جبان ، وهذا الذى لا يخشى البتة شيئاً ويقتحم جميع الاخطار هو متهور . كذلك الذى يتمتع بجميع اللذات ولا يحرم نفسه واحد منها هو فاجر . وهذا الذى يتقيها جميعاً بلا استثناء كالمتوحشين سكان الحقول هو بنوع ما كائن عديم الحساسية ، ذلك بأن العفة والشجاعة تنعدمان على السواء اما بالافراط واما بالتفريط ، ولا تبقيان الا بالتوسط [1] .

الفضيلة اذن هى وسط بين طرفين كلاهما رذيلة ، ولكن هذا الوسط الذى يعنيه ارسطو هو وسط اعتبارى ، يتغير بتغير الافراد والظروف التى تحيط بهم ، والعقل وحده هو الذى يعين هذا الوسط . ولكن الفضيلة ليست غاية لسلوك الانسان ، وانما هى وسيلة لغاية هى السعادة ، ولذا فان الفضائل ارادية [2] ، فهو يقول (حينئذ الفضيلة بلا أدنى شك تتعلق بنا ، وكذلك الرذيلة تتعلق بنا أيضاً .. واذا كان اتيان الفعل الصالح يتعلق بنا فانه يتعلق بنا أيضاً ترك الفعل المخجل) [3] ويقتضى ذلك ان يحقق الفاعل فى نفسه شرطين بالاضافة الى العلم هما : استقامة النية والمثابرة ، ومن ثم يصبح الفعل صادراً عن ملكة ثابتة (ومن يتوهم ان المثابرة غير لازمة للحصول على الكمال مثلة مثل المريض الذى يريد الشفاء ولا يستعمل وسائله) .

هذا بايجاز بعض معالم المذهب الارسطوطاليسى فى الاخلاق ، الذى لم يسلم

---

(١) الفلسفة الخلقية : د. توفيق الطويل ص ٥٨ ـ ٥٩ (٢) الاخلاق : ارسطو ص ٢٨٩

(٣) يوسف كريم : ص ١٨٩

من بعض المآخذ التى وجهت اليه ـ لا سيما فى فكرة الوسط ـ فان هذا الضابط لا يصلح لكل الفضائل ، فان الصدق مثلاً هو مطابقة الخبر للواقع ، ويظهر تكلف أرسطو حين يقول (ان الصدق وسط بين التبجح وبين التواضع الكاذب) (١) .

ولعل أهم مأخذ فى نظريته الاخلاقية ، يمكن ان يستند الى مذهبه الغائى نفسه . فاننا نعلم انه يثبت الغائية فى الطبيعة ، فالطبيعة عنده تعنى أمرين هما : المادة والصورة ، فالصورة هى الغاية التى من أجلها يتم انجاز الشئ فاذا لم تتحقق الغاية من أى موجود طبيعى كما يحدث بالنسبة للمسخ (فاننا نقول انه قد حدث فشل فى المجهود الغائى) (٢) ، هذا ما لاحظة فى صور الحياة المختلفة من ادناها الى اعلاها ، اذ ان جذور النبات التى يمدها الى باطن الارض تمده بالورق والاوراق تمد الثمار بظل يحميها ، والطائر يبنى عشه ، والعنكبوت ينسج بيته .. وهكذا فإن كمال الوجود مرهون بمدى تأديته لوظيفته (٣) .

فما بال الانسان ؟

انه يرى ان الغاية فى حياة الانسان أظهر منها فى الطبيعة (٤) ولكنه لا يلتزم بسياق هذا المبدأ فى فكرته عن السعادة ، فالانسان عنده يزاول النظر بواسطة العقل ، ولكنه لا يزاوله الا اوقاتاً قصاراً ، ومن ثم فان سعادته به ناقصة لان السعادة لن تتحقق كاملة الا اذا ملأ حياته بالنظر . معنى ذلك طبقاً لمذهب الغائية ان الانسان فاتته غايته بينما سائر الموجودات تحقق غايتها . وهنا يصح ان نشارك فى التساؤل (أفليست تقتضى الغائية ان تتحقق سعادة الانسان فى حياة أخرى ؟) (٥) .

---

(١) الفلسفة العامة والاخلاق : د. كمال جعفر ص ١٩٣ ـ ١٩٤

(٢ ، ٣) تاريخ الفكر السياسى : د. ابو ريان جـ ٢ (ارسطو) ص ٧٦ الدار القومية ١٩٦٦ .

(٤) تاريخ الفلسفة اليونانية : يوسف كرم ص ١٨٥

(٥) نفسه ص ٢٠٠

سنجد الاجابة على هذا السؤال عند دراستنا لافكار شيوخ المسلمين ، ذلك ان الذين تمتلكهم مشاعر سامية وحب الهى لا يجدون فى تعاليم ارسطو الاخلاقية زادا [1] ، وهذا ما تحقق منه شيخ الاسلام ابن تيمية الذى عارض النتاج العقلى للفلسفة اليونانية بكل ما أوتى من ثقافة اسلامية عميقة ، ودراسة شاملة لكافة جوانب الفكر الاغريقى ، مع احاطة واعية بمعانى الكتاب والسنة ، انه يقرر ان الله سبحانه أمر بالتفكر والتدبر والنظر ـ أى استخدام العقل كوسيلة للمعرفة والاستدلال . انه لم يعارض الفلسفة فى ذاتها كلون من الوان التفكير أو النظر العقلى ، ولكنه وقف بصلابة معارضا لكافة التصورات الفلسلفية الاغريقية التى تسربت لفلاسفة المسلمين لانها لا تتفق مع الحقائق التى يمدنا به الكتاب وتوضحها لنا السنة فى أحسن بيان وأكمله .

وفى موضوع الاخلاق ، اتخذ نفس الموقف العدائى من الفكر اليونانى ، فنراه مثلا يوجه سهام نقده الى رأى فلاسفتهم فى النفس فهى عندهم تشتمل على شهوة أو غضب من حيث القوة العملية ، ولها نظر من حيث القوة العلمية ، ورأوا فى الوسط هو الكمال دون أن يعرفوا محبة الله وتوحيده ـ وهو هنا يعنى أرسطو بصفة خاصة . بعبارة أخرى كانت نظرياتهم لا تتصل بالتوحيد والايمان بالله الذى بنى المسلمون عليه العقيدة والأخلاق ، فان محبة الله وتوحيدة هو الغاية التى تؤدى الى صلاح النفس حيث تتحقق الصلاحية بعبادة الله تعالى وحده [2] ، كما لا تتم زكاة النفس الا بالتوحيد واخلاص العبودية لله عز وجل وحده ، وهذا معنى قولة تعالى ﴿ **ويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة** ﴾ ، فابن تيمية لا يفسر معنى

---

(١) الفلسفة العامة : د. كمال جعفر ص ١٩٩ ـ ٢٠٠ .

(٢) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح : ابن تيمية جـ ٤ ص ١٠٥ ط الكردى ١٣٢٣ هـ ١٩٠٥م .

الزكاة هنا بزكاة الاموال وهى النصاب المحدد الذى يجب اخراجه عن الاموال التى مضى عليها الحول[1] ـ ولكنه يفسر الزكاة بزكاة النفوس ، فان ما تزكو به النفوس هو التوحيد ولوازم الايمان ، وعلى العكس ، من لم يخلص لله ويزكى نفسه لا يصبح من أهل النجاة والسعادة[2] .

ولعل أقوى الحجج التى استند اليها شيخ الاسلام فى الطعن فى نظريات الفلاسفة الأخلاقية ، هى انها اختيارية وليست ملزمة من جانب[3] ، كما أنهم من جانب آخر ذكروا الفضائل الاربعة للنفس ـ وهى العفة والحكمة والشجاعة والعدالة ـ دون تحديد دقيق لما تحتاج اليه النفس لتحقيق النجاة والسعادة ، مكتفين بالنصح بالالتزام بالتوسط بين الافراط والتفريط .

أما الأنبياء فقد فعلوا ذلك ، أى حددوا مقدار ما تحصل به النجاة والسعادة .

الفلسفة الرواقية ومعالمها :

ظهرت الفلسفة الرواقية ـ نسبة الى المدرسة التى أنشأها زينون (٣٣٦ ـ ٢٦٤ ق . م) بمدينة أثينا أوائل القرن الثالث قبل الميلاد ، وهى الى جانب كونها مذهبا فلسفياً ـ فهى كذلك (وقبل كل شئ أخلاق ودين)[4] .

كان ظهور الرواقية ايذانا بتغليب الفكر الشرقى أو حملة هذا الفكر الى اليونان اذ أن أغلب أنصار الرواقية من الشرقيين[5] .

ويعنى الرواقيون بالعناية الالهية ، وتعريفهم لها بأنها « الضرورة العاقلة التى تتناول الكليات والجزئيات » ، مع تبرئتها من الشر . أما الشر الذى نراه فى العالم فهو

---

(١) نفسه جـ ٣ ص ١٠٥ .
(٢) نفسه جـ ٤ ص ١٠٦ .
(٣) نفسه جـ ٤ ص ١٠٥ .
(٤) الرواقية : د. عثمان أمين ص ٦ .
(٥) نفسه ص ٦ .

ضرورى له كضد الخير . ان الله يريد الخير طبعا ، وقد يقتضى تحقيقه وسائل ليست خيراً من كافة الوجوه (أما الشر الخلقى أو الخطيئة فيعزونها الى حرية الانسان) [1] .

ومن المفكرين من يعد أثر الرواقية من خطورة الشأن بحيث أمتد أثرها حتى العصور الحديثة . يقول روديه (ان الانسانية المفكرة انما عاشت على المذهب الرواقى حتى أدركت المسيحية ولبثت تتغذى منه بعدها حقبة من الزمان) [2] ، بل ان لها سحراً ما ما زال يجذب عقول المستنيرين فى زمننا هذا [3] .

ولئن كانت مبادؤها تختلف اختلافاً شديداً عن المسيحية ، الا أن المفكرين المسيحيين أفادوا من أقوالها فى (الفضائل والرذائل وفى صفات الله وفى العناية الالهية) [4] .

والمتأمل فى حياة زينون مؤسس المدرسة ليعثر على مادة هامة تصلح لدراسة مدى اتصاله بالأفكار الدينية السابقة على ظهور الفلسفة اليونانية ـ ونعنى بها الفكر الشرق القديم ، وكأنه أحياها من جديد فى قلب بلاد الاغريق .

ان زينون ولد بجزيرة قبرص ، ثم انتقل الى أثينا ، وكان موضع تقدير الاثينيين ، حيث رثوه رثاء رسمياً على أثر وفاته بعد أن بلغ من العمر ٩٨ عاماً ، مستحقا لتقديرهم لحثه الشباب على الفضيلة والحكمة ، وكان أثناء حياته مثلا أعلى للأخلاق الكريمة . لقد بلغ هذا الحكيم (من قوة الارادة وطول الصبر وضبط النفس والعفة والسيطرة على الهوى مبلغاً أدهش معاصريه ، فكان الاثينيون يضربون به المثل قائلين « اضبط لنفسه من زينون » [5] .

---

(١) تاريخ الفلسفة اليونانية : يوسف كرم ص ٢٢٩ . (٢) الرواقية : د. عثمان امين ص ٧ .

(٣) نفسه ص ١١ . (٤) تاريخ الفلسفة اليونانية : يوسف كرم ص ٢٣٣ .

(٥) الرواقية : د. عثمان ايمن ص ١٦

وفى مذهب زينون عنصر مميز عن فلسفة الاغريقيين ، فهو يتصل بالفينيقيين – أو تقاليد الساميين – مما جعله يختلف فى آرائه وأخلاقه عن فلاسفة اليونان حتى قيـل انه (أقرب الى مثال النبى الشرقى منه الى مثال الفيلسوف اليونانى) [(١)] .

وبالمقارنه بين زينون وأفلاطون مثلا تزداد صحة هذا الاحتمال اذ كان افلاطون – على العكس من زينون – يحاول استخلاص الحقيقة الكامنة فينا بالاستنباط ، والدليل العقلى ، بينما اتجه زينون فى اعلان نتائجه مقتديا بالانبياء ، اذ يكشف الحقيقة على نقيض طريقة الفلاسفة – بالتأمل والالهام – ولأن النبى يعلن هذه النتائج باعتباره مرسلا من عند الله ، وكان زينون – فى اقتراب نغمة صوته من نغمة الأنبياء (يشعر أنه مكلف برسالة يريد أن يؤديها وأن يأخذ الناس بها كاملة) [(٢)] .

الفلسفة أو الحكمة الرواقية :

ان الفلسفة فى الرواقية هى (**محبة الحكمة ومزاولتها**) ويتضح من هذا التعريف الناحية العملية فى هذه الحكمة حيث تشترط العمل والمزاولة . كما يظهر من التعريف التالى أيضاً الاهتمـــام بالالهيات ، فالحكمـة أيضاً هى (علم الأشياء الالهية والإنسانيـة)[(٣)] .

كذلك يتضح أيضا أن هدف الرواقيين هو تجاوز نظره سقراط القاصرة على الامور الانسانية ، حيث أضافوا اليها النظر فى الامور الالهية [(٤)] .

ويتضح أيضاً الصبغة الأخلاقية للفلسفة الرواقية التى تحتل فيها الأخلاق المكان الاول ، فالفلسفة عندهم أيضا هى ممارسة الفضيلة بحيث يمكـن القول بأنها فى صميمهـا (مذهب أخلاقى) [(٥)] ، أو بعبارة أخرى تجعل من الأخلاق الغاية

(١) نفسه ص ٢٣ .   (٢) نفسه ص ٢٤ .

(٣) تاريخ الفلسفة اليونانية : يوسف كرم ص ٢٢٤ .   (٤) الرواقية : د عثمان أمين ص ١١٦ .

(٥) تاريخ الفلسفة اليونانية : يوسف كرم ص ٢٢٤

والثمرة ، فالحكمة عندهم تشبه (حقلا أرضه الخصبة العلم الطبيعى وسياجه الجدل ، وثماره الأخلاق) .

ومن أجل ذلك أيضاً ، سنفصل القول فى مذهبها الأخلاقى .

٤ ـ الأخلاق فى المذهب الرواقى :

رأينا مما تقدم أن سقراط دعا الى السعادة القائمة على تغليب العقل على دوافع الشهوة ودواعى الحس ، كما عرفنا من اتجاه كل من افلاطون وأرسطو انهم يرون أيضاً فكرة السعادة الى ضبط النفس .

ثم جاء زينون (٢٧٠ ق . م) فرأى ضرورة العمل على (قمع الأهواء ووأود الشهوات ومحاربة اللذات والاشادة بحياة الزهد والحرمان ، تحقيقا للسعادة الرواقية)(١) .

ان من يدرس الفلسفة فى المدرسة الرواقية ، يتبيّن له ان الرواقية فى صميمها مذهب أخلاقى ، فما هو هذا المذهب وما هى سماته الرئيسية ؟

ان ما يدل على أن الأخلاق تحتل المرتبة الاولى فى المذهب الرواقى هو تعريفهم للفلسفة ذاتها ، فهى عندهم (ممارسة الفضيلة ، والفضيلة صناعة واحدة لا تتجزأ ، وهى أشرف الصناعات منزلة ، وهى تلائم طبيعة البشر ملاءمة خاصة) (٢) . ان البحث فى الطبيعيات والمنطق عندهم اداة لخدمة الاخلاق ، والحكمة هى رأس الفضائل وتصدر عن الحكمة الفضائل الرئيسية الأربعة : الاستبصار والشجاعة والعفة والعدالة(٣) .

ويوحد أهل الرواق بين الفضيلة والسعادة ، فالسعادة تنحصر فى فضائل عقلية

---

(١) الفلسفة الخلقية : د. توفيق الطويل ص ٧٣ .

(٢) الفلسفة الرواقية : د. عثمان امين ص ١٥٧ ـ ١٥٨ . (٣) الفلسفة الخلقية ص ٧٧ .

هـي (ضبط النفس) و (الاكتفاء بالذات) و الحكمة) ، وقد اكتسبت هذه الفضائل الثلاث صبغة عقلية ، وأصبحت الفضيلة عندهم عبارة عن التخلص من الرغبة والتحرر من الانفعال ، حيث يظهر معنى الفضيلة بصفة خاصة عند مناداتهم بالاكتفاء بالذات باعتباره فضيلة أساسية من فضائل الرجل الحكيم فانهم فى الحقيقة يشيرون الى حالة رجل لم يعد يعوزه شئ ، أو بعبارة أخرى تنازل وتخلى تماما عن كل شئ[1] .

ويظهر لنا وجه الاختلاف هنا بينهم وبين ارسطو انه لم يطالب بالعمل على استئصال الشهوات وقمعها ، بل اكتفى باخضاعها لحكم العقل وسيطرته ، لأن الشهوات لها مكانها فى الطبيعة الانسانية ، ووقف الرواقيون على الضد ، فاحتقروا الأهواء واعتبروها مخالفة فى جوهرها لمنطق العقل مطالبين باجتثاثها وابادتها بقدر الامكان[2] .

ومن أجل ذلك وضعوا الحكيم فى صورة مثالية اذ أصبح فى نظرهم أشبه الناس بشخص معصو ، يتقن كل أفعاله ، لا سلطان للاهواء عليه ، فلا يتأثر بشئ (لا يحس ألما ، ولا يستشعر شجنا ، ولا يعرف هما ، ولا يسارو قلبه وجل ولا أسف ولا رجاء ، هو الغنى من غير مال ، والملك من غير مملكة .. انه بالاجمال الفرد العلم الذى يحيط بكل فن ويتقن كل صنعة ويعلم الامور الالهية والانسانية جميعاً)[3] .

وستتضح معالم الاخلاق عند الرواقيين بصورة أعمق اذ تكلمنا عن الصلة فى مذهبهم بين الطبيعة والعقل .

---

(١) المشكلة الخلقية : د. زكريا ابراهيم ص ١٤٩ ـ ١٥٠ .

(٢) الفلسفة الخلقية : د. توفيق الطويل ص ٧٥ .

(٣) الفلسفة الرواقية : عثمان امين ص ١٦٥ .

الصلة بين الطبيعة والعقل :

اذا كانت الطبيعة تتجه الى غايتها بلا شعور فى الجماد والنبات ، وبالغريزة والشعور فى الحيوان ، فانها تتخذ فى الانسان طريقاً آخر هو العقل ، فهو أكمل الطرق لتحقيق أسمى الغايات ، ووظيفة الانسان (أن يستكشف فى نفسه العقل الطبيعى وأن يترجم عنه بأفعاله ، أى أن يحيا وفق الطبيعة والعقل) [١] .

ولذا أطلق زينون عبارته المشهورة (الحياة وفقا للطبيعة) ومعناها أولا أن يعيش الانسان على وفاق مع العقل ، فاستخدم لفظ الطبيعة مرادفا للقانون الكبير الذى يحكم العالم ، ومن ثم فان سعادة الانسان تتحقق اذا عاش وفقاً للطبيعة الكلية . ويوضح لنا هذا التفسير العبارة التى قالها أحد الرواقيين (كل شئ يلائمنى اذا لاءمك أيها العالم . وما جاء فى الوقت الملائم بالنسبة اليك ، فليس متقدماً ولا متأخراً بالنسبة الى ، وكل ما جاءتنى به فصولك أيتها الطبيعة فهو ثمرة عندى ، كل شئ يأتى منك ، وكل شئ فيك ، وكل شئ يعود اليك [٢] .

الطبيعة اذن بمعناها فى العبارة الآنفة الذكر هى قوانين الوجود ، وبمعناها الضيق المتصل بسلوك الانسان هو العقل ، وهما أمر واحد فى نظر الرواقيين (لأن العالم يسير وفاقا لقانون العقل ، والانسان الذى يتبع طبيعته العاقله يتشبه بالعالم الأكبر ، والانسان لا يملك عصيان قوانين الوجود ، ولكنه ـ ككائن عاقل ـ هو الوحيد الذى يطيع هذه القوانين عن وعى وتعمد وادراك ، ابتغاء تحقيق السعادة) [٣] .

ولكن كيف تتحقق هذه السعادة ؟

---

(١) الفلسفة الرواقية : د. عثمان امين ص ١٥٩ .

(٢) الفلسفة الخلقية : د. توفيق الطويل ص ٧٤ .

(٣) الفلسفة الرواقية : د. عثمان امين ص ١٦٢ .

للاجابه على هذا السؤال علينا أن نتبين :

اولاً : الطريقة التى رأوا اتباعها لتحرير النفس من أوهام الأحكام .

ثانياً : التمييز بين الاحساس الجسمانى والموقف النفسانى .

وفيما يتعلق **بالشق الأول** ، فانهم نظروا الى الشرور نظرة ذات شقين : أحدهما باطنية كالخطأ وزعزعة الايمان والاسف والندم والحزن والجهل . وخارجية : كالفقر والرق والمرض والبؤس والاهانة والأذى والتشهير . وعالجوا المشكلة علاجا عقليا) اذ ذهبوا الى أن الاشياء الخارجية لا تؤثر بذاتها فينا ولكن المؤثر الحقيقى هو الاستعداد النفسى الذى يجعلنا نحكم عليها لنصفها بالحسن أو القبيح بالخير أو الشر ، وهذه الأحكام هى سبب شعورنا بالسعادة أو بالشقاء . ولكى نحقق السعادة علينا أن نتحرر من أوهام الأحكام بواسطة ارادتنا . مثال ذلك ما حدث لسقراط الذى اقدم على الموت بلا مبالاة ، ويوضح لنا موقفه بقوله (ان الذى يصيب الناس ويؤثر فى حياتهم ليست هى الاشياء نفسها ، بل آراؤهم عن الاشياء ، فلو كان سقراط يرى الموت شراً لوقع الرعب منه فى قلبه ، لكن سقراط لم يكن يرى الموت شراً ، فأقدم عليه غير مبال [1] .

ثانياً :

ولكن الانفعالات المتولدة فى النفس أمر خارج عن سلطان الارادة أو الأحكام العقلية ، كاللذة أو الألم أو الخوف أو الرجاء ، هذا هو الاعتراض الذى شغل الرواقيين ، انهم يقرون بأن الانفعالات النفسية هى حجر عثرة فى طريق السعادة ، وفى سبيل تذليل هذه العقبة فرقوا بين الاحساس الجسمانى الذى لا قدرة لنا عليه ، وبين الموقف النفسانى الذى نتخذه عقب الاحساس وهى يتصل بقدرتنا وارادتنا .

---

(١) الفلسفة الرواقية : د. عثمان امين ص ١٦٣ .

ومع الاعتراف بأن الألم يصيب المرء فيحتمله تارة ويضنيه أخرى ، فان هذا يدل على أنه يستطيع أن يقرر بحريته اذا كان من الائق به الاستسلام للألم ، ويسرى على باقى الانفعالات كالحزن والخوف وغيرها ما يسرى على الألم . وعلاج المسألة فى نظرهم بالرجوع الى العقل الذى يوضح لنا أن أحداث الكون كلها ضرورية لأنها خاضعة للقدر [١] . والرجل الفاضل الحكيم هو الذى (يقبل طوعاً كل ما يأتى به القدر من أحداث ، حتى المصائب والنكبات ، معتقداً أنها داخلة فى النظام الكلى والقضاء الالهى) [٢] .

ولعل أفضل مثال يوضح لنا تصورهم لتحقيق السعادة ـ ما قاله أحدهم وهو أبكتيتوس[٣] ـ وكان يعمل بما يقول كحال أكثر الرواقية ، اذ روى عنه أنه قال (اذا قدر لى أن أموت فلن أجد فى الاقدام على الموت ما يدعو الى التأوه والتألم ، واذا قدر لى أن أزج الى السجن فلن أذهب اليه باكيا منتحباً ، واذا قدر لى أن أعانى مرارة النفى فلن أذهب الى منفاى مكتئباً متخاذلً واذا طلب الى طاغية أن افشى سراً وهددنى بأن يقيدنى بالاصفاد ، قلت له انك تقيد ساقى ولا تملك أن تمس ارادتى بسوء واذا أرسلنى الى السجن أمكنك أن تتحكم فى جسدى دون أن تمتد قدرتك الى نفسى ، واذا انذرتنى بفصل رأسى عن جسدى قلت لك ساخراً ـــ أنا الانسان الوحيد الذى يستحيل قطع رأسه) [٤]

(١ ، ٢) نفسه ص ١٦٠ .

(٣) وقد نال فيما بعد أحد كتبه امتيازا من حيث تبنيه الكنيسه كمرشد دينى .
ص ٢٠٧ من كتاب قصة الفلسفة لديورانت: ترجمة أحمد الشيبانى ـ
المكتبه الأهلية بيروت ١٩٦٥ م

(٤) الفلسفة الخلقية : د. توفيق الطويل ص ٨٣ .

نقد الرواقية :

ان طريقة حياة الحكيم الضابط لنفسه كما يريدها أهل الرواق تدخل فى روعنا صورة كائن صناعى متضخم العقل على حساب الروح والعاطفة ، وليس الانسان كذلك بل هو مزيج من العقل والوجدان والعاطفة ، ولا تتحقق سعادته الأرضية الا بالموازنة بين هذه العناصر لتتحقق الوسطية بينها فينتج عنها السعادة وهو المنهج الذى رسمه الاسلام بتشريعة المحدد للسلوك الانسانى فى دائرة (الحلال) دون (الحرام) ، مستجيباً لدواعى الفطرة فى الانسان وضابط لنوازعها بلا تفريط ولا افراط .

ومما يقرب الينا فهم ميزة الاسلام فى هذا الصدد أن نتدبر العبادات ودورها فى تقويم السلوك وتربية الضمير ، وأهمها الصلاة قال تعالى ﴿ **واستعينوا بالصبر والصلاة** ﴾ .. وفى دور الصلاة واستيعابها لحياة المسلم اليومية يقول الشيخ محمد الراوى (ان القرآن العظيم جعل الانسان دائما مرتبطا بالواجبات منوطا بالتبعات وهو يرسم له فى يومه الذى هو وحدة زمنية متكررة منهجاً يستوعب اليوم كله ، واليوم عنده يبتدئ من مطلع الفجر الصادق حيث تقام الصلاة ويلتقى الناس على ذكر الله ، وهو يطلب دائماً أن يكون اليوم أفضل من الأمس ، ومن استوى يومه بأمسه فهو مغبون . وهكذا فان المنهج اليومى بالنسبة للصلاة خمس فرائض ، أولاهما تبعثه من نومه وتوقظه وآخرها تودعه الى مرقده وتحفظه وثلاث تأتى فى وسط النهار وآخره ، تمتزج مع السعى ونتائجه فتستقيم بها حياة الروح والجسد ، وبهذا الامتزاج تنشأ آداب السلوك التى تضبط كل حركة من حركات الانسان بضابط الخلق ورقابة الضمير) [1] .

---

(١) الدعوة الاسلامية دعوة عاليمة : محمد الراوى ص ١٠٣ دار العربية ـ بيروت ١٣٨١ ـ ١٩٦٢

ان الاسلام اذن بعقيدته وعباداته ـ وأهمها الصلاة ـ يصحح لنا الموقف الأخلاقى للرواقية فقد صورت لنا هذه المدرسة الانسان الحكيم وكأنه معصوم من الوقوع فى الزلل والخطأ فأين نجد هذا الانسان فى حياتنا اللهم الا فى أشخاص الرسل والأنبياء ؟ وحتى هؤلاء ، فقد خاضوا حياتهم كاملة ولم يكتفوا بحياة التأمل والنظر فى النفس وضبطها ـ بل حملوا الرسالات التى ناءت بها كواهلهم على ثقلها ، مع تميزهم أيضاً بأفضل الأخلاق وأحسنها .

خاتمة :

من الحق أن يقال إن البحث الأخلاقى عند اليونان لم يكن بدءاً غير مسبوق بمقدمات تسلم اليه ، فان فى حكمة الشرق الضاربة فى اغوار الماضى السحيق اتجاهات أخلاقية واضحة المعالم ، فى تراث مصر والهند والصين واليابان صور مختلفة من التفكير الأخلاقى الأصيل نبتت فى ظله فلسفة الأخلاق فى أعمق اتجاهاتها[١] .

ونحن نرى أن الرسالات السماوية قامت على الدعوة ـ بعد معرفة الله تعالى وتوحيده وتطبيق شرعه ـ الى مكارم الأخلاق ومعاليها .

لذلك فان النتائج الأخلاقية الصحيحة للفلاسفة ما هى الا صدى بعض رسالات الرسل والانبياء .

---

(١) الفلسفة الخلقية : د. توفيق الطويل .

الفصل الثالث

مذاهب أخلاقية في الفلسفة الحديثة

لم تنقطع الصلة بين النظريات الاخلاقية عند اليونان وبين فلاسفة أوروبا المحدثين ، فان ديكارت مثلا قد ترسم خطى الرواقية وأقر زينون فى اعتباره أن أسمى الخيرات هى ممارسة الفضيلة ، لأن الفضيلة تتوقف على ارادتنا ، ولهذا فانه كان يرى أن التغلب على هوى النفس أمر اسبق من التغلب على الحظ ، وأنه ينبغى على المرء بذل جهده فى تغيير رغباته بدلا من تغيير نظام العالم (وان يروض نفسه على أن يعتقد أن آراء الانسان وأفكاره هى كل ما يملك فى هذه الدنيا) [(١)] .

ان النظرة المقارنة لمعالم الاخلاق عند ديكارت وبعض الفلاسفة الاخرين ، تؤدى الى القول بأن (الاخلاق عند ديكارت ليست الا الاخلاق الرواقية ، وما مذهب سبينوزا الا المذهب الرواقى فى ثوب ديكارتى . وما الاخلاق عند كنط الا أخلاق الرواقيين فى لغة جديدة) [(٢)] وما مذهب المنفعة الا مذهب الابيقوريين فى ثوب جديد كما سنرى :

(أ) مذهب المنفعة العامة :

علينا قبل دراسة مذهب المنفعة العامة فى الفلسفة الحديثة أن نوضح جذوره الممتدة من أثر مذهب الابيقوريين اليونان :

ذهب الفيلسوف اليونانى أرستبس الى أن اللذة هى صوت الطبيعة ، وأن الغريزة هى المحرك الاول لافعال الانسان مثلة فى ذلك كمثل الحيوان والطفل ، وجعل

---

(١) الفلسفة الرواقية : د. عثمان امين ص ٢٧٠ . (٢) الفلسفة اليونانية : يوسف كريم ص ٢٣٣

معيار اللذة والالم هى معيار القياس لخيرية الافعال وشريتها ، وقصر اللذة على اللذات البدنية .

وجاء بعده أبيقور فاتفق مع سلفه من حيث نشدان الناس للذة ـ مثل الحيوانات ، بدافع الغريزة . ولكنه رأى أنه مع أن اللذة هى الخير الاعظم الا أن لها أحيانا عواقب قد لا تكون خيرا ، فالافراط فى اللذات يؤدى الى عواقب جسيمة فنادى بضرورة اجتناب اللذات التى تجر آلاما لأنها عائقة لتحقيق السعادة . وعارض أرستبس الذى اعتبر اللذة مطلقة ، اذ فطن الى نسبية اللذة لأنها تقاس دائماً بالألم المقابل لها . كما أعلى ابيقور من شأن اللذات الروحية ، وأصبحت الاخلاق عنده بمثابة تهذيب اللذات النبيلة كالصداقة والحكمة وما الى ذلك ، (ولم يقف ابيقور عند هذا الحد ، بل لقد دعا أيضاً الى التحكم فى الدوافع الدنيا واعتبر الفضيلة مظهراً من مظاهر (ضبط النفس) وتغلب (القيم العليا) على (القيم الدنيا) [1] .

وفى العصر الحديث ، ظهر المذهب النفعى محاولا التحايل للعودة الى تقرير مبدأ اللذة ، ولكن مع تدخل (الفكر) لتنظيم اللذات لأنها لو تركت لذاتنا وشأنها لتحولت الى حشد متناقض فوضوى من الملذات ولأثرت بمجال الوعى كله ، بينما العالم متناه ويستحيل أن تتحقق فيه سائر اللذات معاً . ان ادخال التفكير أو التدابير أو التنظيم على سلسلة اللذات ينتقل بنا الى مذهب اللذة معدلا ، بعبارة أخرى ، يريد مذهب المنفعة لنفسه (أن يكون مجرد تصحيح عقلى لفلسفة اللذة) [2] .

وقد بعث الفلاسفة الفرنسون فى أواخر القرن الثامن عشر تعاليم تشبة تعاليم الابيقورية . كما تجلت هذه التعاليم فى مذهب المنفعة العامة وشغل انجلترا فى القرن التاسع عشر[3] .

(١) المشكلة الاخلاقية : د. زكريا ابراهيم ص ١٢٢ ـ ١٢٣ .

(٢) نفسه ص ١٣٨ .

(٣) الفلسفة الخلقية : د. توفيق الطويل ص ٩٦ ـ٩٧ .

وسنقتصر فى دراستنا على المذهب النفعى عن اثنين من فلاسفة الانجليز هما ارميابنثام ، وجون ستيوارت مل .

لقد ازدهرت النزعة التجريبية فى تفكير الانجليز منذ بيكون فى مطلع القرن السابع عشر ، وبلغت الذروة عند دافيد هيوم فى القرن الثامن عشر ، ثم نهضت التجريبية أيضاً فى القرن التاسع عشر على يد بنثام وجون ستيوارت مل وغيرهما ، اذ تجلت النزعة التجريبية (أوضح ما تكون فى المجال الاخلاقى الذى كان يعبر عنه مذهب المنفعة العامة) (١) .

ان معالم المذهب النفعى تتلخص فى التقاء مفكريه على القول بأن اللذة أو المنفعة هى الخير المرغوب فيه ، والالم هو الشر الذى يجب تفاديه ، ومن ثم فان المنفعة عندهم هى مقياس الخيرية . ولكن هناك من أصحاب هذا الاتجاه من ابتغى السعى وراء اللذة أو المنفعة الفردية أمثال الابيقوريين قديما وهوبز حديثا ، فهم أصحاب مذهب اللذة الفردى أو الانانى (٢) . ومنهم من التمس المنفعة العامة ـ وهم المحدثون ـ حيث طالبوا بتحقيق (أكبر قدر من السعادة لأكبر عدد من الناس) (٣) .

١ـ النفعية عند بنثام : (١٧٤٨ ـ ١٨٣٢ م)

اعتنق بنثام المذهب النفعى ، وأنشأ مجلة للدعوة الى الاصلاح الدستوى وكان لدعوته أثرها الكبير فى السياسة الانجليزية .

أما مذهبه فى المنفعة فإنه يرى أن الناس بطبائعهم يسعون وراء اللذة ويجتنبون الألم كالحيوانات تماماً ، مع امتيازهم عن الحيوان باتباعهم لمبدأ النفعية لاستخدامهم للعقل ، لأن العقل هو الذى يحكم على الفعل الخير اذ يعود بلذة مستمرة تفوق

(١ ، ٢ ، ٣) نفسه ص ٢٨٧

فية اللذة على الألم ، وبالعكس فان الفعل الشرير يؤدى الى زيادة الألم على اللذة ، مع استمراره . وهو يقيس اللذات من حيث صفاتها الذاتية كالشدة والمدة والثبات وقرب المنال أو القدرة على انتاج لذات أخرى وخلوها من الالم ، كما تقاس بالنظر الى آثارها الاجتماعية كخوف المواطنين من عواقب الجريمة اذ انها قدوة سيئة وتسبب اضطراباً اجتماعياً ، ينبغى على الفرد مراعاتها لأن منفعة المجموع شاملة للمنافع الفردية [١] .

وأهم العوامل فى حساب اللذات الذى حددها بنثام هو هذا العامل الاخير ، أى مايسميه عامل الامتداد ، أى عدد الافراد الذى يمكن أن يشملهم الشعور بها فى وقت واحد ، لأن ما يعنيه هو أن تشمل اللذة أكبر عدد ممكن من الافراد ، فالبحث عن لذة الآخرين عند بنثام هو أحسن وسيلة لاعانة الفرد على تحقيق أكبر قسط من اللذة ، فالمنفعة الشخصية مرتبطة بالمنفعة العامة ، لأن المرء عاجز عن الوصول الى ما هو نافع له من غير الاجتماع بغيره والتضامن مع افراد المجتمع . بل أنه طوع فكرة (الايثار) لهذا الفهم ، فالايثار هو تضحية الفرد بجزء من لذاتة ، بغرض الحصول على قدر أكبر من اللذة لنفسه بواسطة تحقيق مصالح الغير [٢] . وكأنه يسخر من مبدأ الايثار والغيرية ، فهو ليس فى رأيه الا أنانية مقنعة متنكرة ، لأن التجربة تدل على المرء لا يفعل الخير للغير الا اذا حصل من ورائه على نفع لنفسه ، ولكنه من فرط استحيائه من وصف الانانية أو الاتهام بالنفعية فانه ينافق باطلاق عبارات خلقية جوفاء من اختراع خصوم المذهب النفعى ـ أى الحدسيين والعقليين المثاليين الذين استخدموا تعبيرات كالواجب والالزام والضمير وغيرها (مما عبروا به عن اتجاههم المثالى فى النزوع بالسلوك الانسانى الى تحقيق ما ينبغى أن يكون ، احتراما لكرامة

(١) تاريخ الفلسفة الحديثة : يوسف كرم ٣٣٢ ـ ٣٣٣ .

(٢) المشكلة الاخلاقية : د. زكريا ابراهيم ص ١٦٦

الانسان وانسانيته) [١] .

وهنا تظهر النزعة التجريبية فى مذهب بنثام لأن معيار الاخلاقية عنده مرهون بنتائج الافعال وآثارها ، وليست مرتبطة بالبواعث كما يرى الحدسيون والعقليون [٢] .

ان بنثام لا يهتم بالمقاصد أو النوايا وانما جل همه نحو النتائج ، فتحولت الحياة الاخلاقية على يده ـ والنفعيين بصفة عامة ـ الى سعى وراء الوسائل المؤدية الى المنفعة ، دون نظر الى قيمة الغاية التى يسعى نحوها . وربما لهذا السبب أصبح الرجل الحديث عبداً للمنفعة ساعيا وراء اللذات دون التفكير فى الغاية التى يلتمسها من ورائها ، ولذا يمكن القول بأن انسان العصر الحديث (أصبح مفتقراً تماما الى الاحساس بالقيم تلك القيم التى تكمن وراء شتى الاشياء ، وتضفى عليها كل ما لها من معنى أو دلالة) [٣] .

ومن المآخذ التى وجهت الى مذهب المنفعة عند بنثام ، أنه فى حقيقتة مذهب ابيقور مقّنعاً . كما أن مرد الخطأ فى مذهبه يرجع الى ارجاعه اللذة والالم الى الكم ، وهما فى الحقيقة يرجعان الى الكيف ومن ثم يستحيل قياس القيمة الذاتية للذة باعتبار الكم ، أو الموازنة بين لذتين من نوع واحد كلذة التفاح مثلا ولذة الخوخ ، ويستحيل الموازنة بين لذتين مختلفتين بالنوع كاللذة الحسية واللذة العقلية (كذلك لا يوجد قياس مشترك بين قرب المنال والنقاء ، أو بين الشدة والمدة ، الى غير ذلك من خصائص اللذة التى يمتنع اجتماعها للذة بعينها وانما يتفق بعضها للذة وبعض آخر للذة أخرى ، وهكذا بحيث تمتنع المضاهاة ويمتنع الاختيار)[٤] .

(١) الفلسفة الخلقية : د. توفيق الطويل ص ٢٩١ . (٢) نفسه ص ٢٩٠

(٣) المشكلة الاخلاقية : د. زكريا ابراهيم ص ١٦٨ .

(٤) تاريخ الفلسفة الحديثة : يوسف كرم ص ٣٣٣ .

ويبدوا أن بنثام قد لاحظ التضاد بين قوله بشدة اللذة وشمولها للآخرين ، لانها اذا كانت قوية لصاحبها فانها ستضعف بتوزيعها عليهم ، فاستبعد فى أواخر حياته منطوق المذهب (لأكبر عدد من الناس) ، وأصبح شعاره (تحقيق أوفى قدر من السعادة) ، فكان بذلك أمينا لنزعته الفردية [١] .

٢ ـ جون ستيوارت مل : (١٨٠٦ ـ ١٨٧٣ م)

سار على نفس الدرب الذى سبقه اليه بنثام إمام المذهب الاخلاقى النفعى اذ اعتبر علم الاخلاق علما وضعياً موضوعه وصف سلوك الافراد فى المجتمعات المختلفة ، وجعل منهج البحث الاخلاقى استقرائياً تجريبياً بعد أن كان حدسياً عقلياً [٢] .

ومع أن جون مل قد نشأ منذ حداثته فى رحاب المذهب البنثامى فى المنفعة ، مشاركاً استاذه بنثام فى اقرار المنفعة كغاية لسلوك الانسان ومعيار للاحكام ، فقصد بالمنفعة تحصيل اللذة والخلو من الالم ، وعلق الاخلاقية على نتائج الافعال دون بواعثها ، واعتبر الجزاءات كعنصر مشجع على فعل الخير واجتناب الشر .

وأضاف جزاء خامساً الى الجزاءات التى سبقه الى وضعها بنثام . فقد كان بنثام يرى أن أخلاقية الفعل مرهونة بجزاءاته اذ يحث الجزاء الطيب على فعل الخير بينما ينفر الجزاء السيئ من اتيان الشر ، مصنفا الجزاءات الى أربع : بدنية تصيب الشرير فى بدنه . وسياسية أو قانونية حيث تنزل العقوبات بمن يخالفها ، وعرفية اجتماعية ممثلة فى استهجان الرأى العام للخارجين على تقاليده ، ودينية تظهر فى عذاب جهنم للخارجين على تعاليم الله ، أقر مل هذه الجزاءات التى وضعها إمام النفعيين الاول ،

(١) الفلسفة الخلقية : د. توفيق الطويل ص ٢٩٢ .

(٢) جون ستيوارت : د، توفيق الطويل ص ١٠٠ ـ ١٠١ دار المعارف ـ نوابغ الفكر الغربى (٦) .

(٣) نفسه ص ١١٦ .

وأضاف اليها جزءا خامساً باطنياً ـ اذ عد الجزاءات الاربعة السابقة خارجية تظهر فى الطمع فى الرضا والخوف من الضيق وخشية الاقران ورهبة الله ، بينما يظهر الجزاء الباطنى (فى استشعار الضيق عندما يعصى الانسان نداء الواجب ، وارتياحه حين يلبى هذ االنداء [١].

ولكنة على أثر اتصاله بالتفكير الالمانى ـ لا سيما بمثالية كانط وهيجل ـ عن طريق شراحها الانجليز ـ أصيب بأزمة نفسية ، كانت سببا فى اعادة نظرته الى النفعية الحسية التى تلقاها عن أستاذه بنثام (وكان من أظهر دلالات هذا الموقف ضيقه بالانانية المسرقه التى تقوم عليها النفعية ، ونفوره المؤقت من النزعة الحسية ، وتبرمه بالجبرية الاخلاقية التى تدعو اليها هذه النزعة) [٢].

وقام مل بتصحيح مذهب المنفعة فى نقطتين :

الاولى : أن اللذة ليست راجعة كلها الى اللذة الحسية كما رأى بنثام ، اذ أن هناك لذات معنوية كيفية تتصل بحياة الوظائف العليا للانسان ، هى أشرف من حياة الوظائف الدنيا ، فما من انسان يرضى أن يستحيل حيوانا أعجم [٣].

وربماكان مل متأثرا بتفضيله كيفية اللذة على كميتها بالاتجاه المثالى الالمانى الذى صاحب أزمتة النفسية كما قلنا ، فأخذ يميل الى الاتجاهات العاطفية الوجدانية ، مفضلاً لذات العقل على لذات الحس ، ويذكر أننا لو سألنا (أهل الخبرة ممن مارسوا شتى اللذات ، لكى نتحقق من أن هناك لذات نبيلة رفيعة وأخرى دنيئة حقيرة ، فلا يمكن مثلا أن نوضع لذات الحس فى مستوى واحد مع لذات العقل ، بل ربما كان من الافضل للفرد أن يكون انساناً شقياً ، من أن يكون خنزيراً

(١) الفلسفة الخلقية : د. توفيق الطويل ص ٢٩٤ .

(٢) تاريخ الفلسفة الحديثه : يوسف كرم ص ٣٤٩ ط دار المعارف بمصر .

متـلذذاً) [1] ذلك لأن منابع اللذة عند الانسان تخالف منابعها عند الحيوان ، فللانسان قوى عقلية ممثلة فى العقل والوجدان والخيال [2] .

الثانية :ـ اخضاع المنفعة الذاتية للمنفعة الكلية ، فطالب الفرد بأن ينصف غيره ويغلب المصلحة العامة على المصلحة الفردية عملاً بنصح عيسى عليه السلام فى معاملة الناس بما تحب أن يعاملوك به ، وان تحب جارك كما تحب نفسك . وجاهر مل بأن الخير هو ما يقصد اليه الحكيم ويلذ الرجل العاقل [3] .

ومع هذا فان دراسة مذهب مل ـ حتى بعد هذين التعديلين ـ تكشف عن تناقضه ، اذ أن المذهب الحسى لا يعترف بالكيفية ، ولا يقر بقيم موضوعية للموجودات والوظائف ، فلا فرق بين الوظائف العليا والدنيا ، اذ أن الاختيار بين اللذات متروك لتقدير المنفعة الحسية فحسب . وفى النقطة الثانية ، فمادام النفع الذاتى هو الاصل فى المذهب الحسى ، فانه لا يخضع للنفع العام لانهما كثيراً ما يتعارضان .

وتكشف هذه النتيجة عن (تناقض المذهب الحسى مع الحقيقة الشاملة ، وستيوارت مل ملوم لإصراره على هذا المذهب بعد أن لمس نقصه فى نواح كثيرة ، ولكنه استنشقه فى بيته وبيئته ، ولم يوفق الى فهم المذهب العقلى على حقيقته [4] .

---

(١) المشكلة الخلقية : د. زكريا ابراهيم ص ١٦٩

(٢) الفلسفة الخلقية : د. توفيق الطويل ص ٢٩٥

(٣) نفسه ص ٢٩٤ .

(٤) تاريخ الفلسفة الحديثة : يوسف كرم ص ٣٤٩ .

الاخلاق فى الفلسفة العملية (البرجماتية) :

تفرع المذهب النفعى فى النصف الاول من هذا القرن فروعاً شتى وانتصر له طائفة من الفلاسفة الامريكيين بوجه خاص وأصبح من الجائز فى منطق هؤلاء النفعيين أن يوضع لحل المشكلة الواحدة مجموعة من المذاهب قد تصدق كلها أو يصدق الكثير منها فى وقت واحد ، متى أفضت هذه الفروض الى تحقيق منفعة بغير اعتراف للحق لذاته أو الباطل لذاته !! (١) .

ويتضح المذهب بصورة أوضح عن أحد كبار فلاسفته وهو وليم جيمس الذى يرى أن الخير يقوم فى اشباع مطالب الانسان وتحقيق رغباته .

ومعنى هذا أن من حقنا أن نعتنق مبدأ خلقياً أو معتقداً دينياً لا يحملنا على اعتناقه تفكيرنا النظرى المجرد ، بل تدعونا الى اعتناقه مطالب الحياة ومقتضياتها .

وحتى الدين ، فقد أقامه على التجربة ، فحاول أن يثبت أن اعتناق الدين والايمان بالله حق ، لأنه يتحول عند المؤمن الى سلوك ناجح فى حياته ، فالايمان يساعد صاحبه على احتمال الكوارث ويجعله أقدر على الصبر والعمل ، بعكس الالحاد الذى يدفع بصاحبه الى الانتحار اذا أصابته كارثة (٢) .

وجاء بعده جون ديوى الذى اعتبر الافكار والمثل العليا والمبادئ مجرد وسائل وذرائع يستعين بها الانسان فيتوجه سلوكه الى حيث تتحقق مطالبه وغاياته (٣) .

---

(١) الفلسفة الخلقية : د. توفيق الطويل ص ٢٦٩ ـ ٢٧٠ دار النهضة العربية ١٩٦٧ .

(٢) نفسه ص ٢٧٦ .   (٣) نفسه ص ٢٧٦ .

نقد البرجماتية :

يمكن توجيه النقد لهذا المذهب الاخلاقى اجمالا فيما يلى [1] :

١ـ أن الحق قيمة مطلقة وليست نسبية ـ والا فان المجتمع يصاب بالفوضى المدمرة لكيانه وبعلاقاته مع غيره من المجتماعات بسبب الحرب .

٢ـ هل نلتزم بالدين لأنه نافع ؟

ان هذا الاعتقاد يجعل البرجماتية فى موضع نقد شديد لأنها أخضعت أعظم علاقة تربط بين العبد وربه ـ عز وجل ـ الى مجرد علاقة نفعية تتأرجح بين الايجاب والسلب ، فأين الايمان الذى يهب الانسان القدرة على مقاومة أعتى الصعاب ؟ وهو نفسه ـ أى وليم جيمس ـ فى طور من أطوار حياته ـ استطاع التغلب على المرض بارادته النابعة من ايمانه !!

ونأتى الآن الى التحليل والتفصيل فى نقد المذهب :

١ ـ لتقويم هذه الفلسفة ينبغى ألا نبخس وليم جيمس حقه فى بعثة للامل الذى يحفزنا الى تحدى الشر ومغالبته ، ويهبنا الشجاعة · على أن نأخذ الحياة غلابا) [2] وحثنا على ترقية العالم ، لأنه فى وسعنا أن ننهض بترقيته بفضل ارادتنا

هذا الشطر من فلسفته لا غبار عليه ، بل يتضمن كثيراً مما يحتاجه الانسان الفرد لشحذ ارادته ، ودفعه الى العمل الايجابى المثمر ، ولكن وفق أى (مبدأ) ؟

تلك نقطة الخلاف معه ، اذ نعتقد بثبات القيم والمبادئ فى بداية الطريق ، ثم

---

(١) ينظر نقد البرجماتية فلسفياً وأسلامياً بكتابنا (الاسلام والمذاهب الفلسفية المعاصره) طبعة دار الدعوة ، الاسكندرية .

(٢) المفكرون من سقراط الى سارتر : هنرى توماس ص ٤٣٦ ترجمة عثمان نويه مكتبه الانجلو المصرية ١٩٧٠

نمضى بارادتنا لتحقيقها واذا فرض وفشلنا فى الوصول الى الهدف ، فلنعد النظر فى طريقتنا ، اذ ليس العيب فى (المبدأ) ولكن العيب فينا وفى منهجنا .

وبغير الاعتقاد فى ثبات المبادئ ، فاننا لسنا أمام فلسفة جديدة وان بدت كذلك ، ولكنها مجرد اعادة للنظرية الرواقية القديمة (مضافا اليها الروح النضالية الحديثة) [1] فان الخير الحقيقى عند الرواقى القديم فى حكمة الاختيار وحدها وليس فى الشئ المختار الذى يصطفيه (مثلة كمثل ضارب القوس يهدف الى عين الثور ، فغايته ليست فى اصابة الهدف نفسه ، بل اظهار مهارته فى اصابته) [2] .

ان تعليق الحكمة هنا فى مظهرها العملى ـ أى على النجاح فى ذاته بصرف النظر عن طبيعة الهدف ـ تجعل من المجتمع غابة من الوحوش الضارية يأكل بعضها بعضا اذ تتنافس على (التفوق) و (الغلبة) ولا تتفق اراداتها على تحقيق أى قيمة من القيم الفاضلة : كالحق والعدل والايثار وغيرها من الفضائل الانسانية الثابتة فى ذاتها .

---

(١) نفسه ص ٤٣٧ .

(٢) المجمل فى تاريخ علم الاخلاق : د. هـ . سنجويك جـ ١ ص ١٦٥ .

ترجمة وتعليق د. توفيق الطويل وعبد الحميد حمدى ـ دار نشر الثقافة بالاسكندرية ١٩٤٩ معنى ذلك أننا نساوى وفق هذه الفلسفة بين اللص الذى ينهب الثروات وينجح فى جمعها بأية وسيلة ، وبين التاجر الذى ينمى ثروته وفق مبادئ الشرف والصدق . (والرواقية تنسب الى زينون الرواقى ٣٤٣ ـ ٢٧٠ ق. م) وكان يختار (الرواق) ليعلم الناس فيه) .

ولكن من جهة أخرى يرى الدكتور توفيق الطويل ، العمليين التقوا مع السوفسطائية فى رد القيم الى الانسان ولكنهم خالفوا السوفسطائية فى جعل الانسان ، وليس الفرد ، معيار القيم ، فقصدوا بهذه التجربة الانسانية ، وهى تجربة تصطبغ فى نهاية المطاف بطابع اجتماعى . الفلسفة الخلقية ص ٢٧٢ .

فهل نحن مرة أخرى أمام دليل حديث يثبت أن الفلسفة الغربية تعيش على تراثها القديم ؟

٢ ـ يرى وليم جيمس أن (الحق) انما هو فرض عملى ، أى مجرد أداة يختبر بها (تصوره) السابق . ويرى أن الحقائق تنقسم الى قديمة وجديدة !!

والصواب الذى يتفق عليه أغلب الفلاسفة ، أن الحق يستمد قيمته المطلقة من قيمته الثابته خارج مقولتى (الزمان) ، (المكان) .

ونراه أيضا يخلط خلطا معيبا بين المبادئ والاهداف حيث يصبها فى قالب (المنفعة) ، بينما التفكير السليم يقتضى العكس ، أى الايمان بالفكرة والعقيدة أولا عن اقتناع وتثبت بقيمتها الذاتية ، ثم السعى بمقتضاها مهما قابلنا فى طريقنا من صعوبات ، فضلا عن افتقاد (المنافع) وهذا هو منهج الانبياء والرسل عليهم السلام .

ومهما كانت نية وليم جيمس وحوافزه ذات الطابع الاخلاقى فان صدى فلسفته كانت متعارضة مع نواياه ، فقد فوجئ باخوانه الامريكيين يندفعون لتكديس الثروات ، وأخذ يلومهم (لأنهم يعبدون تلك الآلهة الفاجرة التى تدعى « النجاح ») [١] .

ولكن ماذا كان يتوقع غير ذلك ؟

ان هذا هو المصير المحتوم والنتيجة المنطقية لفلسفة تعظم المنفعة وتزدرى الفكرة الثابتة والقيم المطلقة [٢] .

---

(١) المفكرون من سقراط الى سارتر : هنرى توماس ص ٤٣٩ .

(٢) وفى تحليل المجتمع الأمريكى المعاصر ، يقول الأستاذ هيكل الصحفى المعروف ذو الخبرة الواسعة بالسياسة العالمية : (اننا نتصور احياناً أن التأثير ممكن بمنطق الحق والعدل والقانون ، وننسى أننا حيال مجتمع تعود أن يتعامل مع الواقع بصرف النظر عن التاريخ ، وبالنسبة لمعاييره فليس هناك حق ولا عدل ولا قانون فى المطلق . إن معيار القيمة الوحيدة هو النجاح) من كتابه : زيارة جديدة للتاريخ)

يقول الدكتور توفيق الطويل فى تقييم هذه الفلسفة (ويكفى أن تعتبر البرجماتية الحق أو الخير كالسلعة المطروحة فى الاسواق ، قيمتها لا تقوم فى ذاتها بل فى الثمن الذى يدفع فيها فعلا ، فالحق فيما يقول جيمس كورقة نقد تظل صالحة للتعامل حتى يثبت زيفها ! ولم يجد أصحاب البرجماتية غضاضة فى النظر الى الحق أو الخير كما ينظرون الى السلعة التى تطرح فى الاسواق ، هذه هى العقلية الامريكية فى الفلسفة وفى الاخلاق وفى السياسة وفى كل مجال) (١) .

ونضيف الى ذلك أن هذه الفلسفة كانت ملهمة للنظام الرأسمالى القائم على مبدأ المنافسة الحرة (٢) ثم ظهرت مساوئه عند التطبيق واستفحلت أخطاره التى تتضح ـ كما يرى الدكتور فؤاد زكريا فى ثلاثة :

---

(١) الفلسفة الخلقية : د. توفيق الطويل ص ٢٧٨

(٢) قصة الفلسفة : د. مراد وهبة ص ١٠٥ .

ويرى أن المنافسه الحرة غير المقيده تضر فى نهاية المرها بالمشروعات الخاصة ، الزمر الذى يؤدى الى ضرورة تكتلها واتخاذها على هيئة شركات كبرى وبنوك وغرف تجارية فتنتهى الرأسماليه الى مرحلة الاحتكار يتم فيها تقسيم العالم بين الاحتكارات الدولية الكبرى ، وتسمى هذه المرحلة بالامبريالية . وبظهور التطور للهيكل الاقتصادى للرأسماليه لزم تغيير فى الفكر الفلسفى البرجماتى الذى عبر عنه (ديوى) فى جمعه بين فكرة (العمل) كمقياس للحقيقة من البرجماتيه و (الروح المطلق) عند هيجل . يقول الدكتور وهبه (ولهذا فإن الاحتكارية فى حاجة الى ايديولوجية تروج لإزالة الفوارق والفواصل من جهة ، والى تجميد الأوضاع الأجتماعية من جهة أخرى وليس فى الأمكان توفير الإزالة والتجميد إلا بأن ترقى الأيديولوجية المطلوبة الى مستوى المطلق) ص ١٠٩ نفس المصدر .

ويقصد بأزالة الفوارق بين أصحاب المعتقد الواحد ثم تذويب الفوارق بين المعتقدات كلها . كذلك نرى أنه من أجل تحقيق الخطوة الأولى تشكلت منظمات دينية فى المسيحية بأسم (مجلس الكنائس العالمى) الذى أسس سنة ١٩٤٨ م (ص ١١٠ نفس المصدر) .

١ـ اللا أخلاقية بالرغم من التقيد ببعض الفضائل كالأمانة والانضباط والدقة ومراعاة المواعيد : ولكنها ـ كفضائل ـ ليست مقصودة لذاتها ولكنها تفيد الرأسمالى فى تعامله مع الغير . وتظهر (اللا أخلاقية) بوضوح فى أساليب الدعاية والاعلان .

٢ ـ الارتباط الوثيق بالحرب .

٣ ـ الانحرافات السلوكية وأظهرها الاجرام ، اذ أن فتح الباب على مصراعيه للمنافسة والصراعات من شأنه تمجيد العنف . ويتضح الانحراف بصورة أخرى فى شرب المسكرات والمخدرات وعقارات الهلوسة وغيرها . وتفسيرها انها ظاهرة هروبية من واقع العنف والمنافسة المريرة التى لا ترحم) (١) .

وفى النهاية لا نجد مفراً من اعادة فحص أخلاق المنفعة بكل اتجاهاتا لتقويمها ومقاومة آثارها لأننا نشاهد مع الاسف أنها زحفت الى مجتمعاتنا .

ومن الواضح عجز هذا المذهب عند كل فلاسفته عن استيعاب علاقات وروابط انسانية أبعد ما تكون عن تحقيق منفعة أو البحث عن تحقيق رغبات شخصية وأهداف مادية بل على النقيض ، تنبعث من حب التضحية والفداء بالوقت وانفس والمال ، كالمجاهدين فى سبيل الله كما نعرفه نحن معشر المسلمين ، وكذلك المؤتون حقوق المال من الزكاة والصدقات والاوقاف الخيرية وأعمال البر كلها ، أضف الى ذلك طاعة الابناء لآبائهم وأمهاتهم مهما كلفهم ذلك من تضحيات ، ولا ننسى العلاقة التى تربط الآباء والامهات بالابناء ، وصلات الارحام من الاخوة والاخوات والاقرباء

---

(١) الجوانب الفكرية فى مختلف النظم الأجتماعية : د. فؤاد زكريا ص ٤٦ ـ ٥٠
ط جامعة عين شمس سنة ١٩٧٢

نشرت جريدة الأهرام بعددها الصادر بتاريخ ٨ / ٣ / ٨١ ص ٢٢ تحت عنوان (صدق أو لا تصدق بأن تعرضت واحدة من كل ٤ أسر أمريكية سنة ١٩٨٤ لحادث سطو أو عنف ...!

كالخالات والعمات ، والتوصية بحسن الجوار ومعاونة الاصدقاء والزملاء ومشاركتهم في الاحزان والمصائب وتخفيف وقعها عليهم . كل هذه الاعمال تحكمها قيم معنوية ـ لا نفعية حسية ـ ترتقى بالانسان الى أعلى المراتب اذ تخلصه من أنانيته ومنافعه الخاصة وتندرج تحت أمر الله تعالى بالتعاون على البر والتقوى ، وكلها قيم معنوية مطلقة .

اين هذا من مظاهر الانهيار الأخلاقى فى المجتمع الأمريكى الذى أدار ظهره لأخلاقيات العفة والطهارة والفضيلة والوفاء والاخلاص ؟ وقد حذّرنا الدكتور مصطفى محمود فى مقال له من العدوى الا أخلاقيه على التقاليد والأعراف والبناء العائلى والأسرة والاجتماعى ، لأنه اذا انهدم البناء الأسرى والاجتماعى انهدم كل شئ[1] .

(ب) الأخلاق عند الفلاسفة الوضعيين

تحولت فلسفة الاخلاق عند الوضعيين الى علم واقعى يدرس العادات متأثرين بالمنهج الاستقرائى فى البحث العلمى ، ومن ثم تطلعوا الى اتباع هذا المنهج فى العلوم الانسانية وفى مقدمتها الاخلاق . وتحولت فلسفة الاخلاق عند الوضعيين الى علم واقعى يدرس العادات والاكتفاء بوصفها استنادا الى الملاحظة (وبهذا أصبح فرعا من علم الاجتماع الذى يؤملون فى اقامته علما واقعيا تجريبياً)[2] .

وكانت الاخلاق فى صورتها التقليدية تتجه الى الاطلاق ، وتجاوز نسبية الزمان والمكان لأنها وليدة الضمير الانسانى العام ، أو العقل البشرى كله . أما الوضعيون

---

(١) مقال بجريده (الأهرام) بتاريخ ٩/١٠/٩٣

ورصد ضمن الدلالات الهامة فى دارسه المجتمع هناك ان نجوم الذروة فى أمريكا الأن يشكلون ثلاثى العنف المطلق ، والجنس الفاحش ، والتخنث والشذوذ والعبث (ص ١٦)

(٢) الفلسفة الخلقية : د. توفيق الطويل ص ٢٧٨

فانهم يقصرون مهمة عالم الاخلاق على دراسة العادات والعرف والتقاليد والآداب العامة والمثل العليا الجماعية التى تعارفت عليها المجتمعات ... كذلك يرى الفلاسفة أن للاخلاق طابعاً عقلياً وأن الحقيقة الاخلاقية (واقعة ذهنية) ولكن دعاة المذهب الوضعى يرون انها ـ بخلاف ذلك ـ (ظاهرة موضوعية) يمكن ملاحظتها [١] .

١ـ أوجست كونت (١٨٥٧ م) :

وقد ظهر الاتجاه الاجتماعى فى عصر اضطرب فيه التفكير الاخلاقى ، وتملكت كونت الرغبة الملحة كغيره من المفكرين ، الرغبة فى الاصلاح والتعمير بعد الدمار الذى حلق بفرنسا بعد ثورتها المدمرة ، وهو الذى أنشأ الفلسفة الوضعية فى فرنسا [٢] . ويقول بارودى (ان الازمة المعنوية التى تكافح فيها مدنيتنا الغربية منذ ثلاثة قرون ، انما هى أزمة خلقية) [٣] .

لقد أطاحت الثورة الفرنسية بالنظام الاجتماعى ، ووجهت الى الديانة المسيحية ضربة قاصمة ، ورأى كونت انه من العبث البحث فى الديانة المسيحية عن أسس للأخلاق لعجزها فى رأيه عن متابعة خطى العلم ، واخذ يبحث عن اساس جديد وهو العلم الوضعى لكى يقيم عليه الاخلاق والدين [٤] ، انه رأى انه ينبغى على التفكير الفلسفى النظرى أن يتجه الى المشاكل الدينية والاجتماعية ، وكان يهتم اهتماماً شديداً بالامور الاجتماعية ، ثم العلم . فالخدمة التى ينتظرها كونت من

---

(١) مشكلة الفلسفة : د. زكريا ابراهيم ص ٢١٠ ـ ٢١١

(٢) الفلسفة الخلقية : د. توفيق الطويل ص ٢٦٢ ، ٢٧٨ .

(٣) المشكلة الأخلاقية والفكر المعاصر : بارودى ص ٣ ترجمة د. محمد غلاب ومراجعة د. ابراهيم بيومى مدكور ط الانجلو المصرية سنة ١٩٥٨ .

(٤) فلسفة اوجست كونت : دكتور قاسم صفحة (ك) .

الفلسفة هى أن تضع قواعد المجتمع الحديث بناء على أساس عقلى [١] ؟

وأخذ كونت يبذل جهده لإعادة تنظيم العقائد ، (أى لكى يستعيض عن العقيدة الموحى بها التى انتهت جذوتها الى الركود بعقيدة يقوم عليها البرهان) [٢] وبخلاف ذلك اعتقد ان العلوم الوضعية ستصبح أصلا للايمان المستند الى البرهان وكلما تقدم الانسان فى الدراسة الوضعية للظواهر فانه سيترك بالتدريج التفسيرات اللاهوتية والميتافيزيقية ، لأنه سيتضح له أن الظواهر خاضعة للقوانين . فالمعرفة الحقيقية تنصب على الظواهر وقوانينها (وفى جملة القول ، ستصبح الفلسفة وضعية بالضرورة متى أصبح العلم بأسره وضعياً) [٣] .

وقد تطلع واضع الفلسفة الوضعية الى تأسيس علم الاجتماع ، أو ما سماه (علم الطبيعة الاجتماعية) الذى سيقضى على سبب وجود اللاهوت والميتافيزيقيا ، وييسر الانتقال من العلم الوضعى الى الفلسفة الوضعية فتتحقق بذلك وحدة العقل فيؤدى ذلك الى الانسجام الخلقى والدينى للانسانية [٤] .

ويتصل انشاء هذا العلم بالقانون المسمى بقانون الحالات الثلاث لانه متى ثبت هذا القانون • فان علم الطبيعة الاجتماعية لا يظل مجرد فكرة فلسفية بل يصبح علماً وضعياً) [٥] .

وقد حدد كونت صيغة هذا القانون بطريقتين :

الطريقة الأولى حدد الصيغة كالآتى (بناء على طبيعة العقل الانسانى نفسها لابد لكل فرع من فروع معلوماتنا من المرور فى تطوره بثلاث حالات نظرية مختلفة متتابعة الحالة اللاهوتية ، والحالة الميتافيزقية أو المجردة ، وأخيراً الحالة

---

(١) نفسه ص ٣ (٢) فلسفة اوجست كونت : ليفى بريل ص ٢٢ ترجمة د. قاسم .
(٣) نفسة ص ٣١ (٤) نفسه ص ٣٣ . (٥) نفسة ص ٣٤

العلمـية أو الوضعية) .

ثم اضاف فى كتابه (دروس الفلسفة الوضعية) الصيغة التالية : (وبعبارة أخرى يستخدم العقل الانسانى بطبيعته ، فى كل بحث من بحوثه ، ثلاث طرق فلسفية متتابعة يختلف طابعها اختلافا جوهرياً بل قد يكون مضاداً ـ وهى أولا الطريقة اللاهوتية ، ثم الطريقة الميتافيزيقية ، وأخيراً الطريقة الوضعية . ومن هنا تنشأ ثلاثة أنواع من الفلسفة ، أو من المذاهب الفكرية العامة عن مجموع الظواهر . وتتنافى هذه الانواع الثلاثة بعضها مع بعض . والفلسفة الاولى نقطة بدء ضرورية للذكاء الانسانى . وأما الثالثة فهى حالته النهائية الثابتة واما الثانية فقد قدر لها ان تستخدم فقط كمرحلة انتقال) [(١)] .

اقام كونت فلسفته على قانون الاطوار الثلاثة ـ ولكنه تعرض لهجمات شديدة كما سنوضح بعد قليل ـ الا ان النزعة العلمية لفلسفته كان لها اثرها على نظريته فى الاخلاق . وأصبح علم الاخلاق عنده فرعا من فروع علم الاجتماع الذى اعتبر مهمته ملاحظة الظواهر العقلية والخلقية وجعل مهمة علم الاخلاق تقوية العاطفة الاجتماعية (وجعله علماً مستقلا يضيفه الى العلوم الستة التى تتألف منها الفلسفة الوضعية الجديدة وهى الرياضة والفلك والطبيعة والكيمياء والحياة والاجتماع) [(٢)] .

نزعته الاخلاقية :

لم يقبل كونت مذهب المنفعة أو مذهب الواجب لان الاول يقر الأثرة وينكر الغيرية الكامنة فى طبائع البشر ، والثانى يقوم على أسس ميتافيزيقية فيستحيل بحثها بالمنهج العلمى كما لم يقتنع ايضاً بمذهب العاطفة بالمدرسة الاسكتلندية . وفى

---

(١) نفسه ص ٣٥ .

(٢) الفلسفة الخلقية : د. توفيق الطويل ص ٢٦٧ .

نظرته للاخلاق المسيحية أعجبه اتجاهها الى الحض على الايثار والحث على تقديم العون الى المحتاج والضعيف وتنفيرها من الأثرة التى تعد أم الرذائل ، ولكنه فى الوقت نفس أخذ عليها التعثر فى مسايرة التقدم العلمى ، فانصرف عن اتخاذها اساساً للاخلاق الجديدة [١] .

وبعد ان استبعد كونت اساليب كل من التفكير الميتافيزيقى واللاهوتى ، استبدل بهما مناهج التفكير العلمى أسوة بالعلماء الطبيعيين ، فاتجه الى (وضع قوانين تفسير الظواهر اللا أخلاقية توطئة للسيطرة عليها والافادة منها فى دنيانا الحاضرة) [٢] .

والخصائص الرئيسية للاخلاق الوضعية كما نظر اليها كونت تتحدد وفقاً لما يلى :-

أولاً - أنها تقوم على أساس العلم الوضعى وتحقق صفاته ، ولهذا فهى حقيقية أى تقوم على الملاحظة لا على الخيال وتنظر الى الانسان كما هو كائن بالفعل لا على النحو الذى يتخيل أن يوجد عليه .

ثانياً - أن الاخلاق نسبية ، وتستمد نسبيتها من نسبية المعرفة وليس لها طابع مطلق كما كان يرى كانط .

وقد ازعجت هذه الفكرة الكثيرين لانهم رأوا ان معناها نفى الاخلاق برمتها فإما ان يكون الخير مطلقاً أو ينعدم التمييز بين الخير والشر ، ولكن كونت لم يشاركهم هذا الانزعاج اذ يرى ان العقل البشرى كثيراً ماتمكن من ان يعيش على حقائق نسبية (وسيأتى الوقت الذى يصبح فيه مثل هذا الحل

---

(١) نفسة ص ٢٦٤ .

(٢) نفسه ص ٢٦٥ .

مقبـولا بالنسبـة الى الاخلاق) [1] .

ثالثاً : تتحدد المشكلة الأخلاقية فى أن يبذل الانسان قصارى جهده لكى يغلب غرائز المودّة بين الناس على دوافع الأثرة ، أى بعبارة أخرى أن تتغلب النزعة الاجتماعية على الشخصية الفردية [2] .

رابعاً : ومع تغلب العاطفة الاجتماعية بشكل مباشر فى المذهب الاخلاقى لكونت ، فانه يؤكد وجود الميول (الغيرية) وجودا فطريا فى النفس البشرية ، ويسمى هذه الميول (المودّة) ، وهو تعبير مستمد من المدرسة الاسكتلاندية . ويقول كونت (انك اذا قررت هذه العواطف الغيرية ظهرت الاخلاق ، واذا انتزعتها اختفت الاخلاق)[3] .

ويتضح تأثره باتباع المدرسة الاسكتلاندية فى الاتجاه العاطفى ، الا انه يذهب الى انهم اكتفوا بتقرير وجود هذه العواطف وأهملوا البحث عن الكيفية التى تنمو بها الاخلاق ، فالاخلاق عندهم ذات طابع سطحى وتنقصها الدقة المنهجية ، ولكى تفسر الاخلاق الانسانية تفسيراً كاملاً ينبغى ان يضاف (الى العناصر ذات الصبغة العاطفية عنصراً ذات صفة عقلية) [4] . معنى ذلك ان الحاسة الخلقية تنشأ بسبب عواطف المودّة بين الناس وكما يحدث أيضاً لدى كثير من الحيوانات ، فهى عواطف تلقائية تتحول الى حالات وجدانية عائلية واجتماعية . فالاخلاق غريزية طبقاً لجذورها الحيوانية وتصبح عقلية فى تطورها الانسانى [5] .

وقد تعرضت فلسفة كونت الوضعية لألوان من النقد والمعارضة استهدفت قانون

---

(١) فلسفة كونت : بريل ص ٣٠٠ ـ ٣٠١ .
(٢) نفسه ص ٣٠٣ .
(٣) فلسفة اوجست كونت : ليفى بريل ص ٣٠٨ .
(٤) نفسه ص ٣٠٩ .
(٥) نفسه ص ٣١٠ .

الاطوار الثلاثة الذى قسم به تاريخ الانسانية فى تعسف واضح ، فقد ثبت أن الصناعات اخترعت فى عصر ما قبل التاريخ وبدء العصر التاريخى ، كما وجدت مشاهد فلكية وأنواع من العلوم كهندسة اقليدس وطب بقراط وطبيعيات أرسطو فى الدور الذى عده دوراً فلسفيا ، فاذا انتقلنا الى الطور الوضعى وهو العصر الحديث فاننا نعثر على كثير من دعاة الاخلاق والدين والتأمل الميتافيزيقى بخلاف ما كان يظن كونت [١] .

فالحالات الثلاث لا تمثل ادواراً متعاقبة بل تيارات متعاصرة ، بل انها متعاصرة متجاورة فى النفس الفردية ، فقد نفسر الحوادث العادية بأسبابها ، ومنا من يفسر الاحداث الخارقة بالقضاء والقدر أو سبب غيبى مجهول . ويذهب الاستاذ الدكتور دراز الى أبعد من هذا فيقرر أن النظرة الوقوعية تقع فى البداية وتمثل مرحلة الطفولة النفسية لان مبعثها الحاجة العاجلة وضرورة الحياة اليومية ، وانها وظيفة الحس لا العقل . ثم تنبثق بعدها نظرة التعليل بالمعانى العامة ، وهى مرحلة النضج والكمال .

اما النظرة الروحية أو الدينية التى تخيل كونت انها فى أول المراحل ، فهى فى الواقع تأتى فى آخرها حيث لا تولد فى النفس الا بعد اتساع افقها ، حيث تتجاوز ظهر الكون الى ما ورائه .

وهكذا ينقلب ترتيب كونت الخيالى رأساً على عقب ، لأن الاوضاع الطبيعية للحاجات النفسية تترتب كالآتى ـ حاجة الحس فحاجة العقل فحاجة الروح (على أن الذى يعنينا هنا ليس هو الوضع التقويمى لكل واحدة من هذه النزعات ، وانما هو دخولها جميعاً فى كيان النفس الانسانية ، فكما اننا لا نجد امارة واحدة تدل على قرب زوال النزعة الاستقرائية أو النزعة التعليلية ، كذلك لا نرى امارة واحدة

---

(١) أسس الفلسفة : د. توفيق الطويل ص ١٨٠ ـ ١٨١ مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٥ م .

تشير ان فكرة التدين ستزول على الارض قبل أن يزول الانسان) [1] .

٢ ـ اميل دوركايم (١٨٥٨ ـ ١٩١٧ م)

تابع دوركايم أوجست كونت فى فلسفته الوضعية ، وجعل علم الاجتماع محور دراساته مستهدفا اقامة الاجتماع علماً واقعياً مستقلا ، فالظاهرة الاجتماعية تؤثر فى الفرد وتوجه سلوكه على غير ارادة منه ، بل لا يمكنه مقاومة تأثيرها ، وهى تخضع لقوانين علمية كالظواهر الطبيعية ، وتنشأ بنشأة المجتمع لانها من صنع العقل الجمعى ولها صفة الالزام كما انها تفرض نفسها على الافراد .

وفى اقامة دوركايم للمذهب الاخلاقى ، جعل القيم الاخلاقية ومثلها العليا كالظواهر الاجتماعية ، فهى وليدة المجتمع الناشئة عن اجتماع الناس بعضهم ببعض ، ودور علم الاخلاق هو دراستها كما هى بالفعل مرتبطة بالزمان والمكان .

واذا ما اصطدمت الواجبات الاجتماعية بعواطف الفرد ، فانه كثيراً ما يتغاضى عن مشاعره الخاصة ويخضع للمثل الاجتماعية العليا ، اما اذا تمرد على قيم المجتمع فانه يتعرض للسخط والعقوبة ، وللعقوبة مظهران : إحداهما مادى هو القوانين الوضعية ، والثانية ادبية تتمثل فى سلطة الرأى العام (وبهذا المعنى ذهب دوركايم الى ان الضمير يعكس بيئة الجماعة وتلتقى فيه تعاليمها ، فالانسان ابن عصره ووليد بيئته) [2] .

واما الدين فهو كالاجتماع ، قديم ، بدأت صورته الاولى بتصور الناس قوة لا شخصية متفرقة فى الاشياء تمنحها مالها من قوة ثم تشخصت فى . (الطوطم) اولا ثم فى الاله الواحد واصبحت لنا فكرة الله ، وهذه الفكرة فى زعمه (ليست

---

(١) الدين : د. محمد عبد الله دراز ص ٨٩ . دار القلم ـ الكويت ١٣٩٠هـ ـ ١٩٧٠ م .

(٢) الفلسفة الخلقية : د. توفيق الطويل ص ٢٧٠ .

مستفادة مما نشعر به من قوة باطنة ولا مكتسبة بالاستدلال ، ولكنها اجتماعية . والدين أقوى مظاهر الحياة الاجتماعية واعمقها اليه ترجع الصور التى انتظمت بها المعارف الانسانية ، اذ انه الينبوع الذى تفيض منه القوة الجسمية والقوة المعنوية فى افعال الحياة المشتركة) [1] .

وقد وجهت الى دوركايم ـ كسلفة ـ عدة انتقادات ، منها انه اذا كانت الاخلاق متغيرة فكيف نعلل ما يبدو لبعضها من ضرورة عند جميع الكائنات ؟

اما عن افتراض الحياة البدائية كمظهر اول للحياة الاجتماعية فإنه يمكن القول بأنها أبسط ما وصل الى علمنا من حالات ، لا إنها الحاله الأولى تاريخيا (فالاجتماعيون يعدون البسيط قديماً وليس هذا بالضرورى) .

ولعل أشد صور النقد وأقواها هى التى يعبر عنها استاذنا الدكتور محمود قاسم فى مقدمة كتاب (مبادئ علم الاجتماع الدينى لروجيه باستيد) ، فقد كال لدوركايم أشد الضربات التى كشفت عن أخطاء منهجيه وقع فيها هذا الفليسوف الاجتماعى الفرنسى .

منها تعسفه فى تفسير الحياة الدينية بقانون الاحوال الثلاثة لأوجست كونت لان مؤدى النظرية تقول (بأن المجتمع يعبد نفسه ، وليست هذه النظرية الا صورة مشوهة من ديانة الانسانية التى نبتت فى خيال مريض) [2] ، ومنها انكاره شخصية الفرد وجعله دمية فى يد المجتمع يخضع لقبول ارائه وافكاره وعقائده ، وينزع عنه لعاطفة الدينية لانها تنشأ طبقاً للآراء والعواطف الاجتماعية (وفى هذه النظرية العلمية

---

(١) تاريخ الفلسفة الحديثة : يوسف كرم ط دار المعارف ١٩٦٩ م .

(٢) مقدمة كتاب روجيه باستيد مبادئ علم الاجتماع الدينى للدكتور محمود قاسم ص ٥ (ترجمته) ط الانجلو المصرية

المزعومة ما فيها من انكار وجود للنبوات والرسالات والعبقريات) [١] .

ويقرر استاذنا ان ماحدث بالنسبة للعقيدة الدينية هو العكس فقد كانت عقيدة التوحيد خالصة من كل شوب ، ثم تطرقت اليها الخرافات الاجتماعية ، فالتوحيد هو دين الفطرة ، وان البدائي أقرب ما يكون الى فكرة التنزيه ، وهذه النتيجة اهتدى اليها علماء الاجناس ، ولقد توالى الانبياء والرسل عليهم السلام لتطهير العقائد من الشرك وما يتطرق الى الحياة الدينية من المسخ والتشوية بسبب الاوهام الاجتماعية .

واذا خصصنا الاسلام بالحديث ، فانه لا يوجد فى الاسلام وظائف كهنوتية أو سلطة دينية أو غير ذلك من الامور التى تعبر عن سلطة اجتماعية (وهذا يرجع الى ان الاسلام يقرر ان المسئولية الدينية فردية ، وان الصلة بين الفرد وربه لا تحتاج الى وساطة اجتماعية) [٢] .

٣ ـ ليفى بريل (١٨٩٧ـ ١٩٣٩ م) :

ناصر بريل المذهب الاجتماعى فى الاخلاق ، حيث نظر الى انواع السلوك الانسانى كظواهر طبيعية فحسب ، منتقداً فلسفة الاخلاق ، حيث اقترح علماً للاخلاق يحل محلها . ويستند فى نقده الى ثلاثة أمور :

الاول ـ ان فلسفة الاخلاق ليست علماً معياريا يحدد ما ينبغى ان تصبح عليه الافعال الانسانية ، لان العلم هو عبارة عن دراسة وصفية للظواهر وقوانينها [٣] ، فيتساءل (أليس هناك تناقض بين هاتين الكلمتين الاصطلاحيتين ؟ وهل توجد حقيقة علوم معيارية ؟) [٤] .

---

(١) نفسه ص ٦ . (٢) نفسة ص ٧ ـ ٨

(٣) تاريخ الفلسفة الحديثة : يوسف كريم ص ٤٣٥ .

(٤) الأخلاق وعلم العادات الأخلاقية : ليفى بريل ص٦٢

ترجمة د. محمود قاسم ط الحلبى ١٣٣٧هـ ١٩٥٣ م .

الثاني ـ انه لا يوجد صلة منطقية بين قواعد السلوك وبين المبادئ التى يستنبطها الفلاسفة من هذه القواعد ، بدليل ان الفلاسفة مختلفون فى المبادئ متفقون فى قواعد السلوك .

الثالث ـ يضع الفلاسفة قضيتين لا يمكن قبولهما ـ الاولى افتراض وحدة الطبيعة الانسانية الفردية والاجتماعية بينما الملاحظ ان التباين شديد جداً بين الناس افراداً وجماعات . والقضية الثانية جعل الضمير امر مطلق بينما هو نتاج الايام ووليد التجارب والعادات كما يؤكد علم الاجتماع [1] .

وقد سلك ليفى بريل مسلك سابقيه ـ أى كل من كونت ودوركايم ـ فوحد بين الحقيقة الطبيعية والحقيقة الاجتماعية فهما يتفقان من حيث كونهما موضوعيين ، فيقول : ان الفكرة الجديدة عن العلاقة بين التطبيق العملى والنظرية فى الاخلاق تتضمن ان هناك حقيقة اجتماعية موضوعية ، كما ان هناك حقيقة طبيعية موضوعية ، وانه يجب على الانسان اذا كان عاقلا ان يسلك تجاه الحقيقة الاولى نفس المسلك الذى يتخذه حيال الحقيقة الثانية ، ومعنى ذلك انه يجب عليه ان يبذل جهده لمعرفة قوانينها ، حتى يسيطر عليها ما استطاع الى ذلك سبيلاً) [2]

إن شرط التأثير فى القوانين الاجتماعية التى تسيطر على الظواهر الاخلاقية هو معرفة هذه القوانين أولا ، وهذا هو الفن الاخلاقى العقلى الذى يعده السبيل الوحيد لتحسين الحياة الاجتماعية الاخلاقية [3] .

ونظراً للمراحل الطويلة التى ينبغى ان يجتازها هذا العلم ، فانه ربما انقضت عدة قرون قبل ان يكتمل ، أو قبل ان يكون ذا تأثير فعال فى الحياة الاجتماعية) [4] .

---

(١) تاريخ الفلسفة الحديثة : يوسف كرم ص ٣٤٦ .

(٢) الأخلاق وعلم العادات : ليفى بريل ص ٧٨ ترجمة د. قاسم ط الحلبى ١٩٥٢ م .

(٣) مقدمة كتاب ليفى بريل : د. محمود قاسم .

(٤) نفسه صفحة ك .

ومع اقراره بأن العلوم الاجتماعية مازالت شديدة النقص وانها فى مراحلها الاولى ، الا انها ستوقفنا على (الطبيعة الاجتماعية) واهميتها ، وسيكون لهـا آثارها الاسمى من (العلم الخلقى) ومن (مملكة الغايات) ومن (مدينة الله) (أى اسمى من تلك الافكار الخيالية المكررة التى تناقلها علماء اللاهوت والفلاسفة) [1] .

ولا يخفى من هذه العبارة افراطه فى الخيال (وكأنه نسى أو كأنه يتناسى ان الصلة بين العلم والاخلاق ليست بالقدر الذى يصوره لنا) [2] .

وقد هبت فى وجه بريل موجة من المعارضة العاتية تقوض دعائم نظرياته من أساسها ، وربما كان اخفها شأناً هو انه لم يكن مبتكراً لها ، وانما كان مردداً لأقوال الحسّيين . من عهد بعيد أيدها بشواهد مستمدة من مذكرات المبشرين والسياح وهو جالس الى مكتبه)[3] .

ان الجانب الصحيح فى علم العادات الذى يقترحه بريل صحيح من حيث المنهج الذى يضعه لبحث النظم الاجتماعية المتصلة بالزواج والارث وتنظيم العمل ومنع الجرائم الـخ ..... فالبحث قد يدلنا على تاريخ وضعها ومدى تغيرها حسب اختلاف الازمنة والجنسيات والمواطن ، فيصبح من الممكن تصنيفها وترتيبها ، أى ان هذا العمل يدخل فى دائرة الامكان العلمية [4] ومع الصعوبات الجمة التى تعترضه الا انه لكى يعنى بجماعة ما عناية علمية ينبغى أن تتوافر الشروط التالية :ـ

١ ـ الحال التى ينبغى ان تكون عليها جماعة من الجماعات حتى يقال

---

(١) الأخلاق وعلم العادات : ليفى بريل ص ٣٩٤ .

(٢) تعليقة رقم ١ ص ٣٩٤ لكتاب ليفى بريل : د. قاسم

(٣) تاريخ الفلسفة الحديثة : يوسف كريم ص ٣٤٦ .

(٤) الاخلاق فى الفلسفة الحديثة : اندريه كرسون ص ١٢٨ .

انها جماعة صحيحة .

٢ ـ فيم تفترق هذه الجماعة عن الجماعة الصحيحة ؟

٣ ـ ما هو العلاج حتى نردها الى عالم الصحة ؟ [١] .

وينبغى حل هذه المشاكل أولا قبل تطبيق الفن التى يقترحه ليفى بريل .

فإذا قارنا هذا التشخيص للجماعة بما يتم فى علم الطب مثلاً عند قيام الطبيب بتشخيص حالة مريض ، فالامر يبدو مختلفاً تماما ، لان مهمتة تنحصر فى معرفة الجسم الحى العادى المتزن أولا ، ثم معرفة ما هو مخالف فى جسد المريض ومعرفة الدواء الذى يعيده الى اتزانه وصحته ٠ ان الكائن العادى هنا فى الحقيقة ممكن التحديد وعمل الاعضاء وتوازنها أمر يدركه العقل وليس موضوع جدال) ومع ان المهمة صعبة الا انها ليست مستحيلة كالامر فى حالة تشخيص أحوال مجتمع من المجتماعات كما بينا آنفاً [٢] .

ولنا أن نتساءل أيضاً ـ هل معرفة منبع المشاعر الاخلاقية كافية لامدادنا بما نحن بحاجة اليه من القواعد الأخلاقية ، اذا سلمنا بأن المعرفة بهذا المنبع ستكون كافية ؟ . اذ هنا تكمن المشكلة الاخلاقية ، ولن يكون بوسع الاخلاقيين الاجتماعيين الاجابة على السؤال الذى يسأله الفرد فى تلهف (وما الذى يجب أن أعمله لأكون على سنن الاخلاق ؟ وأى موقف أقفه من الماضى ؟ وأى قرار حاسم اسير عليه فى الحال ؟) [٣]

أى بعبارة أخرى ، انه لابد من مبادئ يمكن الاستناد اليها عند الحاجة وهذه الضرورة هى التى ألجأت الاخلاقيين من اصحاب المذاهب المأثورة الى وضع المبادئ

(١) نفسه ص ١٣٢ . (٢) نفسه ص ١٣١ .

(٣) الاخلاق فى الفلسفة الحديثة : اندريه كرسون ص ١٣٩ .

الاخلاقية [1] ، بينما لسان الحال المذهب عند امثال ليفي بريل لا يقدم لنا جواباً بل يدعونا الى الاضطراب وكأنه يقول : ان الاجيال المقبلة سوف تعيش في عصر بلغ فيه علم العادات مبلغ الكفاية من التقدم . انهم سيكونون في احوال كافية لكي يميزوا بجلاء ما كان يجب ان يتبع في هذه الظروف الحاضرة . أما انتم يا أبناء هذا الزمان فما انتم سوى بواكير زمن لايزال هو أيضاً في دور طفولته . انكم لن تقدروا على ان تعرفوا معرفة علمية ما هو الخير لكم فيما يجد لكم من احوالكم . اعملوا ، اذن ، ما يبدو لكم انه الاحسن حسب ما توحيه اليه طباعكم ، ومأثور تعاليمكم الاخلاقية ، خطأً كان ذلك أم صواباً على قدر ما يتيحه الحظ) [2] .

ان الاستعدادات الاخلاقية في الانسان لا يمكن تفسيرها بواسطة هذه الدراسات المقترحة لعلم العادات الاجتماعية ، بل ربما ادت هذه الدراسات الى هدم مشاعرنا الاخلاقية واتلافها ، والدليل على ذلك ان أصل المشاعر الاخلاقية بفطرتها تثور ضد الزنا بالمحارم ، دون حاجة الى ارجاع أصلها الى معتقدات البدائيين البعيدة عن المنطق بل البالغة احياناً غاية السخافة ، وهنا يتساءل اندريه كرسون (فهل تكون هذه المعرفة مما يساعدني على تقوية كراهاتي النبيلة ضد الزنا ، ومما يساعدني على السير سيرة حميدة متزنة ؟ !) [3] .

* * *

---

(1) نفسه ص ١٣٠ .

(2) نفسه ص ١٣٠ .

(3) نفسه ص ١٣١ .

اخلاق الضمير عند بطلر

تمهيد :

كثير ما تنبثق أفكار وتظهر مذاهب كرد فعل لمذاهب سائدة . واذا طبقنا هذه القاعدة على مذهب الضمير فى الاخلاق ، جاز لنا القول بأنه كان معدلا ومعارضاً للمذهب الاخلاقى السائد فى عصره المعروف بمذهب الحاسة الخلقية : ويرى أتباع هذا المذهب أن الحواس الخمس فى الانسان مهمتها ادراك أغراض المحسوسات ، ولكن الحاسة الخلقية تتميز عنها بأنها تدرك خيرية الافعال وشريتها . وهى قوة باطنة فطرية للانسان دون الحيوان ، وهى تنمو بالتربية والمران ، وتضعف بالاهمال وتذبل فى البيئة الفاسدة [١] .

وجاء بطلر ناقداً لهذا المذهب إذ رأى قصور الحاسة الأخلقية عن تفسير المقومات الخلاقية ، فحاول معالجة هذا القصور بمذهب جديد وضعه عن (الضمير) .

ولكنه يتفق مع اتباع هذا المذهب فى رد الاخلاقية الى باطن الذات [٢] كما شاركهم فى معارضته لمذهب اللذة والمنفعة ، اذ رأى أن الانسان كثيراً ما يتصرف بدوافع لا ترمى « الى تحقيق منفعته أو لذاته ، بل ، ان الافعال الانسانية تقصد الى تحقيق غاية أسمى من سعادة الفردفإننا نعجب عادة من أهل الغيرية والاريحية ، وننفر من أولئك الذين يبالغون فى القلق على سلامتهم) [٣] .

كما كان رده حاسماً على هوبز صاحب التفسير الانانى فى مشاركة المصابين بالكوارث ففيما يتصل برأيه الانسانى عن معنى الشفقة ، فقد أقر بطلر وجود النزعات الغيرية مؤكداً اتفاقهما مع نوازع الاثرة حيث جعل الشفقة تقترن بثلاث

---

(١) الفلسفة الخلقية : د. توفيق الطويل ص ١٦٥ .

(٢) نفسه ص ١٩٢ .　　　(٣) نفسه ص ١٧٩ .

حالات عقلية وهى : شعور بالغبطة ناجم عن المقارنة بيننا وبين المصاب ، وقلق على انفسنا ، ثم تعاطف يختلف عن الشعورين السابقين وهو عنصر فريد فى التجربة الانسانية[١] .

وهكذا نجده يوجه ضربات قاصمة لمذاهب اللذيين والانانيين جميعاً حيث أكد وجود دوافع طبيعية نزيهة لا تهدف الى تحقيق لذة فردية أو منفعة شخصية ، ومثال ذلك من ينفق بعض ماله على المحتاجين يسعده ما أنفقه عليهم أكثر مما يسعده ما انفقه على نفسه ، كما أن انتقام المرء لنفسه قد يضر احياناً بصاحبه كما يضر بالمجنى عليه ، وهنا نرى الاثرة والايثار يتعانقان ويتشابكان ، مما يجعل من العسير رد الافعال الانسانية الى واحد منهما بعينه (ويؤكد بطلر أن نمو الايثار فى نفوس الناس بحيث يتوخون خدمة غيرهم يسعد العالم الذى تشقيه الانانية . وما يقال فى الافراد ينسحب على الشعوب ، فان كثيراً منها حيث يلتمس سعادته وينشد رفاهيته يسئ الى جيرانه ويوقع الضرر بمصالحهم ، واذا صح هذا جاز القول بأن السعادة والفضيلة كثيراً ما تلتقيان) [٢] .

وكان بطلر رجل دين يؤمن بالنصرانية وتعاليمها ، ومن هنا كانت معارضته أيضاً لنزعات الالحاد والشك ، رغبة منه فى توكيد تعاليم الدين ، وظهرت فلسفته الخلقية فى مواعظه حيث شغل وظيفة أسقف . ومع انه حاول ان يفلسف الاخلاق ويقيمها على أسس سيكولوجية ، الا انه كان متأثراً باللاهوت فى مظاهر ثلاثة :

أولا : ان العالم من صنع إله معنىّ بمخلوقاته والطبيعة البشرية تنزع الى تحقيق الغاية التى هيئت لها .

ثانياً : أن أوامر الضمير هو صوت الله ، وأنها تمثل قوانين العدالة الإلهية فجعل

(١) نفسه ص ١٩٨ .   (٢) الفلسفة الخلقية : د. توفيق الطويل ص ١١٩ .

بذلك الاخلاقية استجابة لصوت الله .

ثالثاً : ان الحياة الاخرى كفيلة بمعالجة النقص البادى فى حياتنا الحاضرة [1] .

ولكن ما دور الضمير فى حياتنا ؟ هذا ما سيتضح اذا ما عرفنا الصلة بين الطبيعة البشرية والضمير :

الطبيعة البشرية والضمير :

بالنظر الى الانسان من بين سائر الموجودات ، فانه يمكن اعتباره فاعلا عاقلا حرا اذ تصدر افعاله العقلية والارادية لتحقيق غاية ، أو بلوغ قيمة أو أداء واجب . وباختصار فإن القوة المحركة للإنسان هو التوتر الذى يشعر به الانسان بين ما يملكه وما يبغى الحصول عليه ، ان هذا (التوتر) هو الذى أعطى للانسان المعنى الاخلاقى ، اذ انه يراقب اهواءه ونزعاته وميوله ويدفعه الى مجاهدة غرائزه ، وانفعالاته ، ودوافعه الطبيعية ، ويتم ذلك بواسطة (الضمير) اذ أنه فى صميمه (ضرب من الرقابة على نشاطنا العادى التلقائى) [2] .

وفى تحليل بطلر للطبيعة البشرية والعناصر المكونة لها ، فإنه يقسم هذه الطبيعة الى عناصر ثلاثة مؤلفة من :ـــ

أولا : الاهواء والمشاعر والشهوات وهى الدوافع التى تظهر فى حالات الغضب والحسد والجوع ... الخ ، وكل من هذه المشاعر يتجه الى الاشباع دون التفات الى نزوع غيره من الدوافع .

ثانياً : هناك باعثان آخران هما حب الذات وينزع لتحقيق الخير لصاحبه . والايثار أو الاريحية التى تهدف الى تحقيق سعادة الآخرين .

(١) نفسه ص ١٩٣ و ١٩٤ و ١٩٥ .

(٢) مبادئ الفلسفة والاخلاق : د. زكريا ابراهيم ص ١١٢ مكتبة مصر بالفجاله .

ثالثاً : الضمير وهو المبدأ الاسمى الذى يسود باقى العناصر [1] .

والضمير ملكة عليا مغروسة فى طباع البشر ، وهو واحد فى الناس جميعاً وملزم لهم اذ لا يهديهم فقط للطريق السوى ، بل يلزمهم على ذلك أيضاً ، وله وظيفتان :

الأولى : التروى والتبصر عند تقييم الافعال الانسانية ، والتمييز بين الخير والشر والنافع والضار ، وهو يتريث حتى يعرف بواعث الافعال وملابساته فيستطيع التمييز بين تصرف المعتوه وتصرف العاقل ، وسلوك الراشد وسلوك الطفل ، كما أنه لا يغفل فى احكامه مسألة الجزاء والاستحقاق

والوظيفة الثانية : هى نفوذه وسلطانه على الانسان ، فمع أنه ملكة تعقل وتأمل ، الا انه ، مع كفالة حرية الانسان فى التصرف يميل الى الخير ويغرى بفعله ، ويضيق بالشر وينفر من اقترافه ، وفى طاعته راحة وطمأنينه وفى عصيانه اثارة للقلق والضيق والانسان فى الحالين حر فيما يأتى أو يتجنب من افعال) [2] .

وللضمير قيمة مطلقة بالرغم من محاولات التجريبيين والاجتماعيين الذين يحشدون النماذج الدالة فى رأيهم على اختلاف الشعوب . اذ لابد من وجود عنصر اخلاقى مشترك بين البشر ، وحسبنا أن نلقى نظرة على معظم قواعد البشر الاخلاقية ، لكى نتحقق من أن الانسان فى كل زمان ومكان قد أعلى من شأن الشجاعة ، ووضع أبطاله موضع التكريم والاجلال ، ودعا الى احترام حقوق الغير ، ورفع الى مصاف الفضائل خصالاً كالصدق والسخاء والاريحية والشهامة ونبل النفس ... الخ) [3] .

---

(١) الفلسفة الخلقية : د. توفيق الطويل ص ١٩٦ . (٢) نفسه ص ٢٠٠ و ٢١٠ .

(٣) مبادئ الفلسفة والاخلاق : د. ذكريا ابراهيم ص ١٥٣ .

نقد المذهب :

ولقد وجه الى مذهب بطلر مآخذ تتصل بغموض جانب (التعقل فى الضمير) كقوة عقلية دراكة (أو مبدأ مفكر عاقل) ، اذ لم يميز بين أوامر الضمير ونداء الرغبة ، وقد تختلط أوامره بالعرف والعادات الاجتماعية فى البيئة التى يعيش فيها الفرد [1] .

ومن الحق التساؤل هنا (اليس واضحا ما يحدث لنا غالباً من أن تعمى العادات ضميرنا أو تضلله الاوهام أو تتسلط عليه المنفعة وأن تتحدث الينا العاطفة أحياناً متخفية فى ثوب العقل ومتقلدة بلغته) ؟ [2] .

ونرى انه لا خلاص من هذا الغموض والخلط الا بتحديد أكثر دقة لاجهزة الادراك الانسانى أولاً ، ثم بيان الاوامر والنواهى التى تضبط السلوك الاخلاقى على وجه الدقة ، أى تعرفه بما هو (حلال) وما هو (حرام) ثانياً .

ولا يتحقق ذلك الا فى دائرة اجتهادات علماء الاسلام الذين برعوا فى الغوص فى أعماق النفس البشرية وحذروا من آفاتها ، وهذا ما لم يتوفر لغيرهم .

ولكى يتضح لنا صحة ما ذهبنا اليه ، سنلقى نظرة خاطفة على ثمرة اجتهادات أحد علماء المسلمين فى مجال علم النفس الأخلاقى .

وقبل الخوض فيما نحن بصدده ، سنضع أمام القارئ وصفا موجزاً لمذهب بطلر ورد فى (الموسوعة الفلسفية المختصرة) حيث قال كاتبها :

(لعل أجدر سمات فكره الأخلاقى بالبقاء هى ذلك العدد الكبير من التحليلات

---

(١) الفلسفة الخلقية : د. توفيق الطويل ص ٢٠٥ .

(٢) دستور الاخلاق فى القرآن : د. دراز ص ٤٠٤ .

البارعة التى يتألف منها مذهبه فى علم النفس الاخلاقى) [1] .

ان من كتب هذا الكلام لم يطلع على تحليلات علماء المسلمين الاخلاقيين فيما سماه (بعلم النفس الاخلاقى) اذ نفخر بأن لدينا تراثاً ضخماً يحتاج الى مجموعات من الباحثين لقراءته وتصنيفه واستخلاص كل ما هو بديع وأصيل ومفيد للإنسان مهما كان زمنه وعصره .

إن مجرد الاطلاع على اراء عالم واحد من علمائنا ـ كما سيأتى ـ يكفى لفتح نافذة صغيرة على هذا التراث الثرى الذى يعد كنزاً لم نعرف بعد كيف نستفيد منه ونوظفه فى حياتنا الاخلاقية ارتقاء الى المستوى الاسلامى المنشود . والى القارئ الشواهد على ما نقول :

أولاً : اتضح لنا غموض تعريف الضمير .

ثانياً : قصور المذهب عن بيان التمييز بين الفعل الاخلاقى ايجاباً وسلباً حيث لا يكفى وصف الضمير بأنه (مبدأ مفكر عاقل) . اذ لابد من ضوابط لهذا المبدأ والاسترشاد بقواعد علمية ثابته كبيان أفعال الحلال والحرام والمباح والمندوب والمكروه عند المسلمين بحيث يخضع الانسان لنداء ضمير اذا تأرجح بين هذا وذاك .

كل ذلك لم يبينه لنا بطلر وانما اكتفى بقوله (والضمير فى صحيحه مبدأ مفكر عاقل ، فهو يرفض أن يرد جميع الواجبات الى واجب أعلى مزعوم كأحداث العادة العامة ، فواجباتنا متعددة ، والله وحده بما له من نظرة محيطة بكل شئ هو الذى يمكنه أن يتولى تحقيق أكبر نفع ممكن لنا) [2] .

---

(١) الموسوعة الفلسفية المختصرة ص ٨٤ مكتبة الانجلو المصرية : ترجمة فؤاد كامل ، جالل عشرى ، عبد الرشيد صادق ومراجعة د. زكى نجيب محمود ـ (الالف كتاب ٤٨١) .

(٢) الموسوعة الفلسفية المختصرة ص ٨٤

ونعود للحديث عن أحد علمائنا الاخلاقيين [1] الذين عنوا بالانسان (من الداخل) ان صح التعبير ، أو (الانسان على الحقيقة) حيث غاص فى أعماق النفس البشرية ، فتحدث عن القلب كجهاز ادراك ، وعالج آفات النفس الامارة بالسوء ، ورسم الطريق نحو السلوك الصحيح فى المجال الاخلاقى .

ويلزم من ذلك أولاً التعريف ببعض المصطلحات المستخدمة فى طريقة مقاومة آفات النفس وأهوائها :

المجاهدة : تعبر عن فعل نفسي وجهد أخلاقى ارادى .

المراقبة : تعبر عن اليقظة وهى ضد الغفلة .

الورع : وله تعريفات كثيرة ، منها ما يدل أيضاً على الفعل والحركة (أى الخروج من كل شبهة ومحاسبة النفس مع كل طرفة) حيث قال أحدهم (ما رأيت أسهل من الورع . كل ما حاك فى نفسك تركته ، وهو قول النبى ﷺ (الاثم ما حاك فى صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس) وهو اذا لم ينشرح الصدر به وكان فى قلبك منه شئ) [2] .

تعريف المراقبه والطريق العملى لوضعها موضع التنفيذ :

يعرّف الجيلانى المراقبة بأنها (علم العبد باطلاع الرب سبحانه عليه ، واستدامته لهذا العلم مراقبة لربه ، ولزوم طريق الحق واحسان مرعاة القلب بينه وبين الله تعالى .. فيعلم أن الله تعالى عليه رقيب ، ومن قلبه قريب ، يعلم أحواله ويرى أفعاله ،

---

(١) وهو الشيخ عبد القادر الجيلانى (٤٧٠ ـ ٥٦١ هـ)
وكان من كبار الصوفيه المستمسكين بتعاليم الكتاب والسنة ، حريصاً على التحذير من البدع التى لحقت بالتصوف فى عصره .

(٢) الغنيه جـ ١ ص ١٣١ .

ويسمع أقواله) .

وأصلها ما أشار اليها رسول الله ﷺ حين سأله جبريل عليه السلام عن الاحسان فقال (الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك) .

أما عن المنهج العملى لتطبيق ذلك فانه ينتج عن معرفة خصال أربع هى :

أولها : معرفة الله تعالى بالآيات والدلالات ، وبصفاته وأسمائه الحسنى . وعلى وجه الاختصار فهى أن يعرف ويتيقن أنه واحد فرد صمد ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ﴿ **ليس كمثلة شئ وهو السميع البصير** ﴾ .. محيط علمه بالاشياء .. يعلم السر وأخفى ، عليم بذات الصدور [1] .

الثانية : معرفة عدو الله ابليس فقد أمر الله تعالى بمحاربته ومجاهدته فى السر والعلانية ، فى الطاعة والمعصية .

ويحذر الجيلانى من هذا العدو ويذكرنا بأصل عداء ابليس ، لأنه عادى الله عز وجل فى عبده ونبيه وصفيه وخليفته فى الارض آدم عليه السلام وضاره فى ذريته .

كذلك ينبهنا الى أن هذا العدو لا ينم اذا نام الآدمى ، ولا يغفل اذا غفل الآدمى ، ولا يسهو اذا سها فى نومه ويقظته ، مجتهد فى عطب الآدمى وهلاكه لا يفتر عن اغواء بنى آدم بالمعاصى هادفا فى النهاية الى القائهم معه فى جهنم ، حيث قال جل وعلا ﴿ **انما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير** ﴾ [2] .

الثالثة : معرفة النفس الأمارة بالسوء ، فيضعها حيث وضعها الله عز وجل ، ويصفها بما وصفها الله تعالى ، فانها أعدى له من ابليس .. وهى رأس البلاء ومعدن الفضيحة وخزانة ابليس ومأوى كل سوء ، فعلى العبد محاسبتها ومراقبتها

---

(١) بأختصار ، ولمزيد من الاطلاع راجع الغنية جـ ١ ص ٥٤ ، ٥٨

(٢) الغنية جـ ٢ ص ١٨٥ .

ومخالفتها ومجاهدتها فى جميع ما تدعو اليه وتدخل فيه .

الرابعة : معرفة العمل لله عز وجل بأن يعلم العبد أن الله عز وجل أمره بأمور ونهاه عن أمور ، فالذى أمره به هو الطاعة ، والذى نهاه عنه هو المعصية له عز وجل وأمره بالاخلاص فيهما والقصد الى سبيل الهدى على نهج الكتاب والسنة [1] .

الورع :

ولا يتم الورع الا أن يرى عشرة أشياء فرضه على نفسه :

أولها : حفظ اللسان من الغيبة لقوله تعالى ﴿ **ولا يغتب بعضكم بعضاً** ﴾

والثانى : الاجتناب عن سوء الظن لقوله تعالى ﴿ **اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن اثم** ﴾ ولقوله ﷺ (اياكم والظن فانه أكذب الحديث) .

والثالث : اجتناب السخرية لقوله تعالى ﴿ **لا يسخر قوم من قوم** ﴾ .

والرابع : غض البصر عن المحارم لقوله تعالى ﴿ **قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم** ﴾ .

والخامس : صدق اللسان لقوله تعالى ﴿ **واذا قلتم فاعدلوا** ﴾ يعنى فاصدقوا .

والسادس : أن يعرف منة الله تعالى عليه لكى لا يعجب بنفسه لقوله تعالى ﴿ **بل الله يمن عليكم أن هداكم للايمان** ﴾

والسابع : أن ينفق ماله فى الحق ولا ينفقه فى الباطل لقوله تعالى ﴿ **والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا** ﴾ يعنى لم ينفقوا فى المعصية ولم يمنعوا من الطاعة .

---

(١) نفسه ص ١٨٦ .

والثامن : أن لا يطلب لنفسه العلو والكبر لقوله تعالى **﴿ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فساداً ﴾** .

والتاسع : المحافظة على الصلوات الخمس فى مواقيتها بركوعها وسجودها لقوله تعالى **﴿ حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين ﴾** .

والعاشر : الاستقامة على السنة والجماعة لقوله تعالى **﴿ وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ﴾** [1] .

وهكذا يزودنا الجيلانى بأدوات مراقبة النفس ويدلنا تفصيلا على سلوك الطريق القويم ، وسيتضح ذلك بشكل أشمل عند تناول الاخلاق عند علماء الاسلام .

ولكننا الآن سنختم حديثنا عن الفلاسفة بعرض الاخلاق عند كانط .

فلسفة كانط الأخلاقية [الواجب]

نشأ أمانويل كانط (١٧٢٤ ـــ ١٨٠٤ م) فى بيئة متدينة اذ كان والداه ينتميان الى شيعة بروتستانتية تستمسك بالعقيدة اللوثرية ، وتؤمن بأن موضع الدين الارادة لا العقل ، وأنه لابد من أن يؤيد الايمان بواسطة الاعمال ، وتنظر الى المسيحية الى أنها تقوى ومحبة لله بينما ترى فى اللاهوت (علم الكلام المسيحى) تفسيراً مصطنعاً أقحم على المسيحية ، وقد تأثر كانط بهذه العقيدة فى فلسفته ،

(١) الغنية لطالبى طريق الحق : عبد القادر الجيلانى جـ ١ ص ١٣٤ (٤٧٠ ـ ٥٦١) ط الحلبى ١٣٧٥هـ ـ ١٩٥٦ م .

وقال فى فلسفته (أردت أن أهدم العلم بما بعد الطبيعة لأقيم الايمان) [١] .

وفى مذهبة الاخلاقى استبعد مذهب السعادة الشخصية ، لأنه يرد الخير الى اللذة والمنفعة ، كما أنه يعجز عن استخراج قانون كلى ضرورى من أنواع الحساسية الجزئية المتغيرة ، ولا يضع تمييزا بين بواعث الرذيلة ، ولم يوافق أيضاً على مذهب العاطفة الاخلاقية مع اعترافه بالفضيلة أولا وبالذات ، ولكنه فى الوقت نفسه استبدل بالمنفعة الحسية الرضا النفسى ، ولجأ أنصاره الى العاطفة ليأسهم من العقل (ولم يقدروا أن العاطفة متغيرة نسبية لا تصلح مقياساً للخير والشر) [٢] .

انه مع تسليمه بأن الانسان يسعى الى بلوغ السعادة ، الا أن فكرة السعادة قد بلغت من عدم التحديد مبلغاً جعل كل انسان يعجز عن التعبير عما يشتهيه بالرغم من رغبته فى تحقيق السعادة لنفسه ، ذلك لأن العناصر المختلفة للسعادة مستمدة من التجربة ، ومن ثم فانه من المستحيل على كائن متناه ـ وهو الانسان ـ وان ظن أنه أحكم المخلوقات وأشدها قوة أن يكون فكرة محددة عما يريده على وجه الدقة من وجوده على هذه الارض ، فان اراد الثروة مثلا فانه سرعان ما يتعرض للحسد والدس والوقيعة ، واذا سعى الى المزيد من المعرفة والبصيرة ، فربما أدى ذلك الى أن يزيد بصره نفاذا الى الشرور التى تتوارى عنه فى حالته الراهنة ، واذا اشتهى عمرا طويلا ، فمن يضمن له ألا يكون شقاء طويل الأجل ؟ وكذلك فى طلبه للصحة ، فربما كان اعتلال الجسد عاصماً من افراط كان سبباً فى وهن الصحة الكاملة (انه على الجملة عاجز عن أن يحدد بيقين تام ، وبمقتضى مبدأ من المبادئ ما يمكن أن يوفر له السعادة الحقة ، لأنه سيحتاج حينئذ الى المعرفة الكلية التى تحيط بكل شئ ، واذن فليس فى استطاعة الانسان لكى يحصل على السعادة أن يراعى فى أفعاله

---

(١) تاريخ الفلسفة الحديثة : يوسف كرم ص ٢٠٩ . (٢) نفسه ص ٢٤٧ .

مبادئ محددة وانما عليه أن يتبع نصائح تجريبية) [1] .

لقد كان كانط فى مقدمة القائلين بوجهة النظر المثالية ، فأراد أن يحرر السلوك الاخلاقى من قيود الميول والأهواء ، ولهذا استبعد اللذة والمنفعة والسعادة غاية قصوى لأفعال الانسان الارادية ، اذ جعل الباعث يقوم فى الارادة نفسها ، وبذلك ارتدت عنده الاخلاقية الى مبدأ الواجب [2] .

ويقدم لنا بعض الواجبات بحسب تقسيمها الى واجبات نحو أنفسنا وواجبات نحو غيرنا وهى :

١ـ لنضرب مثلا حالة رجل بلغ به اليأس حداً قرر معه أن يضع حداً لحياته ، فاذا ما بحثنا ان كان من الممكن أن يصير فعله قانونا طبيعيا عاماً ؟

والمشكلة حينئذ هى أنه هل يمكن أن يتحول مبدأ حب الذات هنا الى قانون طبيعى عام ؟ (ولكن الانسان سرعان ما يدرك أن الطبيعة التى يهدف قانونها الى تحطيم الحياة عن طريق الاحساس الذى تقوم وظيفته على دفع عجلة التطور فى الحياة ، انما تناقض نفسها بنفسها ولا يمكن أن تحتفظ تبعاً لذلك بما يجعلها طبيعية ، وأن من المستحيل على تلك المسلمة أن تصبح قانونا طبيعياً ، وأنها نتيجة لذلك كله تناقض المبدأ الأعلى للواجب مناقضة تامة) [3] . أى أن الانتحار يستحيل أن يصبح قانونا طبيعياً .

---

(١) تأسيس ميتافيزيقيا الاخلاق : كانط ص ٥٧ ترجمة د. عبد الغفار مكاوى .

(٢) الفلسفة الأخلاقية : د. توفيق الطويل ص ٢٢١ .

(٣) تأسيس ميتافيزقيا الاخلاق : كانط ص ٦٢ ،

وقد أورد يوسف كرم هذه العبارة حسب النص التالى (ولكن الطبيعة التى يكون قانونها القضاء على الحياة بموجب النزعة التى وظيفتها الدفع الى تنمية الحياة واستطالتها ... الخ ..) تاريخ الفلسفة الحديثة ص ٢٥١ دار المعارف سنة ١٩٦٩ .

٢ـ الحالة الثانية : حالة امرئ احتاج الى اقتراض مبلغ من المال بينما يعلم أنه لن يتمكن من سداده ، ويتنازعه الرغبة فى عدم السداد ، ولكن سرعان ما يقف فى وجهه وازع الضمير لينبهه الى تحريم الالتجاء الى هذه الطريقة لحل ضائقته المالية . وحتى اذا كان هذا المبدأ عادلا ، فانه لن يصبح بأى حال من الاحوال قانونا طبيعياً عاماً (وذلك لأن التسليم بقانون عام مؤداه أن كل انسان يعتقد أنه فى ضائقة يستطيع أن يعد بما يخطر على باله ، مع النية المعقودة على عدم الوفاء بهذا الوعد سيجعل الوعد نفسه والغاية التى يطمع فى تحقيقها عن طريقه أمراً مستحيلا ، اذ لن يصدق أحد ما يبذل له من وعود) [١] .

٣ ـ امرئ ثالث : يتمتع بكثير من المواهب ويحتاج معها الى التثقيف والتهذيب ، ولكنه يهملها ساعياً وراء اللذات بدلا من بذل الجهد فى تنمية استعداداته الفطرية وتحسينها ، ثم سرعان ما يتبين له أن نزعته الطبيعية الى المتع باللذات لا تتفق مع ما يسمى بالواجب . كما لا يمكن أن تصبح قانونا طبيعياً عاماً (ذلك لأنه بما هو كائن عاقل ، يريد بالضرورة أن تنمى جميع ملكاته لكونها نافعة له ، ولأنها أعطيت له ليبلغ ألوانا عديدة من الغايات والاهداف) [٢] .

٤ ـ أما الرابع : الذى توافرت له أسباب الحياة الرغدة فانه ينظر الى من حوله من المكافحين دون أن يمد لهم يد المساعدة مع مقدرته على ذلك ، بل لا يرغب فى تحقيق السعادة لهم بمعاونتهم بالمال أو الوقوف الى جانبهم فى أوقات الشدة .ان مجرد ارادة أن يتحول ذلك التصرف الى قانون طبيعى عام تناقض نفسها بنفسها (فقد يحدث فى كثير من الحالات أن يحتاج مثل هذا الانسان الى حب الآخرين وعطفهم ، وأن يجد نفسه محروماً من كل أمل فى الحصول على المساعدة التى يتمناها ، اذ يحول بينه وبينها ذلك القانون الطبيعى المنبثق من ارادته ذاتها) [٣] .

(١) نفسه ص ٦٣ . (٢) تأسيس ميتافيزيقيا الاخلاق : كانط ص ٦٤ .

(٣) نفسه ص ٦٥ .

ومن هنا نستطيع أن نتبين أفعال الواجب التى يحددها كانط على النحو التالى :

ان محافظة الانسان على حياته واجب ، والاحسان واجب ، وتأمين الانسان لسعادته الذاتية واجب غير مباشر ، ومحبة الجار ولو كان عدوا واجب [١] .

وهكذا فان الافعال الانسانية لا تكون خيراً الا اذا صدرت عن واجب ، لا عن ميل مباشر أو رغبة فى تحقيق مصلحة شخصية ، فاذا أدى الانسان واجباً ـ كانقاذ غريق ـ فانه لكى يصبح تصرفه أخلاقياً ينبغى أن يكون باعث الواجب من بين عدة بواعث هو الكافى للأقدام على الفعل ، ومع اقرار العواطف النبيلة كعامل مساعد لاتيان الافعال الخيّرة فان غرسها فى النفس يعد واجباً أيضاً (فان العالم يفتقد من اتخاذ السعادة غاية مباشرة لأفعالنا ـ أن علينا واجبا غير مباشر يقضى بالبحث عن سعادتنا) [٢] .

تعريف الواجب :

ولكن ما هو تعريف كانط للواجب ؟

انه يصفه بأنه (ضرورة القيام بفعل عن احترام للقانون) [٣] .

والانسان ليس فى حاجة الى علم ولا فلسفة لكى يعرف ما ينبغى عليه أن يفعل لكى يكون أميناً وخيراً [٤] ، وأن معظم أفعالنا تتفق مع الواجب [٥] ذلك لأن المبادئ الاخلاقيه هى مبادئ قبليه بحته (خالصة من كل عنصر تجريبى ، وأنه لا يمكن أن نجدها أو نجد أقل جزء منها الا فى تصورات العقل الخالصة) [٦] .

ومن السهل علينا أن نفرق بين الافعال التى تصدر عن شعور بالواجب والاخرى

---

(١) نفسه ص ٢٥ ، ٢٦ .
(٢) الفلسفة الخلقية : د. توفيق الطويل ص ٢٣٢ .
(٣) تأسيس ميتافيزيقيا الأخلاق : كانط ص ٣٣ .
(٤) نفسه ص ٤١ .
(٥) نفسه ص ٤٥ .
(٦) نفسه ص ٢٤ .

التى تنبع عن حرص انانى على المصلحة . مثال ذلك أن التاجر الفطن يتحاشى رفع سعره ويحافظ على مستوى سعر ثابت للجميع بحيث يستطيع أن يشترى بها الطفل وأى انسان آخر ، وهنا لا محيص من الاعتراف بأنه يعامل المشترين بأمانه ، ولكن لا يكفى هذا للاستدلال عن صدور فعله التزاماً بمبادئ الواجب ، لأن مصلحته قد اقتضت ذلك ، ولا نستطيع افتراض أنه يتصرف مع عملائه بوحى من عاطفته نحوهم (واذن فلم يصدر هذا السلوك لا عن واجب ، ولا عن ميل مباشر ، بل كان الباعث عليه هو المصلحة الذاتية وحدها) [١] .

وعلى العكس من ذلك — كما تبين لنا آنفاً — أن محافظة الانسان على حياته واجب بالرغم من احساسه أحيانا بالتعاسة والهزيمة والهوان وتمنى الموت ، فمحافظته على حياته بالرغم من كل هذه الظروف صادر عن مسلمة ذات مضمون أخلاقى .

وكذلك الانسان الذى يحسن الى الغير منفلتاً من همومه الذاتية التى تقضى على كل مشاركة وجدانية للآخرين ، وصرفه معاونتهم عن الانشغال بشقائه الشخصى فان تصرفه هذا يصدر عن شعور بالواجب . وكذلك يأتى تأمين الانسان لسعادته من قبيل الواجب بطريق غير مباشر (ذلك لأن عدم رضا المرء عن حاله وتزاحم الهموم العديدة عليه ومعيشته وسط حاجات لم يتم اشباعها قد تكون اغراء قوياً له على أن يدوس على واجباته) [٢] ولكن لابد من أن تكون قاعدة تحقيق السعادة مصحوبة باضرار تلحق ببعض الميول — ويصدر التصرف اذن لا عن ميل بل عن احساس بالواجب [٣] .

---

(١) نفسه ص ٢٥ . (٢) نفسه ص ٢٦ .

(٣) المشكلة الخلقية : د. زكريا ابراهيم ص ١٩٣ .

ومن هذا يتضح أن السمات الرئيسية للواجب تتحدد وفقاً للقواعد الثلاث الآتية :

أولها : انه تشريع كلى وقاعدة شاملة ، وتكمن قيمة الواجب فى صميم الواجب نفسه بصرف النظر عن أيه منفعة أو فائدة أو كسب مادى . وعلى هذا فإن الانسان هو الكائن الوحيد الذى يفعل مع معرفته بأن (قيمة الفضيلة انما تزيد كلما كلفتنا الكثير ، دون أن تعود علينا بأى كسب) [1] .

الثانية : أن الواجب منزه عن كل غرض ، فلا يطلب لتحقيق المنفعة أو بلوغ السعادة وانما ينبغى أن يطلب لذاته ، أى ينبغى أن نؤدى واجبنا (فليست الاخلاق هى المذهب الذى يعلمنا كيف نكون سعداء بل هى المذهب الذى يعلمنا كيف نكون جديرين بالسعادة) [2] .

والسمة الثالثة : للواجب أنه قاعدة غير مشروطة للفعل ، أى أنه قانون سابق ، أو حكم أولى سابق على التجربة [3] .

ويشترط للواجب شرطين هما الحرية وازدواج الطبيعة البشرية :

الحرية وازدواج الطبيعة البشرية :

يذهب كانط الى القول بأن الالتزام الخلقى مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالشعور بالحرية ، وينبغى علينا أن نوضح كيف وصل هذا الفيلسوف الى فكرته عن الحرية بتحليله للطبيعة البشرية واثبات ازدواجها .

ان الحديث عن مصدر الالزام فى فلسفته وثيق الصلة بفلسفته الميتافيزيقية فى تصور الكون . فالعالم عنده عالمان :

أحدهما عالم الأشياء كما هى فى ذاتها .

---

(١) نفسه ص ١٩٤ .

(٢) نفسه ص ١٩٤ .

(٣) اسس الفلسفة الخلقية : د. توفيق الطويل ص ٢٢٥

والعالم الثانى هو عالم الأشياء التى تبدو لنا وهو يختلف عن الاول . مثال ذلك أن الرجل الذى ولد وعلى عينية منظار أزرق اللون مثلا يرى كل شئ مصطبغاً بهذا اللون ، وكذلك العقل ، فانه يضيف الى الاشياء صفات الكم والكيف وكون الشئ علة أو معلولا ، يشغل حيزاً من المكان أو الزمان (بهذا لا ندرك قط شيئاً على حقيقته ، وانما ندركه كما يبدو لنا) [1]

والانسان لا يخرج عن نطاق العالم الذى أنشأه وصوره له عقله أو على الاقل ساهم فى انشائه .

وبالمقارنه بين العالم والانسان ، فإن للانسان بدوره مظهرين أحدهما : يتمثل فى ذاته التجريبية التى تربطه بعالم الاشياء كما تبدو .

والانسان بهذه الصفة له طبيعة مزدوجة أى يخضع مع غيره من المخلوقات لقوانين العلية التى تحكم العالم الفيزيقى (أى الطبيعى) والعوامل الجبرية تتصل باستعداداته السيكولوجية والفسيولوجية والجنس الذى انحدر عنه ، والطبقة المنتمى اليها والبيئة التى نشأ فيها والتربيه التى تدرج بها . ولكن مع هذا ، فإن الانسان ليس كالجماد والحيوانات التى لا تستطيع بطبيعتها أن تتصرف على غير الذى تصرفت عليه فعلا ، وانما هو يتميز عنهما ـ كما يتميز عن الظواهر الطبيعية بظاهرة ينفرد بها دون غيره من الكائنات ، لأنه الكائن الوحيد الذى يعد من جهة خاضعاً للسنن الطبيعية ونظمها خضوعا كاملا ، ويعد من جانب آخر مزود بدوافع ورغبات تملى عليه ما يأتيه من تصرفات . انه يتميز بالشعور (بما ينبغى) أن يفعله ، أى أن الانسان وحده (هو الذى يشعر بالزام يوجب عليه أن يتصرف وفقاً لمبدأ)[2] .

وهنا يبدو المظهر الثانى للإنسان ، وهو انتمائه الى عالم الحقائق فى ذاتها ،

---

(١) نفسه ونفس الصفحة .

(٢) نفسه ص ٢٢٧ .

وحينما يشعر الانسان بالالزام الخلقى ، انما يستلهمه من مثل أعلى متحرراً من آثار الوراثة وقيود البيئة ومواضعات الظروف ، متجرداً عن العالم الطبيعى ، متخلصاً من الجانب الذى يربطه بالعالم كما يبدو ، مرتفعاً الى عالم الحقائق فى ذاتها (وعندئذ يتصرف ككائن أخلاقى ، فيخضع سلوكه لمبدأ الواجب ، ويزاول أفعاله بارادة حرة ، ولا يتقيد بغير نفسه التى تعتنق مبدأ أخلاقياً تدين له بالولاء) [١] .

نقد المذهب :

يتجاهل كانط الغالبية من البشر بمكوناتهم المذهبية والعاطفية الذين يسعون بتصرفاتهم وسلوكهم الى غايات تختلط فيها الاهداف بتحقيق منافع أو بحث عن سعادة ، أو تحكم أعمالهم دوافع الرجاء أو الخوف ، وتتعدد واجباتهم بتعدد الاحوال والعلاقات .

ان قانون الواجب الصارم يصلح فقط لقلة خاصة من ذوى الارادات الحديدية الذين لا يحققون من سلوكهم الا عمل (الواجب فحسب ، حتى لو أدى ذلك الى تضحيات بالمال والوقت والراحة وغيرها .

ان هذه الصيغة الكانتية التى تقيم الالزام على أساس (شكله المحض) المجرد عن مادته [٢] هذه الصيغة يصعب الانقياد لها فى كل الاحوال .

ويقول الدكتور دراز (الواجب الكلى العام ، فلنقبله ، ولكن ينبغى أن نفرق بين درجات كثيرة من العمومية فان لها امتداداً بقدر لها من مفاهيم :

الواجب الأبوى والأموى ، والزوجى ، والبنوى ، واجبات الرياسة والصداقة والمواطن والانسان واجب العمل وواجب التفكير وواجب المحبة) .

---

(١) دستور الأخلاق فى القرآن : دراز ص ٢٨٢ . (٢) نفسه ص ١١٢ .

ويتساءل بعد ذلك (وهل من حقنا أن نقول لرئيس أن يعامل من هم أعلى منه رتبة معاملته لمرؤسيه ؟ وأن نطلب الى زوج أن يعامل كل نساء الدنيا كما يعامل زوجته والعكس ؟) [1] .

ثم يطرح لنا البديل فى تنفيذ أوامر الشرع ونواهيه وهى التى تجعل المؤمن لا يذعن للواجب (كفكرة) أو (ككائن عقلى) ولكنه يذعن له من حيث هو صادر عن الله تعالى الذى زودنا بالعقل وأودع فيه الحقائق الأولى ، بما فى ذلك الحقيقة الاخلاقية فى المقام الاول .

وبذلك نكون قد انتهينا من عرض بعض المذاهب الاخلاقية عند الفلاسفة ، ويصبح موضوعنا فى الباب الثانى عن المذاهب الاخلاقية فى الفكر الاسلامى

* * *

---

(٢) نفسه ص ٤٨٣ .

الباب الثاني

مذاهب أخلاقية في الفكر الإسلامي

الفصل الاول
مزايا الاخلاق فى الاسلام

قدمنا فى الباب الأول بعض النماذج من المذاهب الاخلاقية فى الفكر اليونانى والفلسفة الغربية الحديثة ، وقد انتقينا منها ما يلقى بالضوء على الاتجاهات المختلفة فى النظر الى المشكلة الاخلاقية . واذا أخذنا بالتصنيف [1] الذى ينظر الى الفعل الاخلاقى من ناحية المصدر ، فقد ظهر لنا أن المذاهب الاخلاقية اليونانية التى نظرت الى مصدر الفعل الاخلاقى ـ أى الحكمة ـ تتضح فى آراء سقراط وأفلاطون وأرسطو والرواقيين ، وفى العصر الحديث درسنا النظرية الاخلاقية عند كانط الذى رأى أن مصدر الفعل الاخلاقى هو ارادة الواجب . أما من حيث الفعل الاخلاقى بالنظر الى الغاية منه ، فقد ألممنا ببعض المذاهب التى تتجه الى تحقيق السعادة كهدف أخلاقى ، كالابيقورية والمنفعة عند كل من بنثام وجون ستيوارت مل والمذهب العملى ، وأخيراً بحثنا آراء الوضعيين من علماء الاجتماع والاخلاق فى الفلسفة الماركسية .

غير أن الاختلاف حول هذه المذاهب قد أثار موجه من النقد ، نلمحها فى الآراء التى ينقلها لنا جوستاف لوبون عن بعض فلاسفة أوروبا المعاصرين ، وقد وصف محاولات علماء اللاهوت وعلماء الاخلاق بانها عجزت عن اقامة ما هو ثابت فى الاخلاق . والدليل على ذلك ما تبصره من الفوضى العميقة التى لا تزال بادية فى الوقت الحاضر حول هذا الموضوع القديم [2] ويشير فى نص آخر الى تعدد المذاهب

---

(١) وهو نفس تقسيم الدكتور يحيى هويدى ـ (مقدمة فى الفلسفة العامة) ص ١١٠ ـ ٢٢١ .

(٢) حياة الحقائق : جوستاف لوبون ص ١٠٥ .

الاخلاقية وآثارها فيقول (حتى أن مسيوبايو قال ـ انصرف من كان يجب عليهم أن ينيروا السبيل فتركوا الكثلكة ـــ احدى مذاهب النصرانية ـــ ولكنهم لم يلبثوا ساعة من نهار حتى ادركوا أنهم لن يقيموا شيئاً آخر بدلا منها ... وقيل بالاخلاق العلمية ، ثم أعلن مسيو هنرى بوانكاريه مع الاسف عدم وجود أخلاق علمية ، واليك أيضاً الاخلاق التلذاذية والاخلاق النفعية ... واليك ... واليك ... ، فالأمر هو « ضوضاء أدمغة » كما قال مونتين) [1] .

ويبدو أن فصل الدين عن الاخلاق فى الغرب أثار بعض الآراء المعارضة لأن (كثيراً من الناس فى الوقت الحاضر يعدون الديانة الناظم الرئيسى للسلوك) [2] .

ويتساءل مسيو كروازى حول (الارتباط الخلقى) (ترى علم الاخلاق فى جيمع البرامج يدرس كشئ منفصل عن الدين .. فباسم أى مبدأ غير دينى يعلم الواجب والغرض الخلقى ؟ انه يسأل الفلاسفة فيظفر بأجوبة متهاوية) [3] هذا بينما اشتملت كتب اليهود الدينية على تعاليم خلقية ، وهى تتضمن الوصايا العشر الموجزة ، وصاغت النصرانية القواعد الاخلاقية على نحو يجعل الهدف فى الحياة الابدية لا فى هذه الحياة الدنيا ، حيث تتصف السعادة بالزوال بحكم الطبيعة [4] وسترى أن دراسة الاتجاة الاخلاقى فى الاسلام يثبت أن الاخلاق فى الاسلام (هى روح الرسالة الاسلامية ، وأن النظام الاسلامى التشريعى يعد صورة مجسمة لهذه الروح) [5] .

وعن فكرة ارتباط الاخلاق بالدين ، فإننا نرى واحداً من أشد خصوم هذه الفكرة ومن أبرز الذين سعوا للفصل بينهما ، نراه يسلم بالارتباط الوثيق بينهما يقول

(١) نفسه ص ١٠٨ .
(٢) نفسه ص ١٢٤ .
(٣) حياة الحقائق : جوستاف لوبون ص ١٠٩ .
(٤) نفسه ص ١٢٤ .
(٥) الاتجاه الأخلاقى فى الاسلام : مقداد يالجن ص ٥٤ .

دوركايم (ان الاخلاق والدين قد ارتبطا ارتباطا وثيقاً منذ أمد بعيد ، وظلا طوال قرون عديدة متشابكين ، فلم تصبح العلاقات التى تربطهما علاقات خارجية أو ظاهرة ، ولم يعد من السهل فصلهما بعملية يسيرة كما نتصور) (١) .

ومع ذلك فإن علينا أن نوضح ان النزاع فى الغرب حول فصل الدين عن مجالات النشاط الانسانى ومقوماته فى مجالات العلم والاخلاق والاقتصاد والسياسة وغيرها كان له ظروف وأوضاع خاصة بأوروبا نفسها دون غيرها ، اذ كان لرجال الدين هناك (سلطات هائلة فى رعاية الحاجات الدينية للناس وهم الذين يؤدون الشعائر وينظمون العبادة ويوجهون حياة الناس ، فإلى اين سار هذا التوجية ؟ لقد سار نحو دعم نفوذ الكنيسة ذاتها . فرجالها قد كدسوا ثروات هائلة ، وكان لهم نفوذ سياسى كبير . وفى معظم الاحيان كانوا يتحالفون مع النبلاء والاقطاعيين ويشجعونهم على الاستمرار فى استبدادهم (٢) . وربما كان هذا هو السبب الذى أدى بأوجست كونت الى القول بأن الديانه المسيحية قد انقضى زمنها ، ولا بد من الاستعاضة عنها بديانة اخرى ، وهى الفكرة التى صحبت الجمهورية الفرنسية الثالثة التى فصلت بين الدين والدولة ، ومن ثم فقد اعتقد انه تم تحلل اجزاء الديانات من الوجهة العقلية ـ أى لا تصمد امام النظر العقلى . ولكن مرد الخطأ هنا انه اذا كانت هذه الظاهرة صادقة (فيما يتعلق بالديانة المسيحية فى اوروبا فهى ليست كذلك بحال فيما يتعلق بتاريخ التفكير الاسلامى) (٣) .

---

(١) التربيه الأخلاقيه : اميل دوركايم ص ١١ .

(٢) الانسان والحضارة فى العصر الصناعى : د. فؤاد زكريا ص ٧٥
الناشر مركز كتب الشرق الأوسط مايو ١٩٥٧ .

(٣) الأخلاق وعلم العادات الأخلاقيه : ليفى بريل ـ ترجمة د. محمود قاسم
وهو رأيه بتعليقه رقم ١ ص ٣٣٨ ط الحلبى ١٣٧٣ هـ ـ ١٩٥٣ م .

ولكن الأمر يختلف اختلافاً تاماً بالنسبة للمسلمين ، فقد شيدوا صرح حضارتهم ، وأقاموا تلك الدولة العظيمة (التى امتدت على عجل من الاندلس الى قرب القارة الاسيوية مارة بشمال افريقية كله) [1] وذلك بناء على فهمهم الصحيح للاسلام ، واتباعهم لمنهج اسلافهم فى الفهم والتطبيق . فالاسلام ليس مظاهر كهنوتية ، ولا حياة منعزلة عن الواقع تبغى الفرار منه بل هو نظام كامل للحياة يوجه الانسان لكى يحقق كمالاته التى استحق بها مقام الخلافة ـــ أى يحصل لنفسه وللجماعة الانسانية أيضاً على اسمى درجة من الكمال الانسانى ، فى الروح والخلق والمادة والعقل ، وينظم علاقته بربه وعلاقته بأخيه الانسان فى كل مظاهر الحياة) [2] ، أى أنه باختصار شديد دين وحضارة .

كلمة عن المنهج :

يتناول الحديث فى الاخلاق لدى المسلمين ثلاثة ميادين :

الأول : ميدان الفلسفة التقليدية التى يعبر عنها امثال الكندى والفارابى وابن سينا وابن رشد الذين اقتصروا فى أكثر الاحوال على الدراسة النظرية متأثرين بالفلسفة اليونانية ، الدخيلة على علوم المسلمين .

الثانى : ميدان علم الكلام ، ولا نكاد نعثر فيه على مذهب اخلاقى متكامل شامل لكافة المشاكل الاخلاقية ، فيما عدا بعض الموضوعات الهامة المتصلة بالاخلاق كقضية الخير والشر والحسن والقبح ، والاختيار والجبر

---

(١) سر تطور الأمم : جوستاف لوبون ص ١٠٨ ـ ترجمة احمد فتحى زغلول باشا مطبعة المعارف بمصر ١٣٣١ هـ ـ ١٩١٣ م .

(٢) موقف الاسلام من المعرفة والتقدم الفكرى (الثقافة الاسلامية والحياة المعاصرة) : د. محمود عبد الله ص ٣٠ مكتبة النهضة ومؤسسة فرانكلين .

الثالثة : ميدان الزهد والتصوف [1] وقد احتوى تراثه على كثير من البدع باستثناء أهل القرون الاولى من الزهاد الذين التزموا بالتقيد بالكتاب والسنة ، وهؤلاء يمكن اعتبارهم علماء أخلاقيين بمعنى الكلمة .

والى أن نصفى هذا التراث ونتقية من البدع القولية والفعلية نفضل أن نستمد المبادئ الاخلاقية من القرآن والسنة كما استخلصها شيوخ المسلمين المتقيدين بمنهج السلف ، ذلك انهم رأوا ان مصطلح (التصوف) مستحدث حيث نشأ وشاع في القرن الثاني الهجرى ، بينما عبر القرآن بلفظ (التزكية) كركن أساسى كلف الرسول صلوات الله عليه بتحقيقه ﴿ **هو الذى بعث فى الامين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين** ﴾ أى (تزكية النفوس وتهذيبها وتحليتها بالفضائل ، وتخليتها من الرذائل . التزكية التى نرى أمثلتها الرائعة فى حياة الصحابة رضوان الله عليهم ، واخلاصهم ، وأخلاقهم والتى كانت نتيجتها هذا المجتمع الصالح الفاضل المثالى ، الذى ليس له نظير فى التاريخ) [2] .

وسنعرض للمشكلة الاخلاقية لدى حكماء الاسلام فى اطار النسق العام للبحث فى الاخلاق من حيث بيان الموضوعات الآتية :

أولاً : المعالم البارزة لقواعد الاخلاق فى الاسلام بالمقارنة للوصايا الاخلاقية فى اليهودية والمسيحية ، لتوضيح هيمنه القرآن على الرسالات السابقة ، وبيان دور خاتم الرسل محمد عليه الصلاة والسلام فى المجال الاخلاقى ، مع تفصيل مقومات الالزام الاخلاقى فى الاسلام .

---

(١) ينظر كتابينا **مع المسلمين الأوائل فى نظرتهم للحياة والقيم (الزهاد الأوائل)** و **التصوف والاتجاه السلفى فى العصر الحديث** ط دار الدعوة بالاسكندرية

(٢) ربانية لا رهبانية : أبو الحسن الندوى ص ١٢ .

ثانياً دراسة الاتجاهات الاخلاقية عند كل من -

١ ـ الراغب الاصفهانى

٢ـ ابن القيم

٣ ـ الامام عبد الحميد بن باديس

٤ ـ الامام ولى الله الدهلوى .

ولكى يصبح الطريق ممهداً لمعرفة فضائل الاسلام الاخلاقية . سنحاول الالمام بأوجه النقص التى لاحظها بعض الفلاسفة فى تراثهم الاخلاقى الغربى :

الاخلاق الغربية أمام النقد :

تمهيداً لدراسة النظريات الاخلاقية لدى بعض علماء المسلمين وحكمائه فانه يلزم القاء نظرة عامة على معالم الاخلاق التى تكلمنا عنها فى الباب الاول ، اذ نلاحظ انها لا تخلو من بعض المآخذ ، بعضها يوجه اليها من ناحية افتقادها لعنصر الالزام ، والبعض الآخر لفصلها بين الدين والاخلاق الى جانب الانتقادات التى وجهت الى آراء الفلاسفة الاخلاقيين التى اوضحناها آنفاً .

ولقد سبق لابن تيمية ان تنبه الى خلو نظريات فلاسفة اليونان الاخلاقية من الالزام ، اذ تبين له من دراستها ان (ما ذكروه من العمل متعلق بالندب) [1] أى ليس واجباً ملزماً .

الالزام الخلقى اذن لا يشتق من الفكرة المحضة ، والقوانين الاخلاقية لا ينبغى أن تصبح ترفاً عقلياً ، وانما ينبغى ان تكون قواعد للعمل . وقد سلم الاخلاقيون اليونان بهذه الحقيقة عند تقسيمهم للعلوم واعتبار الاخلاق من العلوم العملية ، وحرص

---

(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح : ابن تيمية ص ١٠٥

بعضهم ـ كسقراط والرواقيون ـ على التعبير عن مثلهم الاخلاقية بسلوكهم العملى وهنا يتضح لنا الجانب العملى الذى يتصل بالدين أكثر من اتصاله بالفلسفة كمنهج نظرى عقلى محض ، لأن الاتساق بين النظر والعمل (أو بين الاعتقاد والسلوك فى الدين واجب ، ومن ثم كان لوم الكتاب الكريم لمن ﴿ **يقولون مالا يفعلون** ﴾ [٢] .

وقد سبق بيان الاعتراض الشديد من بعض علماء الغرب من موقف العلماء الوضعيين من الدين ، وبالمثل ، فقد قوبلت فكرة فصل الاخلاق عن الدين بمعارضة شديدة من وجهة النظر الاسلامية أيضاً . يقول الكواكبى (أما المتأخرون الغربيون ، فمنهم فئة سلكوا طريق الخروج بأممهم من حظيرة الدين وآدابه النفسية الى فضاء الاطلاق وتربية الطبيعة ، زاعمين ان الفطرة فى الانسان كافية لضبط النظام) [١] بل قيل ان أكبر دعاة الاتجاه الاجتماعى من أصحاب فكرة الفصل بين الاخلاق والدين كانوا من اليهود (فهم يستجيبون لنداء المصلحة ولا يرعون المثل العليا حرمة ، فيستهدفون لسخط الجماعات البشرية التى يعيشون بينها ، فرأوا ان يحطموا قدسية هذه المثل فى نفوس الناس حتى لا تثير تصرفاتهم الشائنه ثائرة المجتمعات فتقبل وجودهم وتذعن لمسلكهم الكريه راضية مختارة)[٢] .

كذلك لوحظ أن النظريات الاخلاقية لأغلب الفلاسفة ـ لا سيما القدماء ـ لا تعرف ـ أو تنكر الحياة الآخرة التى تتلو الحياة الدنيا ، وهذا الانكار يجعل من قانون الاخلاق ومسئولية الانسان عن أفعاله فى أزمة حقيقية ، ولذا فان على علم الاخلاق ـ معتمداعلى العقيدة الدينية ـ ان يتجاوز هذه الحياة الارضية ، متجهاً بالانسان الى

---

(١) الفلسفة اللأخلاقية فى الفكر الاسلامى : د. احمد صبحى ص ٣١ ط دار المعارف ١٩٦٩ .

(٢) طبائع الاستبداد : الكواكبى ص ٣٩٤ .

(٣) مقدمة كتاب المجمل فى تاريخ الأخلاق : د. توفيق الطويل ص ٢٠ ـ ٢١ .

الله تعالى ، مثبتاً وجود الحياة الآخرة بما فيها من الثواب والعقاب [1] .

واذا اتضح أن الاخلاق علم عملى ، فانه لا يكفى اذن أن نعرف الفضيلة حتى نروض أنفسنا على اتباعها ، كذلك فان الاقناع العقلى بدوره لا يكفى لالزام الارادة على السلوك القويم بل لابد من عنصر الالزام لكى نسلك طريق الخير دون الشر ، وها هو أرسطو بعد ان انتهى من كتابه فى (الاخلاق) يصرح بأن (كل ما فى وسع المبادئ أن تحققه فى هذا الصدد هو لسوء الحظ ان تشد عزم فتيان كرام على الثبات فى طلب الخير وترد القلب الشريف بفطرته صديقاً للفضيلة وفياً لعهدها) [2] والامر لا يحتاج الى كبير عناء لاثبات ان الحد الاوسط الذى وضعه أرسطو لا يكفى أيضاً للتحديد والقطع بين الفضيلة والرذيلة ، فهو نفسه يصرح بهذه الحقيقة فيقول (لنتفق بادئ بدء على هذه النقطة وهى أن كل مناقشة تورد على أفعال الانسان لا يمكن البته أن تكون الا رسماً مبهما ، مجرداً عن الضبط ، كما قد نبهنا اليه بادئ الامر) [3] .

هذا من جانب . ومن جانب آخر افتقد أرسطو والفلاسفة دوافع الالزام فى فلسفاتهم التى تحرك سلوك الانسان بالرغبة والرهبة .

وهنا يتضح ـ كما يذكر بارتلمى مترجم كتاب أرسطو فى الاخلاق ـ الفرق بين التشريع الالهى والقانون الوضعى ، فان القوانين التى يضعها الناس بدافع الحاجة لاستعمالها ، اذ حتى مع افتراضها الالتزام بمبدأ العدل ، فقد تذهب الى تحديد العقوبة بالاعدام على القاتل ولكنها لا تمس نفس العازم على ارتكاب الجريمة ، أى انها تخيفه من غير أن تصلحه ، اما فى شرع الله عز وجل فان المرء (هو قاضى نفسه مؤقتاً على الاقل ، ومن أجل انه يمكن ان يحكم على نفسه ، يمكنه أيضاً أن

---

(١) نفسه ص ٢١ . (٢) الاخلاق : ارسطو (الرجمة العربية) ص ٢٢٩ .

(٣) نفسه

يتقى الوقوع فى الخطيئة التى يشعر بانها كبيرة من الكبائر ، فان الصوت الذى يناجيه من داخل نفسه قد أنذره بادئ الامر ، انه يمحص له النصح قبل أن يقرعه باللوم) (١) .

هذا بينما يعتبر اساس الايمان بالحياة الآخرة فى الاتجاه الاسلامى للأخلاق من اهم الاسس التى يشيد عليها البناء الاخلاقى وفى عملية الالتزام به ، فبدونه تفقد الاخلاق قدسيتها وتأثيرها القوى فى الانسان ٠ وليس هذا أساساً للسلوك الاخلاقى فقط ، بل انه أساس للحياة اذ لا معنى للحياة — فى الحقيقة — دون وجود هذا الاساس ودون الاعتماد عليه) (٢) .

وما دام الامر كذلك فلم نلجأ الى تراث غيرنا تاركين تراثنا ؟ ! وقد مر بنا تعليق ابن تيمية على مذهب أرسطو فلا نعود اليه الا بمقدار ما نسجله من رأى للدكتور سد جويك ـ الذى يكاد يتفق مع شيخ الاسلام — اذ يرى ذلك العالم الغربى ان القارئ لكتاب الاخلاق لارسطو يعثر على بحث متقن يختفى وراءه تفكير دقيق ، ولكنه يترك فى نفس القارئ (أثراً قوياً جداً لعمل ناقص مشتت) .

من أجل هذا كان يلح ابن تيمية فى نداءاته للمسلمين ان يكتفوا بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ لان (من تأمل ماتكلم به الاولون والاخرون فى اصول الدين والعلوم الالهية وامور المعاد والنبوات والاخلاق والسياسات والعبادات وسائر ما فيه كمال النفس وصلاحها وسعادتها ونجاتها لم يجد عند الاولين والآخرين من أهل النبوات ومن أهل الرأى كالمتفلسفة وغيرهم الا بعض ما جاء به القرآن) (٣) .

ويعنينا قبل دراسة تفاصيل موضوع الاخلاق الاسلامية أن نحصى الركائز

(١) مقدمة كتاب الأخلاق لأرسطو : بارتلمى ص ١٨ .

(٢) الاتجاه الاخلاقى فى الاسلام : مقداد يالجن ص ١٢١

(٣) جواب أهل العلم والايمان : ابن تيمية ص ٤٢ .

الاساسية التى تقام عليها هذه الاخلاق فتفردها بسمات خاصة ، سواء بالمقارنه باليهودية والمسيحية أو بما تضيفه من فضائل جديدة وما تنطوى عليه من ألوان الالزام المتعددة ، مع تقديم الاسوة الحسنة فى شخص الرسول صلوات الله عليه ، حيث نفذ بسلوكه واخلاقه ما تضمنه القرآن الحكيم من تعاليم فكان ـ بحق وصدق ـ على خلق عظيم . وهذا ما سنعرضه تباعاً فيما يأتى من بحوث :

تمهيد :

ستعتمد دراستنا فى هذا الباب على مؤلفات حكماء الاسلام وعلمائه الذين لم يلقوا بعد العناية التى يستحقونها بالنظر الى مساهماتهم فى المجالات الاخلاقية ـ وما أكثرها .

وربما ساعد على ذلك اننا كنا نعتمد الى وقت قريب على المصادر الغربية فى بحوثنا ومؤلفاتنا مما يعد نقصاً معيبا لابد من تداركه [١] .

وقد استعرض استاذنا الدكتور السيد بدوى كتب الاخلاق التى كتبها كتاب الغرب فوجد فيها ثغرة كبيرة . فهولاء الكتاب فى تأريخهم للمذاهب الاخلاقية قد عرضوا لهذه المذاهب فى العصور اليونانية القديمة ، ثم فى الديانتين اليهودية والمسيحية وقفزوا منها فجأة الى المذاهب الاخلاقية فى العصور الحديثة فى أوربا أى منذ عصر النهضة الى وقتنا الحاضر ، بدون أن يعرجوا فى قليل أو كثير على ما يتصل بالقانون الاخلاقى فى الاسلام .

ومع ذلك فان ما جاء به القرآن فى مجال الاخلاق ذو قيمة عظيمة لا بالنسبة

---

(١) وقد بدا علماؤنا فعلا بتدارك هذا النقص ، نذكر منهم على قدر علمنا الدكتور محمد عبد الله دراز رحمه الله والشيخ نديم الجسر والدكتور مقداد يالجن وزملاؤنا الأفاضل الدكتور عبد اللطيف العبد والدكتور عبد المقصود عبد الغنى والدكتور أبو اليزيد العجمى وغيرهم .

للحياة العملية للمسلمين أنفسهم فحسب بل بالنسبة لابناء البشر جميعاً ، ومعرفة القانون الاخلاقى كما جاء به القرآن يكمل النقص فى تاريخ المذاهب الاخلاقية ويفتح آفاقاً جديدة فى دراسة المشكلة الاخلاقية ذاتها وفى حل كثير من المسائل والصعوبات التى تثيرها .

ويرى الدكتور السيد بدوى انه اذا كان بعض الكتاب قد تعرض فى كتاباته عن النظم الاسلامية بوجه عام لسرد بعض القواعد الاخلاقية التى تستخلص من القرآن ومن التشريع الاسلامى ، فقد كان يعالج هذه المسائل فى عجالة دون أن يكون فيما يسرده ما يشفى غليل الباحث الذى يريد ان يتعمق الدراسة العلمية . ولم يتعرض احد لبحث الجانب النظرى من المسألة ولم يحاول استخلاص المبادئ العامة التى تستمد من القرآن . وكل ما فعله هؤلاء ـ الكتاب أو المستشرقون هو جمع بعض الآيات القرآنية التى تحتوى على قواعد للسلوك الاخلاقى وترجمتها .

وأخيراً تصدى لهذا العمل الكبير ما يقرب من خمسة عشر عاماً عالم جليل من علماء الازهر وهو الاستاذ الدكتور محمد عبد الله دراز فى رسالته القيمة التى نال بها درجة الدكتوراه من السربون وعنوانها (أخلاق القرآن) .

ويرى الدكتور السيد بدوى ان المذاهب الاخلاقية لدى فلاسفة الغرب لم تبرز من الحقيقة الاخلاقية ـ وهى حقيقة مركبة متشابكة ـ الا بعض وجوهها . والمتتبع لتاريخ الفلسفة يلاحظ العيب نفسه فى المذاهب الكبرى التى تتعرض لنظرية المعرفة ، فهناك المذهب المثالى والمذهب الواقعى والمذهب العقلى والمذهب التجريبى وكلها يتعارض بعضها مع بعض لا لسبب الا لانها ادعت لنفسها امكان تفسير المعرفة الانسانية بالرجوع الى مبدأ وحيد .

ويقول أيضاً (وما حدث بالنسبة للفلسفة النظرية حدث كذلك بالنسبة للأخلاق فأراد فلاسفة الاخلاق كلّ بدوره أن يبنى قواعد الاخلاق على مبدأ وحيد فهو أحياناً

مبدأ السعادة وأحيانا مبدأ اللذة وأحيانا مبدأ العقل الخ . والحقيقة أنه لا يكفى فى توجيه ارادتنا أن نرجع الى قاعدة عامة أو أن نحلل بدقة الموقف الخاص الذى نجد أنفسنا فيه بل اننا نحتاج الى الجمع بين هذين الشرطين أى الى التوفيق بين مثال أعلى يأتينا من مصدر علوى وبين الحقيقة الواقعية التى نعيش فى وسطها) [١] .

ولا شك أن أى باحث فى الاخلاق الاسلامية لابد له من الاستناد الى كتب ومقالات الدكتور محمد عبد الله دراز ـــ رحمه الله تعالى ـــ لأن هذا العالم الجليل قد استكمل وسائل البحث التى أهلته للخوض فى ميدان علم الاخلاق بتكوينه الاسلامى الاصيل أولا ، ثم اتقانه للغة الفرنسية واستيعابه للثقافة الفلسفية الغربية القديمة والحديثة ثانياً ، فحصل على درجة الدكتوراه من فرنسا على رسالته بعنون (دستور الاخلاق فى القرآن ـ دراسة مقارنة للاخلاق النظرية فى القرآن) [٢] .

وقد وفق وبرع فى الاحاطة بالقانون الاخلاقى فى القرآن الكريم بمنهج جديد لم يسبقه اليه أحد فيما نعلم [٣] .

وسنبدأ بعرض موجز لبحثه المبتكر الذى يبين فيه معالم القانون الاخلاقى فى القرآن الحكيم .

---

(١) الاخلاق بين الفلسفة وعلم الاجتماع : الدكتور السيد بدوى ص ٦٦ ـ ٦٧ .

(٢) اعتمدنا كثيرا على كتبه واهمها الكتاب الفريد فى بابه (دستور الأخلاق فى القرآن دراسة مقارنه للأخلاق النظرية فى القرآن) ترجمة الدكتور عبد الصبور شاهين ومراجعة الدكتور السيد محمد بدوى دار البحوث العلمية ـ الكويت ومؤسسة الرسالة بيروت ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣ م .

(٣) تقع الترجمة العربية فى ٧٧٨ صفحة .

معالم القانون الاخلاقى فى القرآن الكريم

لقد حفظ القرآن القانون الاخلاقى الذى جاء به موسى عليه السلام ولكن هذا القانون لم يأت على كل شكل كتلة واحدة كالوصايا العشر ، ولكنه ورد كآيات متفرقة فى عدد من السور [1] .

وقد عقد الدكتور دراز **مقارنة بين**

الوصايا العشر كما جاءت بكل من التوراة والقرآن :

---

(١) مدخل الى القرآن الكريم : د. دراز ص ٩٢ ـ دار القرآن الكريم ودار القلم الكويت ١٣٩١ هـ ـ ١٩٧١ م ترجمة محمد عبد العظيم ، مراجعة د. سيد بدوى .

القرآن الكريم	التوراه
﴿ وقضى ربك الا تعبدوا إلا اياه ﴾ الاسراء ٢٣	(سفر الخروج الفصل العشرين) لا يكن لك آلهة اخرى امامى
﴿ فاجتنبوا الرجس من الأوثان ﴾ الحج ٣٠	لا تصنع لنفسك آلهة مسبوكة
﴿ ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم ﴾ البقرة ٢٢٤	لا تنطق باسم الرب الهك باطلا
﴿ وبالوالدين احسانا ﴾ الاسراء ٢٣	اكرم اباك وامك
﴿ ولاتقتلواأنفسكم ﴾ النساء ٢٩	لا تقتل
﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم * وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ﴾ النور ٣٠ ـ ٣١	لا تزن
﴿ والسارق والسارقة فاقطعوا ايديهما ﴾ المائدة ٣٨	لا تسرق
﴿ واجتنبوا قول الزور ﴾ الحج ٣٠	لا تشهد على قريبك شهادة الزور
﴿ ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض ﴾ النساء ٣٢	لا تشته بيت قريبك ولا شيئا مما لقريبك

وهكذا يتبين أن أسس القانون الاخلاقى ظلت محفوظة بالقرآن ، اذ جاء عيسى عليه السلام فقال عن هذا القانون (فمن نقض احدى السماوات وأما من عمل وعلم فهذا يدعى عظيماً فى ملكوت السماوات) [1] .

كما أعلن عليه السلام أنه لم يأت ليلغى وينسخ وانما ليكمل فقال (قد سمعتم انه قيل للقدماء (كذا) وأما أنا فاقول لكم (كذا) ، كان يقصد أنه كان يوالى من بعدهم مهمة التطهير الاخلاقى التى بدأها المرسلون من قبله ، والتى كانت تنتج مجالا للتقدم والرقى) [2] .

ولو مضينا — مع المرحوم الدكتور دراز لتتبع الوعظ الانجيلى حيث أثبت أن هذه المبادئ قد عززها كتاب الاسلام لاحتجنا الى مبحث كامل . يقول تعالى ﴿ **وأنزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه** ﴾ المائدة ٤٨

ولكننا سنكتفى باشارة الى بعض النماذج :

(١) نفسه ص ٩٣ ـ ٩٤ .

(٢) نفسه ص ٩٩ .

القرآن الكريم	الانجيل
﴿ وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض اعدت للمتقين ﴾ آل عمران ١٣٣	طوبى للودعاء لأنهم يرثون الأرض (متى ٥ : ٥)
﴿ إلا من اتى الله بقلب سليم ﴾ الشعراء ٨٩	طوبى للاتقياء القلب (٥ : ٨)
﴿ لا خير فى كثير من نجواهم إلا من امر بصدقة أو معروف أو اصلاح بين الناس ﴾ النساء ١١٤	طوبى لصانعى السلام (٥ : ٩)
﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم * وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ﴾ النور ٣٠ _ ٣١	قد سمعتم انه قيل للقدماء لا تزن وأما أنا فاقول لكم ان كل من ينظر الى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها فى قلبه (متى ٥ ٢٧ _ ٢٩
﴿ واذا سألك عبادى عنى فانى قريب اجيب دعوة الداع إذا دعان ﴾ البقرة ١٨٦ ﴿ وقال ربكم ادعونى استجب لكم ﴾ غافر ٦٠	اسألوا تعطوا (متى ٧ : ٧)
﴿ ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على ما فى قلبه وهو الد الخصام * واذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد * واذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالاثم ﴾ البقرة ٢٠٤ _ ٢٠٦	احترزوا من الأنبياء الكذبة الذين يأتوكم بثياب الحملان ولكنهم من داخل ذئاب خاطفة (متى ٧ : ١٥)

وهكذا يثبت أن القرآن يوضح أعمال الرسل ويؤيد شرائعهم ، ويوحد مختلف الاتجاهات فى اطار قانون أخلاقى واحد (فكم هو جميل أن نرى كتابا أخلاقيا قد جمع بين دفتيه حكمة الاولين ، فضلا عن أنه قدم فى وقت واحد وبهدف واحد عديداً من الدروس) [1] .

وكنا قد أوضحنا من قبل ضرورة توثيق الصلة بين الاخلاق والدين ، والحديث عن الدين يستحثنا هنا لدراسة نظرة الاسلام الى الفضيلة وكيف حددها القرآن بمعيار دقيق .

وقبل تناول تفاصيل الاضافات الجديدة فى الاسلام ، فانه ينبغى بحث كيف حدد القرآن الحكيم الفضيلة بالنظر الى مستويات السلوك الانسانى .

الفضيلة فى القرآن :

رأينا نقد ابن تيمية لفكرة الفضيلة فى فلسفة أرسطو الاخلاقية بسبب انها اعتبارية ولا يجمعها حد جامع واضح يميز تمييزا دقيقاً بين طرفى التفريط والافراط .

وفى العصر الحديث أدى نظر الدكتور دراز للآيات القرآنية الى أنه استخلص منها تعريفا منضبطاً للفضيلة بالنظر الى المستويات الانسانية منها . فان طرق الناس فى سلوكهم لا يتعدى صدورها عن احدى النزعات الثلاثه الآتية :

اما نزعة الاستئثار واما نزعة الايثار واما نزعة المبادلة والمعادلة .

ويرى الدكتور دراز أن البيان القرآنى أفاض فى ذم سجية الاثرة والبغى والعلو ، بينما وزع القيم الاخلاقية قسمة ثلاثية فى طرفها الاعلى فضيلة الايثار والطرف الادنى رذيلة الاستئثار . ولم يعتبر مبدأ المقاصة الدقيقة فى الحقوق والواجبات فضيلة

(١) نفسه ص ١٠٥ .

أو رذيلة ، لأنه بمثابة رخصة مباحة لا يستحق المدح أو الذم وآية ذلك قوله تعـالى **﴿ ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل انما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم ولمن صبر وغفر ان ذلك لمن عزم الامور ﴾** ٤٢ : ٤٤ الشورى .

وفى مواضع أخرى يضع القرآن الحكيم هذا التقسيم :

﴿ لا يحب الله الجهر بالسوء من القول الا من ظـلـم ﴾ النساء ١٤٨ .

﴿ ان تبدوا خيراً أو تخفوه أو تعفوا عن سوء فان الله كان عفواً قديراً ﴾ النسـاء ٤٩ .

فالنهى أولا عن تعامل الناس بالفاحش من القول لأنه يستوجب غضب الله ، مع استثناد من كانت اساءته رداً لمظلمة ، ثم وضع الخطة الحميدة والفضيلة المندوب اليها وهى خطة العفو حتى يستحق مغفرة الله : **﴿ ألا تحبون أن يغفر الله لكم ﴾**

يقول الدكتور دراز (وهكذا تمضى ارشادات القرآن الحكيم ناهية عن التزيد فى حق النفس ، حاضة على الزيادة فى حق الغير ، مخيرة المعاملة بالمثل دون نهى عنه أو تحريض عليه) [(١)] هذه سمة أولى من سمات الفضيلة .

أما السمة الثانية فتتعلق بنفاذها الى أعماق الضمير حتى يتشربها القلب فتصدر عنه بترحاب وطيب خاطر ومحبة ، لا عن جهاد خلقى شاق ، على عكس بيان الفلاسفة ، فقد أشار مؤرخو الفلسفة الى زعم سقراط أن الانسان مجرد عقل فحسب ، ثم أضاف أفلاطون اليه العاطفة ، وجاء أرسطو فرأى أن الانسان يشتمل أيضاً على ارادة فعالة ، مبيناً أن الفضيلة ليست علماً تنزع بصاحبه الى العمل مع

---

(١) نظريات فى الاسلام : د. دراز ص ١١٣ وما بعدها (بتصرف) ،
تحقيق محمد موقف البيانونى ـ مكتبة الهدى ـ حلب ١٣٩٢ هـ ـ ١٩٧٢ .

قصور الهمة ، بل هى عمل يبرز الى الوجود ، ويحتاج الى الرياضة والتدريب حتى يصبح عادة ثابتة وخلقاً راسخاً .

ولكنها فى هذه الحالة ، قد تصبح الفضيلة عملا آليا تسخيريا تمجه النفس .

أما الفضيلة فى القرآن الكريم ، فهى ترتقى بالنفس الانسانية لتصبح عملا انبعاثيا محببا الى القلب . مصداق ذلك قوله تعالى ﴿ **ولكن الله حبب اليكم الايمان وزينه فى قلوبكم وكره اليكم الكفر والفسوق والعصيان * أولئك هم الراشدون * فضلا من الله ونعمة * والله عليم حكيم** ﴾ .

وعلى العكس من ذلك ، فان فاعل الخير المفتقد لأريحية النفس له ليس خليقاً بأن يسمى خيراً . ويسجل القرآن المجيد هذه النظرات ﴿ **ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرما** ﴾ ﴿ **ولا يأتون الصلاة الا وهم كسالى ولا ينفقون الا وهم كارهون** ﴾ ﴿ **أفرأيت الذى تولى وأعطى قليلا وأكدى** ﴾ .

وقد رسم القرآن الحكيم الطريق العملى لتربية الانسان الفاضل مخاطباً الفرد والمجتمع ، فاذا كان المجتمع هو الاساس الاول الذى يقوم عليه بناء الدولة ، فان العناية بالفرد وهو لبنة فى بناء المجتمع يصبح ضرورياً وأساسيا اذا أردنا لهذا البناء القوة والمنعة[1] .

ويختلف الناس فى سلوكهم بين التخبط فى الحضيض ، أو المتهادى فى القمة أو السائر وسطاً . واذا أردنا الارتفاع بالمستوى الادنى والاوسط الى القمة ، فعلينا البدء بالاخلاق لأنها أول الخيط الذى يصل بنا الى الغاية .

وقد وضع الاسلام فلسفة اصلاح المجتمع وتقويمه على قاعدتى الامر بالمعروف

---

(١) دراسات اسلامية : د. دراز ص ١٠٥ ، ١٢٧ ـ ١٢٨ (بتصريف)

والنهى عن المنكر [١] .

وعند تطبيق هذه القاعدة يرى الدكتور دراز أنها تتجه اتجاهين :

الأول : اتجاه ايجابى **والثانى** : اتجاه سلبى .

مثال الاول قوله تعالى **﴿ يابنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر ﴾** آية ١٧ لقمان .

وذلك فى اطار فردى وللجماعة : **﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ﴾** آية ١١٠ آل عمران .

﴿ وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فان بغت احداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفئ الى أمر الله ﴾

وفى حالة التدخل للاصلاح بين المتنازعين والحض على قول كلمة الحق حين يدعو الداعى اليها ، فان الساكت عن كلمة الحق شيطان أخرس **﴿ ومن يكتمها فانه آثم قلبه ﴾** .

أما المثال المعبر بجلاء عن الاتجاه السلبى فاننا نعثر عليه فى الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك اذ نفذ الرسول ﷺ مبدأ مقاطعتهم وأمر المسلمين جميعاً بالتنفيذ الشامل .

وهكذا رأينا كيف يحدد القرآن الفضيلة ويسمو بالانسان للارتقاء الاخلاقى المنشود ، ويصنع له الخطة التربوية لبناء المجتمع الفاضل .

وسنأتى الى بيان تفصيل الفضائل المتعددة التى تميز بها الاسلام :

---

(١) نظرات فى الاسلام (بتصرف) : د. دراز ص ١٠٢ .

الاضافات الجديدة فى الفضائل :

أما الجديد ـ كما يرى الاستاذ الدكتور دراز ـ فهو يظهر فى الموضوعات الاتية[1] :

أولا ـ فى مجال الفضيلة الشخصية :

نجد فى هذا المجال قاعدة جديدة ومبدأ جديدا ، أما القاعدة الجديدة فهى تحريم الخمر وتناول أى مسكر والقضاء على مصادر الخمر فى قولة تعالى ﴿ **يا أيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والانصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون** ﴾ . ودلالة التحريم فى هذه الآية قاطعة لأن الامر بالاجتناب قد سبق بوصف (الرجس) (والذى يقترن به ذكر أشنع ضروب الكفر والشرك وهو الاقبال على الاوثان هو أصرح وأبلغ فى الدلالة على التحريم) [2] .

أما المبدأ الجديد فهو (النية) باعتبارها لب العمل الاخلاقى . فقد كان موسى عليه السلام يغرى قومه بأرض الميعاد ، والرخاء فى الحياة الدنيا والنصر على أعدائهم ، ويظهر من دعوة عيسى عليه السلام ، طلب الانصراف عن الحياة الدنيا لأن السعادة لا تتحقق فيها ولكنها فى ملكوت السماء .

ويجمع القرآن الكريم بين هذين الوعدين ، لا كباعث أخلاقى ، وانما باعتبار أن الغاية التى يقصدها الانسان الفاضل أعلى من هذا كله (انه فى الخير المطلق ، أى فى ابتغاء وجه الله تعالى الذى يجب استحضاره فى القلب عند اداء العمل

---

(١) مدخل الى القرآن الكريم : د. دراز ص ١٠٥ .

(٢) القرآن فى التربية الاسلامية (مجمع البحوث الاسلامية) : الشيخ نديم الجسر ص ٦٥ ، الاية ٦٠ من سورة المائدة .

الانسانى بتنفيذ أوامره) [1] .

لقد استقامت شجرة الفضيلة بأحكام التوراه والانجيل ، حيث حددت علاقات الناس بعضهم ببعض وقيامهم على أساس العدل والمحبة ، وحفظهما القرآن ، وأضاف اليهما تقنينا فى الأدب والذوق الاجتماعى فى المظهر ، نعثر عليها فى آيات عديدة فى سور كثيرة كسورة النور والحجرات والاحزاب وغيرها .

ثانياً ـ الفضيلة فى العلاقات بين الأفراد :

من هذه الآيات قوله تعالى ﴿ **واذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها ان الله كان على كل شئ حسيباً** ﴾ النساء ٨٦ .

﴿ **يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن ان بعض الظن اثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا** ﴾ الحجرات ١٢ .

﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على اهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون** ﴾ . النور ٢٢ .

﴿ **يا ايها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن** ﴾ الاحزاب ٥٩ .

ثالثاً ـ الفضائل الجمايعة والفضائل العامة [2] :

يتضح من القانون الاخلاقى فى اليهودية اقامة الحواجز بين الاسرائيليين وغيرهم ، فالخير لا يتعدى دائرة الاسرائيليين أنفسهم ، والنصوص الدينية تأمر بذلك مثل (للأجنبى تقرض بربا ولكن لاخيك لا تقرض بربا) (واذا افتقر أخوك عندك وبيع لك فلا تستعبده استعباد عبد) .

---

(١) مدخل الى القران الكريم: د. دراز ص ١٠٦ .　　(٢) نفس المصدر ص ١٠٨.

وكان للقانون المسيحى فضل اسقاط هذه الحواجز وابطال الطابع العنصرى ، ومد مبدأ المحبة لاحتواء الانسانية كلها ، ولكنه لم يركز الاهتمام بتقوية رابطة الجماعة المسيحية نفسها .

ثم جاء القرآن ليوفق بين الفضيلة العامة التى توحد العلاقة فى الاخوة الانسانية ــ أى الاسرة العالمية الكبرى ــ والفضيلة الجماعية داخل المجموعة الاسلامية ، ففصل وحدد الفضيلة العامة التى أمر بها الانجيل من قبل ، حيث وسع دائرتها لتهيمن على مجالات الحياة المختلفة . قال تعالى ﴿ **يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا . ان أكرمكم عند الله أتقاكم ان الله عليم خبير** ﴾ الحجرات ١٣ .

وقوله عز وجل ﴿ **لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطو اليهم ان الله يحب المقسطين** ﴾ الممتحنة ٨٨ .

وقوله سبحانه ﴿ **ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا** ﴾ المائدة ١٣ .

وهكذا يعلمنا القرآن أنه توجد خارج الاخوة فى الله ، الاخوة فى آدم عليه السلام ، ولكنه فى الوقت نفسه يحدد مبدأين لحفظ كيان الجماعة الاسلامية ، وهما :

أولا ــ دعوة المؤمنين ليكونوا جماعة واحدة متماسكة ﴿ **واعتصموا بحل الله جميعا ولا تفرقوا** ﴾ آل عمران ١٠٣ .

والمسلمون فى توادهم وتراحمهم ، كمثل الجسد الواحد ، اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الاعضاء بالسهر والحمى . ومظهر المسلمين فى الصلاة يعبر أصدق تعبير عن التضامن المطلوب ، فالجميع يقفون فى صلاة الجماعة صفاً واحداً لا

فرق بين رئيس ومرؤوس ، أو بين فقير وغنى .. يقفون جميعاً فى اتجاه واحد وراء امام واحد ، كل منهم يدعو للجميع ﴿ **اياك نعبد واياك نستعين ، اهدنا الصراط المستقيم** ﴾ (انهم جميعاً يطلبون النجاة والفلاح ، ليس فقط لمجموعة المصلين وانما لجميع عباد الله الصالحين اينما كانوا ﴿ **السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين** ﴾ .

ثانياً : وتتضح اهمية المبدأ الثانى من الناحية الاخلاقية وهو مبدأ الأمر بالمعروف وتنهون عن المنكر ﴿ **كنتم خير أمة اخرجت الناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر** ﴾ آل عمران ١١٠ ، ﴿ **واتقو فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة** ﴾ الانفال ٢٥ . ﴿ **وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر** ﴾ العصر ٣ ، ﴿ **وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة** ﴾ البلد ١٧ ، فعلى المسلم دعوة اخيه المسلم الى ماهو حق وعدل ، ونهية عن السوء ، وأوجب القرآن على جميع المسلمين التعاون فينشر الفضيلة والتقوى ﴿ **وتعاونوا على البر والتقوى** ﴾ المائدة ٢ .

وتحذر الآية الواردة بسورة الانفال ــ السالف الاشارة اليها ــ المسلمين بألا يتركوا المنكر يسود فى مجتمعهم [1] .

رابعاً ــ الفضيلة فى المعاملات الدولية وبين الديان :

لم تتح للديانتين اليهودية والمسيحية اقامة علاقات مع دول معادية ، لكن الوضع اختلف فى عصر النبى ﷺ ، حيث أصبح اسوة فى مجال الاخلاق وقائداً فى مجال السياسة أيضاً .

ونورد بعض المبادئ التى وضعها القرآن فى الحرب الشرعية لدفع العدوان ﴿ **وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا** ﴾ البقرة ١٩٠ ثم تتوقف

(١) نفس المصدر ص ١١٢ .

الحرب عند انتهائها ﴿ **وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله** ﴾ الانفال ٦١ ، والامر باحترام العهود والمواثيق فى العلاقات الدولية ﴿ **وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها** .. ﴾ النحل ٩١ .

لقد اقتضت مهمة الرسول صلوات الله عليه كسياسى ، وقائد تشريعاً اخلاقيا لظروف الحرب والسلم ، كما تبين لنا من هذه الآيات وغيرها ، الى جانب القواعد التى حددتها السنة [١] .

٣ ـ طرق الالزام الاخلاقى وتنوعها (أو وسائل الردع والزجر) :

تنطوى الشرائع الوضعية على الالزام ، ولكنه الزام سطحى ، يتسم بالنقص حيث يقف عند حدود الجرائم دون أن يتناول الاخلاق ، وينص على التخويف بالعقوبات الدنيوية دون الاخروية ، أو يعتمد على الاقتناع العقلى .

ولكن القرآن يمتاز عن الشرائع باستكماله طرق الالزام ، ومعنى الالزام هو (الزام المكلف بتصديق ما قرره من الحق ، وتنفيذ ما شرعه من الاحكام والاخذ بما وصى به من مكارم الاخلاق والعزوف عما نهى عنه من مساوئها .

وقد عدد القرآن ـ كما يذكر الشيخ نديم الجسر ـ طرق الالزام وفصلها وشعبها ، كما اوضح الكبائر والصغائر والاخلاق والآداب ، مفصلا ابواب الترهيب والترغيب ، متبعاً طرق التربيه الاخلاقية التى تهذب النفس وتقومها .

وتكاد تنحصر طرق الالزام فى القرآن فى ستة أنواع كما حددها الشيخ نديم

(١) نفس المصدر ص ١١٣ .

الجسر فى بحثه الجامع بين دراسة النفس والاخلاق فى الاسلام [1]، نلخصها فيما يلى :

١ ـ الالزام بوازع العقل :

ان مزية الاسلام الكبرى على باقى الاديان هو منحه العقل السلطة فى الفهم واستنباط الاحكام ، والآيات القرآنية التى تحث على تحكيم العقل وترك اتباع الظن لا تكاد تحصى، ذلك لان عقل الانسانية فى بدايته واثناء مراحله الاولى كان عاجزاً امام التجارب المحدودة ان يدرك الخير ، وأن يحدد مكارم الاخلاق ومساوئها ، وكان الوحى السماوى يتولى هذا التحديد بواسطة الرسل . وعندما تكامل العقل الانسانى وبلغ حداً يستطيع ان يعرف الحق والخير (انزل الله سبحانه آخر كتبه على آخر رسله ، وجعل للعقل بمقتضى هذه الشريعة الاخيرة السلطان الاعلى فى ادراك حكمة ما حدده القرآن من المبادئ العامة لخدمة الحق والخير ومكارم الاخلاق) [2]

وآيات النظر العقلى ، والحض على النظر والتفكير والتدبر كثيرة فى القرآن ، مع وصفه للغافلين بأنهم يعيشون كالانعام ، لا حظ لهم فى تزكية الانفس أو تثقيف العقول ، وهكذا ابطل القرآن الحجر على حرية التفكير حيث كانت التقاليد الدينية قد كبلت بهذا الرق البشرية (وان اكثر ما ذكر فعل العقل فى القرآن قد جاء فى الكلام على آيـات الله ، وكون المخاطبـين بها ، والذين يفهمـونها ، ويهتـدون بها هم العقلاء)[3]

---

(١) القرآن فى التربية الاسلاميه : الشيخ نديم الجسر ص ١٠٢ .

وهو بحث جامع عميق يحتوى على دراسة قضايا حيوية فى النفس والأخلاق ويقع فى نحو ٧٥ صفحة من القطع الكبير منشور فى مجلة مجمع البحوث الاسلامية عدد خاص بعنوان (التوجيه الاسلامى للشباب) ١٣٩١ هـ ـ ١٩٧١ م

(٢) نفسه ص ٨٨ (٣) الوحى المحمدى : محمد رشيد رضا ص ١٨٣ المطبعة السلفيه

ولئن كان من (أشرف ثمرة العقل معرفة الله تعالى وحسن طاعته والكف عن معصيته) [1] ، فان من البديهى أيضاً أن يصبح الالزام بوازع العقل فى المحيط الاخلاقى هو عماد طرق الالزام وأولها ، اذ أوضح القرآن أن الله خلق الانسان ليعبده ، وأنه يريد اختباره فى هذه الحياة الدنيا ، كما بين أنه لا اكراه فى الدين ، ودل على الاوامر والنواهى ، لذلك كان الاقتناع العقلى بصحة القضايا العقلية والمبادئ والاحكام أول أنواع الالزام [2] .

٢ ـ الالزام بوازع الضمير :

ولكن الالزام العقلى لا يتم الا للقلة من الحكماء الذين يعبدون الله تعالى ، ويطيعون أوامره ، لانه سبحانه مستحق بذاته للعبادة وأن أوامره مستحقة الطاعة .

ولكن الكثرة الغالبة لا يكفيها وازع العقل ، وتحتاج الى وازع الضمير كزاجر يبعدها عن الذنوب التى تخفى على أعين الناس ، ولا ينالها العقاب الارضى بواسطة البشر . والضمير هو عبارة عن حالة نفسية من الانشراح أو الانقباض ، ويتكون من الحكم العقلى على الافعال بالنظر الى حسنها وقبحها ، نفعها وضررها (ومن الايمان بالله ، وقدرته ، وعدله ، ومن الخوف على النفس ، والاموال ، والأولاد ومن خوف العقاب من الله ومن الناس) [3] .

ويرتبط الضمير بفكرة المسئولية ، وضمير المؤمن موصول بالله سبحانه فهو يعيش فى حراسة ضميرة ويقظة (نفسه اللوامة) .

ولما كانت النفس البشرية معتركا للخير والشر ، فان سلاح مجاهدة المؤمن هو الضمير أو النفس اللوامة (ويسمى هذا الضمير فى عرف أهل الشرع المراقبة أو

---

(١) الذريعة الى مكارم الشريعة : الراغب الأصفهانى ص ٦٦ .

(٢) القرآن فى التربية الاسلامية : الشيخ نديم الجسر ص ١٠٤ .

(٣) نفسه ص ٩٥ .

خوف الله أو وازع القلب) [1]، ذلك أن فى امكان الانسان أن يخدع القانون أو يستغله لصالحه أو يحتال عليه ، أو يفلت من العقاب الذى ينص عليه لأن القانون من صنع الناس أنفسهم ، أما ضمير الانسان المؤمن فهو بمثابة (محكمة أمن) داخل الانسان (لا يمكن خداعها ولا الفلات منها ولا تجدى عنها المعاذير ، لأنها مرتبطة برقابة عليا ، انها لوامة دائماً ، توجه الى صاحبها انذارات التأنيب ، حتى ترده الى الخير) [2]

ومن ومكونات الضمير الكبرى الرقابة الالهية [3] التى نفهمها من الآيات القرآنية العديدة التى تحذرنا مغبة الانحراف عن الطريق السوى لأن الله سبحانه ﴿ **يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور** ﴾ غافر ١٩ .

ومن هذه الآيات ﴿ **ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب اليه من حبل الوريد** ﴾ ق ١٦ .

﴿ **وما من غائبة فى السماء والأرض الا فى كتاب مبين** ﴾ النمل ٧٥ .

﴿ **والله يعلم ما تسرون وما تعلنون** ﴾ النحل ١٩ .

﴿ **وما يخفى على الله من شئ فى الأرض ولا فى السماء** ﴾ ابراهيم ٣٨

﴿ **يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم اذ يبيتون مالا يرضى من القول وكان الله بما يعملون محيطا** ﴾ النساء ١٢٨ .

﴿ **ولا تعملون من عمل الا كنا عليكم شهوداً** ﴾ يونس ٦١ .

---

(١) يُنظر البحث السابق عن الجيلانى

(٢) دروس ونفوس : د. توفيق سبع جـ١ ص ٢١٠ ، ٢١١ . ط مجمع البحوث الاسلامية

(٣) القرآن فى التربية الاسلامية : الشيخ نديم الجسر ص ٨٢

٣ ـ الالزام بالترهيب والترغيب :

تنوعت أساليب القرآن من حيث الترهيب والترغيب . ففيما يتصل بالترهيب فان الله سبحانه يحذر العاصى من انتقامه فى النفس والأولاد ، أو فى الاموال والثمرات . هذا فى الدنيا . أما فى الآخرة ، فالتحذير من أهوال القيامة وعذاب النار .

وفى جانب الترغيب ، وعد بخير الدنيا وزيادته لمن يشكر ، وحفظ النعم على من يحافظون على سلوك طريق الاستقامة. ووعد المتقين بالجنة فى الآخرة بما فيها من نعيم دائم ، لتعويض المحرومين من خير الدنيا فى المآكل والمشارب والمساكن وغيرها(وهو وصف يعترض عليه بعض الجهال والمشككين الذين يملأ الزيغ قلوبهم ، أما الذين يدركون خفايا النفس البشرية فى شدة حبها للخير والنعيم ، ونقمتها من الحرمان ، فانهم ليعلمون أنه وصف لازم وضرورى وفى منتهى الحكمة) [١] .

٤ ـ الالزام بوازع الكفارات :

ومن أساليب تربية الضمير ، تفويض الله سبحانه الى العبد أن يعاقب نفسه جزاء لما اقترفت يداه ، وتكفيراً عن بعض الذنوب كالصوم ، وهى عقوبة جسدية ، أو عتق رقبة أو اطعام المساكين وهى عقوبة مالية . وهكذا يظهر لون من امتحان الايمان وتعود الانسان على محاسبة نفسه ، بعد الاقرار بذنبة ، والاذعان لحكم ربه (وفيها تربية للضمير ، واستحضار للرقابة الالهية ، وتعويد على حفظ الايمان والكف عن بعض المخالفات [٢] .

وعن أنواع الكفارات ودورها الأجتماعى أيضاً يرى الشيخ محمد أبو زهره ـ رحمة الله ـ ان السلام جعلها بمثابة التعاون الاجتماعى ، فمن أفطر فى رمضان بغير عذر شرعى فعليه عتق رقبة ، أو صيام ستين يوما أو إطعام ستين مسكينا ومن

---

(١) نفسه ص ١٠٥ .

(٢) نفسه ص ٩٧ .

قال لامرأته أنت حرام عليّ كأمّي لا يقربها إلا إذا أعتق رقبة أو صام ستين يوما أو أطعم ستين مسكيناً ، ومن حلف وحنث فى يمينة كان عليه عتق رقبة أو إطعام عشرة مساكين أو كسوتهم [1]

٥ ـ الالزام بوازع الرأى العام :

ومن الاساليب التى امتاز بها القرآن فى التربية ، هو الأخذ بمبدأ الامر بالمعروف والنهى عن المنكر على قدر الطاقة ، ولا يسيما فى النهى عن منكرات الاخلاق التى لا تمتد اليها يد القوانين ، والحديث أيضاً يؤيد هذا الاسلوب وهو قول النبى ﷺ (من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فان لم يستطع فبلسانه ، فان لم يستطع فبقلبه) .

ويعتمد هذا الالزام على استثارة غريزة حب الظهور والرغبة فى الثناء ولاخوف من الذم ، وهذه من حكم القرآن التى تحول طاقة الغرائز ، وتعمل على اعلائها الى الخير بالاسلوب الذى اكتشفه علماء النفس بعد قرون عديدة [2] .

لقد أخذ القرآن بأساليب التربية التى تعتمد على نظرة الاعلاء للغرائز ، مثل تحول المقاتلة للنهب والسلب الى الدفاع عن الوطن والمستضعفين والشرف ، وغريزة حب الظهور بالكرم والسخاء ، والتبذير الى الانفاق فى سبيل الله ، وغريزة حب الظهور ومدح الناس ، لتوجيه الانسان الى عمل الخير وصرفه عن الشر .

ونسطيع أن نختار بعض الآيات التى تشير الى هذه المعانى فى النفس البشريه ، مثل قوله تعالى ﴿ **ان النفس لأمارة بالسوء** ﴾ يوسف ٥٣ ، تشير الى

---

(١) كتاب (تنظيم السلام للمجتمع) للشيخ محمد ابو زهرة ص ٢١
ط دار الفكر العربى ـ بدون تاريخ

(٢) القرآن فى التربية الاسلامية / الشيخ نديم الجسر ص ١٠٦

جمــوح الغرائز والشهوات .

﴿ **وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو** ﴾ البقرة ٣٦ ـ اشارة الى غريزة المقاتلة وتنازع البقاء .

﴿ **وكان الانسان أكثر شئ جدلا** ﴾ الكهف ٥٤ ـ اشارة الى غريزة حب الاستطلاع ، والبحث والانسياق مع هوى النفس .

﴿ **ان الله لا يحب كل مختال فخور** ﴾ لقمان ١٨ ، ﴿ **ان الانسان ليطغى ان رآه استغنى** ﴾ العلق ٦ ، ٧ ﴿ **لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب** ﴾ آل عمران ١٨٨ .

وهذه الآيات تشير الى غريزة حب الظهور والاستعلاء والتفاخر .

وقد ارتقى القرآن بالنفس البشرية الى اسمى الغايات ، حتى يصبح العمل ابتغاء مرضات الله (بل أنه بلغ من عناية القرآن باعلاء نفس المسلم فحصر أعظم المدح واوثق الوعد والرضوان والنجاه من نار جهنم بالاتقى الذى ينفق اكراما لوجه ربه الأعلى)[1] .

٦ ـ الالزام بوازع السلطان :

وقد لا يصلح مع بعض الناس طرق الالزام السابقة ، فقد لا يكفى وازع العقل وحده عند جميع الناس ، كما لا يكفى وازع الضمير عند الغارقين فى الجرائم والآثام ، والترهيب لا يحقق هدفه مع المفضلين للعاجلة ، أو المعتمدين على رحمة الله عز وجل بلا تفكير فى أن الرحمة لا تناقض العدل والحكمة البالغة ، ووازع الرأى العام لا يؤتى ثماره مع الذين جف فى وجوههم ماء الحياء من الله ، والناس لا

(١) نفسه ص ١٠٦ ، ٤٨ ، ٥٠ ، ٦٢ .

سيما عندما يعم البلاء ، كما يضرب الله المثل بما حدث للذين كفروا من بنى اسرائيل حيث ﴿ **كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون** ﴾ المائدة ٧٩ .

لذلك كان لا بد من وازع أعظم ، وهو وازع السلطان ، حيث قيل إن الله يزع بالسلطان مالا يزع بالقرآن (وهى العقوبات المختلفة التى فرضها القرآن على بعض الجرائم ، وفوض أمرها الى الحكام) [١] .

وأخيراً فاننا نرى أن القرآن جمع الوازعات كلها حول الانسان ، ولم يكتف بنوع واحد منها أو اثنين ، كما اكتفت الشرائع والقوانين الاخرى ، اذ أن وازع السلطان أيضاً قد لا يمتد الى بعض الجرائم التى تخفى عليه (أو يفلت من يد العدالة من ضعف الحكومة أو فقدان الادلة أو فساد القضاء) [٢] .

واجتماع الوازعات كلها قد يكفى عند أكثر الناس ، لأن احاطتها بالانسان تردعه وتزجره وتنهاه .

رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الأسوة الكاملة :

قال تعالى ﴿ **لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة** ﴾ .

واذا كانت أخلاق الانسان هى المرآة الصافية لسيرته ، فها هو القرآن الكريم يشهد لمحمد صلوات الله عليه بأنه قد تحلى بمكارم الاخلاق ، وأنه أرفع قدراً ، وأعلى مكانة من سائر البشر لما هو عليه من جليل الاعمال ، وقويم الاخلاق ، ولذا فقد أذاع بين أولياء الرسول ﷺ وأعدائه قوله تعالى ﴿ **وانك لعلى خلق عظيم** ﴾ [٣] .

وهناك من الصفات الخاصه التى وصف بها الرسول ﷺ مثل قوله تعالى ﴿ **فبما**

---

(١) نفسه ص ١٠٦ . (٢) نفسه ص ١٠٧ .

(٣) الرسلة المحمدية : سليمان الندوى ص ١٠٤ .

رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لا نفضوا من حولك ﴾ وهى شهادة على صفاته فى الرحمة والرأفة ، كما قال الله عز وجل فيه ﴿ **لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤف رحيم ﴾** ، وقوله سبحانة ﴿ **وما ارسلناك الا رحمة للعالمين ﴾** وفى هاتين الآيتين قد وصفه ربه بما وصف نفسه [١]

ثم هناك شهادات زوجاته واصحابة . ومن المعروف ان الزوجة اعرف من غيرها بصفات زوجها واخلاقة ، وها هى السيدة خديجه رضى الله عنها عندما أخبرها بخبر الوحى ، صدقته وآمنت به ، وأدخلت الطمأنينة على قلبه بقولها (ان الله لا يخذيلك ، فانك تصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتنصر المظلوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق) .

وفى وصف السيدة عائشة رضى الله عنها له (انه لم يكن يعيب احدا ، ولا يجزى على السوء بسوء ، بل كان يعفو ويصفح ، وكان بعيداً عن السيئات . انه لم ينتقم من أحد لنفسه ، ولم يضرب غلاما ولا أمة ولا خادما قط ، بل لم يضرب حيوانا ، ولم يرد سائلا الا اذا لم يكن عنده شئ) [٢] .

وقال أنس بن مالك رضى الله عنه (خدمته عشر سنين ، فما قال لى أف قط ، ولا قال لشئ فعلته لم فعلته ؟ ولا لشئ لم افعله الا فعلت كذا ؟) [٣] ، وعنه ايضاً قـال (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم احسن الناس خلقاً) متفق عليه.

ويذهب ابن القيم الى ان الاسمين (احمد أو محمد) اشتقا من اخلاقه وخصائص المحمودة (التى لاجلها استحق ان يسمى محمداً ﷺ وأحمد ، وهو

---

(١) الوحى المحمدى : محمد رشيد رضا ص ١١٤ المطبعة السلفية . (٢) نفسه ص ١٠٧ .

(٣) مختصر منهاج القاصدين : المقدسى ص ١٤٤ والحديث متفق عليه .

الذى يحمده اهل السماء ، وأهل الارض ، وأهل الدنيا والآخرة ، لكثرة خصائلة المحمودة التى تفوق عدد العادين واحصاء المحصين) [1] .

وان كل من قرأ عن سيرته ﷺ ، ليتفق فى الرأى مع ابن القيم بلا ادنى تردد ، فمن المسلم به ان الباحث ليعجز أن يجمع فى هذا الحيز الضيق من الكتاب كل فضائلة وأخلاقة التى تجل عن الوصف والاحصاء ، ولكن لا بأس من ان نذكر بعض محاسن الاخلاق ، التى نوجزها - كما فعل المقدسى بوصفه بأنه (كان رسول الله ﷺ احلم الناس واسخى الناس واعطف الناس ، وكان يخصف النعل ويرقع الثوب ويخدم فى مهنة اهله .. وكان يجيب دعوة المملوك ، ويعود المرضى .. ولم يشبع من خبز بر ثلاثة ايام تباعاً .. لا يجفو على احد ، ويقبل معذرة المعتذر اليه ، يمزح ولا يقول الا حقا ، لا يمضى عليه وقت فى غير عمل لله تعالى ، وما ضرب أحدا بيده قط ، الا ان يجاهد فى سبيل الله ، وما انتقم لنفسه الا ان تنتهك حرمات الله ، وماخير بين شيئين الا اختار أيسرهما ، الا أن يكون مأثماً أو قطيعة رحم ، فيكون أبعد الناس منه ... الخ .) [2] ،

وعلينا ان ننظر فى القرآن لنستخرج الآيات التى تدل ان كل ما جاء به فقد أمتثله الرسول ﷺ ومثّله للناس بفعله وبيّنه بقوله ، أى أن كافة افعاله واقواله مستمدة من القرآن فما (من حكم أو توجيه فى القرآن الا وقد بيّنه الرسول ﷺ للناس بقوله وعمله وخلقه هديا وسمتا) [3] . فمن حيث الاقوال ، فان هذا معنى قوله تعالى **﴿ لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى ﴾** ، ومن حيث خلقه ، فقد أوجزته السيدة عائشة رضى الله عنها عندما سألها بعض الصحابة أن تصف لهم أخلاق

---

(١) زاد المعاد فى هدى خير العباد : ابن القيم جـ ١ ص ٢٢ .

(٢) مختصر منهاج القاصدين : المقدسى ص ١٤٣ - ١٤٤ .

(٣) الرسالة المحمدية : سليمان الندوى ص ١٠٦ المطبعة السلفية .

رسول الله ﷺ وتصرفاته ، فأجابتهم (ألم تقرآوا القرآن الكريم ؟ لقد كان خلق رسول الله ﷺ القرآن . وهكذا نفهم من عبارتها ، على ايجازها وعمقها . انه اذا كانت آيات القرآن وسوره أصوات وكلمات ، فإن عمل الرسول ﷺ وخلقه معانيها وتفسيرها [1] .

ومن حيث الاخلاق ، فقد فهم الاوائل من قوله تعالى ﴿ **وانك لعلى خلق عظيم** ﴾ ان الخلق بمعنى الدين ، وهذا ما عبر كل من ابن عباس وابن عيينه واحمد بن حنبل رضى الله عنهم حيث قالوا (على دين عظيم) وفى لفظ عن ابن عباس (على دين الاسلام) ، وهو أيضاً معنى قول السيدة عائشة السالف الذكر وكذلك قال الحسن البصرى . أدب القرآن هو الخلق العظيم .

ويميل ابن القيم الى ترجيح تفسير ابن عباس رضى الله عنهما بأن الخلق هو الدين . شارحاً عبارة السيد عائشة رضى الله عنها السالفة الذكر ، اذ أن أخلاق رسول الله ﷺ مقتبسة من مشكاة القرآن ، فكان كلامه مطابقاً للقرآن تفصيلاً له ، وتبيناً ، وعلومه علوم القرآن ، وارادته وأعماله ما أوجبه وندب اليه القرآن واعراضه وتركه لما منع منه القرآن ، ورغبته فيما رغب فيه ، وزهده فيما زهد فيه ، وكراهته لما كرهه ، ومحبته لما أحبه ، وسعيه فى تنفيذ أوامره ، وتبليغه والجهاد فى اقامته ، فترجمت أم المؤمنين لكمال معرفتها بالقرآن وبالرسول ﷺ ، وحسن تعبيرها عن هذا كله بقولها : كان خلقه القرآن . وفهم هذا السائل لها عن هذا المعنى ، فاكتفى به واشتفى) [2] .

هذه هى سيرته العطرة ﷺ .

---

(١) امراض القلوب وشفاؤها : ابن تيمية ص ٢٤ المطبعة السلفية .

(٢)التبيان فى اقسام القرآن : ابن القيم ص ١٣٦ . تصحيح وتعليق طه يوسف شاهين ـ مكتبة أنصار السنة المحمدية بعابدين بمصر ١٣٨٨ هـ ـ ١٩٦٨ م .

أما أحاديثه صلوات الله عليه فى الحث على مكارم الاخلاق فهى كثيرة جداً منها قوله (البر حسن الخلق ، والاثم ماحاك فى صدرك وكرهت ان يطلع عليه الناس) رواه مسلم

وقوله ﷺ (إن من خياركم أحسنكم أخلاقاً) متفق عليه

وفى تقديره لقيمة الخلق يوم القيامة قال (ما من شئ أثقل فى ميزان العبد المؤمن يوم القيامة من حسن الخلق ، وان الله يبغض الفاحش البذئ) رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح كذلك سئل صلوات الله عليه عن أكثر ما يدخل الناس الجنة قال (تقوى الله وحسن الخلق) [1] وفى حديث آخر (أكمل المؤمنين ايمانا احسنهم خلقاً) [2] ونفهم من الحديث الآتى مدى اهمية الاخلاق فى ميزان العمل الصالح والعبادة ، حيث يقول ﷺ (ان المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم) [3] .

سيرته ﷺ باقية خالدة :

إن افضل انبياء الله هم المرسلون منهم ، وافضل المرسلين هم اولو العزم كما قال تعالى ﴿ **شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذى أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه** ﴾ وقال تعالى ﴿ **واذا أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وابراهيم وموسى وعيسى بن مريم واخذنا منهم ميثاقاً غليظاً** ﴾ فأولو العزم هم ، نوح ، وابراهيم ، وموسى وعيسى ومحمد ﷺ

وافضل أولى العزم هو خاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم فانه (امام المتقين

---

(١) رواه الترمزى وقال حديث حسن صحيح (٢) رواه الترمزى وقال حديث حسن صحيح

(٣) رواه ابو داود (ينظر كتاب رياض الصالحين للنووى باب حسن الخلق)

وسيد ولد آدم ، وامام الانبياء اذا اجتمعوا ، وخطيبهم اذا وفدوا .. شفيع الخلائق يوم القيامة) [1] .

ولكونه خاتم الانبياء والمرسلين ، فقد حفظت سيرته بدقائقها، وتفاصيلها لتتضح للناس كافة، ولكى تتحقق فيها الاسوة الكاملة الخالدة الى يوم القيامة، فهو القائل (ان مثلى ومثل الانبياء من قبلى كمثل رجل بنى دارا فأتمها وأكملها الا موضع لبنة فجعل الناس يدخلونها ويتعجبون منها ويقولون لولا موضع اللبنة ، فانا موضع اللبنة جئت فختمت الانبياء) رواه مسلم .

ومن هنا يتضح ايضا ان هدف الرسالات الالهية هو هدف أخلاقى [2] . ولكن ، بقى ان رسالة خاتم الانبياء عليه الصلاة والسلام ، قد حفظت على مر الاجيال ، وان سيرته ستظل كذلك بسبب عموميتها للناس كافة ، ولكى يتيسر اتخاذها قدوة للبشر جميعا فى كافة الظروف والاحوال على مدى العصور . لقد اتمها بسلوكه وبرسالته (انه لم يبعث لينشر الاخلاق الكريمة فحسب ، وانما بعث ليتمم مكارمها) [3] .

ان المسلمين يؤ منون بكافة الرسل ، مع علمهم بأنهم متفاضلون (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض) ، ولم يتم البقاء الا لسيرة آخرهم عليه الصلاة والسلام (اما غيره من الانبياء فلم تختم النبوة بأحد منهم ، ولم تكن سيرتهم خالدة .. وكانت حياتهم اسوة للذين ارسلوا اليهم فى عهدهم) [4] .

---

(١) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان : ابن تيمية ص ٢٥ المطبعة السلفية .

(٢) الاتجاه الأخلاق فى الأسلام : المقداد يالجن ص ٤٨ .

(٣) شخصية المسلم ك د. عبد الحليم محمود ص ١٣٨ .

(٤) الرسالة المحمدية : سليمان الندوى ص ٢٦ .

على انه من الواضح ان سيرته صلى الله عليه وسلم قد حفظت للانسانية كاملة ، بخلاف سيرة الانبياء والرسل عليهم السلام قبله

وما من شك في تمتع الانبياء - عليهم السلام - جميعا بمعالى الاخلاق ما يجعلهم في اعلى المراتب الاخلاقية ، اذ يظهر في كل منهم معالم اخلاق تبرزه عن غيره ، فيظهر حماس نوح في تبليغ الدين ، وشدة عناية ابراهيم بأمر التوحيد ، وعرف الايثار عن اسماعيل وكان جهاد موسى في مواجهة فرعون وقومه جهادا عظيما حيث آزره أخوه هارون ، وظهر يونس مقرا بذنبه فاستغفر وأناب ، وكان يعقوب راضيا بأمر ربه ، وكان سليمان حكيما ، وظهرت من يحيى خصال العفاف وطهارة النفس ، وكان عيسى زاهدا في الدنيا ، وامتاز أيوب بالصبر على الآلآم ، وهذه الخصال العالية هي التي تسعى البشرية للتحلي بها [1] .

ولكن بسبب عدم معرفتنا بدقائق اخبارهم وأحوالهم فهذا ما يحول بين اتخاذهم اسوة كاملة، حيث يشترط ان تكون جميع نواحي الحياة في الشخصية المقتدى بها معلومة ، (ان المقتدى به والذى يتخذ الناس من حياته أسوة لابد أن تكون حياته كلها واضحة صافية كالمرآة ، وليلها كنهارها ، لتتبين للناس المثل العليا التي يحتدونها في حياتهم بجميع أطوارها ومناحيها) [2]

ولا نجد هذا متحققا الا في خاتم الانبياء والرسل محمد صلى الله عليه وسلم ، حيث توافرت في سيرته أربع خصال هي :

١ـ ان التاريخ الصحيح الممحص يصدقها ويعضدها .

٢ـ انها سيرة جامعة محيطة بمناحي الحياة وجميع شئونها وأطوارها

٣ ـ انها كاملة متسلسلة لا ينقصها اى حلقة من حلقات الحياة

(١) نفسه ص ٢١ ، ص ٩٠ (٢) نفسه ص ٣٠

٤ ـ وهى عملية بحيث يعبر بها عن الفضائل والواجبات، وقد حقق النبى ﷺ بسيرته كافة هذه الفضائل والواجبات التى نادى نها ، فأصبحت افعاله واخلاقه مثلا عليا للناس. وتظهر هنا الحكمة الالهية من افتقادنا للسيرة الكاملة للرسل والانبياء قبله حيث بعثوا لأممهم خاصة ، ولم تبق الحاجة لاستمرار سيرتهم فى أمم أخرى بعدهم . ولكن الحاجة كانت ماسة لبقاء سيرة محمد ﷺ مسجلة ومعلومة الى قيام الساعة(ليتيسر التأسى بها لجميع أمم الارض. وهذا من أصدق البراهين على كونه صلوات الله عليه خاتم النبيين ولا نبى بعده ﴿ ما كان محمد ابا احد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين ﴾ [1].

والتاريخ لم يحفظ لنا تاريخ غيره من الانبياء والرسل، حيث لانعلم الا بعض سيرهم وهو لايكاد يكفى ، لان الذى نجهله عنهم اكثر بكثير مما نعلمه بينما يحتاج من يريد ان يتخذ من سيرتهم اسوة ، ان يعرف جميع اطوار حياتهم وادوارها [2]

اننا اذ رجعنا الى حياة المرسلين، فاننا لا نعرف الا القليل عنهم ، ومن اكثر الانبياء ذكرا موسى عليه السلام ، ولكننا لا نعثر فى أسفار التوراة الا على وقائع متناثرة كتربيته فى قصر فرعون ، ومناصرة قومه بنى اسرائيل على ظلم فرعون ، وخروجه على غفلة من فرعون بصحبة قومه ، واجتيازه البحر حيث وجد طريقا باذن الله ، وغرق فرعون بعد ان تبعه

اما تاريخ عيسى عليه السلام ، وهو أقرب الانبياء عهدا بالاسلام ، فان الروايات التى بلغتنا لا تتعدى ثلاث سنوات من أواخر حياته عندما جادل اليهود وناظرهم ، هذا فيما عدا ما نعلمه أن مولده ، والآيات التى أراه الله اياها (ثم غاب عن الناس

(١) الرسالة المحمدية سليمان الندوى ص ٤٢ (ايه ٤٠ من سورة الأحزاب)

(٢) نفسه ص ٢٩

وظهر لهم وهو فى الثلاثين من عمره)[1]

هذا الى جانب اننا نفتقد فى سيرة الرسل والانبياء كافة الاعمال والاحوال التى نعثر عليها ماثلة متحققة بواسطة القائمين بها (ان العالم الذى يحتاج سكانه فى حياتهم الى أسوة تامة ليعلموا كيف تكون الرابطة بين الزوج وزوجته ، وبين الصديق وأصدقائه ، والاب وبنيه ، والمقاتل واعدائه ، والهدنة بين المتحاربين ، وكيف تنعقد ... الخ . ويريد نموذجا عاليا يأتم به اذا عبد ربه ، أو عاشر الناس ، ويحاول ان يلم بالقوانين التى ينبغى العمل بها بالنسبة الى الراعى والرعية والحكام والمحكومين ...[2] ،الى غير ذلك من الاعمال التى يحتاج فيها البشر الى قدوة فى شتى نواحى الحياة. ان هذا المثال لا نجده الا فى حياة محمد ﷺ ، حيث اختصت سيرته بالشمول ، وتناول كافة جوانب الحياة الانسانية ، فكانت حقا سيرة جامعة . أضف الى ذلك ان ما وهبه الله سبحانه الرسل جميعا قد اوتيه محمد ﷺ وحده (وأن ما تفرق من مكارم الاخلاق فى الرسل قد اجتمع فيه) [3] .

ويقول ابن حزم (من أراد خير الآخرة ، وحكمة الدنيا ، وعدل السير ، والاحتواء على محاسن الاخلاق كلها ، واستحقاق الفضائل بأسرها ، فليقتد بمحمد رسول الله ﷺ ، وليستعمل أخلاقه وسيره ما أمكنه) [4] .

أما عن الحكمة من اتباع السنة فى مجال السلوك والاخلاق :

فاننا سنترك المجال لاحد المهتدين الى الاسلام وكان من اليهود وهو الاستاذ محمد اسد رحمه الله حيث يبين أن هناك أسبابا ثلاثة تؤكد ضرورة اقامة السنة وتبين أطرافا من حكمة اتباعها :

---

(١) نفسه ص ٣٥ .
(٢) الرسالة المحمدية : سليمان الندوى ص ٣٨ ـ ٤١ .
(٣) نفسه ص ٩١ .
(٤) رسالة الأخلاق : ابن جزم ص ١٩ ـ ٢٠ .

١ـ تمرين الانسان المسلم بطريقة منظمة علـى أن يحيا دائما فى حال من الوعى الداخلى واليقظةالشديدة وضبط النفس . وهذه ميزة الاقتداء برسول الله ﷺ فى حركاته وسكناته . ان هذا الانضباط السلوكـى وفقا لسنته يؤدى الى التخلص من الاعمال والعادات العفوية التى تعرقل النشاط الانسانى عن التقدم ، يقول محمد أسد (ان الاعمال والعادات التى تقوم عفو الساعة ، تقوم فى طريق التقدم الروحى للانسان كأنها حجارة عثرة فى طريق الجياد المتسابقة ٠

٢ـ تحقيق النفع الاجتماعى للمسلمين ، لانهم باتباع السنة (أى المنهج النبوى فى الحياة) تصبح عاداتهم وطباعهم متماثلة مهما كانت أحوالهم الاجتماعية والاقتصادية متنافرة .

٣ـ ضمان الهداية الى الحياة الانسانية الكاملة الكفيلة بتحقيق السعادة والحياة الطيبة لانه صلى الله عليه وسلم يعمل بوحى الهى ، وقد أرسل رحمة للعالمين وليس هاديا من الهداة فحسب ، ولكنه ـ وحده ـ الهادى الى طريق مستقيم .

وعلى هذا تصبح شخصيته ﷺ متغلغلة الى حد بعيد فى منهاج حياتنا اليومية نفسه ، ويكون نفوذه الروحـى قد أصبح العـامل الحقيقى الـذى يقـودنا طول الحياة[١] .

وما أحوجنا الى اتباع سنة الرسول ﷺ لمقاومة الحملات المعادية المدروسة وفق أساليب علم النفس لصياغة الانسان المسلم صياغة لتطويـعه واخضاعه لثقـافة الغرب وطرق حـياته[٢] .

---

(١) الاسلام على مفترق الطرق : محمد اسد ص ١٠٤ ـ ١١٠ ط دار الملايين ، بيروت .

(٢) الانسان ذلك المجهول : الكسيس كارليل ص ٣٢٤ (ترجمة شفيق أسعد فريد)

هذا الأسلوب الذى كان يتبع بواسطة انشاء معاهد يمكن ان يشكل فيها الجسم والعقل طبقاً للقوانين الطبيعية حيثما رأى الدكتاتوريون ان من المفيد تكييف الأطفال تبعا لنظام معين .

ويقول كارليل (ان كل فرد يملك القوة على تعديل طريقته فى الحياة ، وأن يفرض على نفسه أنظمة فسيولوجية وعقلية معينة ، وعمل معين ، وعادات معينة ، كذا اكتساب السيطرة على بدنه وعقله ، ولكنه اذا وقف وحيدا فلن يستطيع أن يقاوم بيئته المادية والعقلية والاقتصادية الى مالا نهاية) (١) .

ولنا أن نفخر معشر المسلمين بسنة الرسول ﷺ التى تحقق لنا ــ عند اتباعها ــ المحافظة على مقوماتنا الذاتية وأصالتنا والارتقاء بسلوكياتنا وأخلاقنا ، بل من عوامل سعادتنا أيضا أن (نتدين) ونتقرب الى الله تعالى عندما نفرض على أنفسنا الانظمة والعادات ونكتسب السيطرة على أبداننا وعقولنا عندما نقتدى بنبينا عليه الصلاة والسلام ، ذلك لأن سنته من قبل الوحى الالهى ، وهو الاسوة الكاملة فى تحقيق السعادة للانسان بناء على معرفته له حق المعرفه ، بينما عجزت البشرية حتى القرن العشرين ــ وسيكون ذلك حالها لأن المعرفة الصحيحة بالانسان ينبغى أن تستمد من خارج نطاق العقل الانسانى وتجاربه أى الوحى (٢) .

* * *

(١) نفسه ص ٣٣٠ ــ ٣٣١ .

(٢) يقول كارليل (يجب ألا يغيب عنا أن معرفتنا بالانسان مازالت بدائية وان معظم المعضلات مازالت بدون حل) نفسه ص ٢٢٦ .

الفصل الثاني

علماء الاسلام والقضايا الأخلاقية

[شخصيات مختارة]

١ ـ الراغب الأصفهاني .

٢ ـ الامام ابن القيم .

٣ ـ الامام عبد الحميد بن باديس .

٤ ـ الامام ولى الله الدهلوى .

علماء الاسلام والقضايا الأخلاقية

تمهيد :

قبل الخوض فى موضوعنا نرى لزاما علينا ايضاح الفرق بين الفلسفة والحكمة أولا، ثم العودة للتمييز بين منهج البحث فى الأخلاق عند كل من الفلاسفة وعلماء الاسلام الذين اهتموا بجانب الحكمة .

وسنعود مرة أخرى لعقد مقارنة تمهيدية لبيان الاختلاف فى المنهج ، أى من حيث طرق وأساليب البحث والنظر الى الانسان من حيث مكوناته ودوافعه وأهدافه ، فعندما اختلف الفلاسفة فى المنهج اختلفت بهم النتائج .

هذا فضلا عن الجهل بحقائق الوحى الالهى الذى يرشد الانسان الى الطريق الاقوم فى الاخلاق والاجتماع والسياسة والنظم.

أولا : الفرق بين الفلسفة والحكمة :

استعمل الفلاسفة الى جانب كلمة (فلسفة) المترجمة من اليونانية كلمة (حكمة) العربية وما اشتق منها مثل (حكمة وحكيم وعلوم حكمية)[1] .

وقد أوردت المصادر المختلفة هذه الكلمات فى موضعها فى وصف الحكماء وأهل الحكمة (وخزانة الحكمة) .. فوصف خالد بن يزيد بن معاوية (٨٥ هـ - ٧٠٤م) بأنه يسمى حكيم آل مروان وله همة ومحبة للعلوم ، وأنه قرب أهل الحكمة ورؤساء أهل كل صناعة ، كما أن المأمون كان له خزانة الحكمة وتحوى كتب الفلاسفة التى نقلت للمأمون من جزيرة قبرص [2] .

---

(١) تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية : مصطفى عبد الرازق ص ٤٥ .

(٢) نفسه ص ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ .

ويكاد يتفق اللغويون على أن الحكمة تتكون من عنصرى العلم والعمل ، فان الحكمة ـ لغة (اسم للعلم المتقن والعمل به . ألا ترى أن ضده السفه ، وهو العمل على خلاف موجب العقل ، وضد العلم الجهل ؟) [(١)] .

وقد استخدمت كلمة (حكمة) وما أخذ منها بواسطةالعرب قبل الاسلام فكانت تدل على وجهة التفكير عند العرب ، كما تطلق على الحكام أى ذوى الامر والحكم والفتوى ، وعبر بها أيضا عن أهل الطب [(٢)] .

فإذا انتقلنا الى النظر فى الآيات القرآنية فاننا سنستدل منها على ما فهمه المفسرون أيضا حيث وردت (حكمة) في كثير من المواضع .

قال تعالى **﴿ ويعلمهم الكتاب والحكمة ﴾** (آية ٦٢ آل عمران) .

فالحكمة هنا بمعنى «اسرار الامور وفقه الاحكام وبيان المصلحة فيها، والطريق الى العمل بها ، ذلك الفقه الذى يبعث على العمل ، أو هى العمل الذى يوصل الى هذا الفقه فى الاحكام أو طرق الاستدلال ومعرفة الحقائق ببراهينها لأن هذه الطريقة هى طريقة القرآن» [(٣)] .

وقد اطلق البعض اسم (الحكماء) على الآمرين بالقسط وذلك فى قوله تعالى **﴿ ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس ﴾** آية ٢٠ـ ٢١سورة آل عمران فإن الذين يأمرون بالقسط (هم الحكماء الذين يرشدون الناس الى العدالة العامة ويجعلونها روح الفضائل وقوامها، ومرتبتهم فى الهداية والارشاد تلى مرتبة الانبياء) [(٤)]. فالآمرون بالعدل هم الحكماء الذين لم تخل منهم المجتمعات الانسانية منذ بدء الخليقة . قال تعالى **﴿ فلولا كان من القرون من قبلكم أولو**

---

(١) نفسه ص ١٠٦ . (٢) نفسه ص ١١١.

(٣) تفسير المنار جـ ٤ ص ٢٢٣ . (٤) تفسير المنار جـ ٣ ص ٢٦٢ ـ ٢٦٣ .

بقية ينهون عن الفساد فى الارض الا قليلا ممن أنجينا منهم واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ﴾ سورة هود ١١٧، ١١٦ القرون : هى الأجيال والشعوب ، أولوا بقية : أصحاب بقية من دين وتقوى وعقل وحكمة) .

وجاء فى تفسير (المنار) أن المراد من التخصيص فى الآية الاولى النفى ، أى أنه كان ينبغى أن يقوم فى القرون الذين كانوا قبل ظهور الاسلام بالاصلاح العام أصحاب بقية من دين موسى وعيسى وغيرهم من الانبياء عليهم السلام أو حكماء العقلاء الذين فسر بهم الآمرون بالعدل فى قوله **﴿ ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس ﴾** [1] .

وقد أعطى الشيخ محمد عبده الحكمة معنى التدبر والتعقل ، مع توضيح الصبغة العملية لاتصالها بالفقه ، والى هذا المعنى أيضا يذهب الامام عبد الحميد بن باديس ، فيرى أن الحكمة هى (العلم الصحيح الثابت المثمر للعمل المتقن المبنى على ذلك العلم) [2] .

ووردت كلمة الحكمة فى موضع آخر بمعنى فقه مقاصد الكتاب وأسراره ومعرفة مجال التطبيق والتنفيذ فى المجتمعات البشرية على مدى العصور، وهى بهذا المغزى أعم وأشمل من الفلسفة قال تعالى **﴿ وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم ﴾** ١١٢ سورة النساء [3] .

كما يتضح الاختلاف بين الفلسفة - والحكمة بأن الاولى لم يستجب لها فى الزمن الطويل الا قليل من طلاب الفلسفة اذ لا تتمتع الفلسفة بالهداية التى يتمتع

---

(١) تفير المنار جـ ٩ ص ٢١ . دار المنار ١٣٦٧ هـ .

(٢) ابن باديس : حياته وآراؤه جـ ١ ص ١٨٣ ، ٢٧٩ . (٣) تفسير المنار جـ ٤ ص ٤٠٢ .

بهـا الوحى من السلطان على القلوب والارواح [١] . وهذا يتضح من دعوة خاتم الانبياء عليه الصلاة والسلام ـ فضلا عن تأييد الوحى ـ بأنها تتميز بأركان ثلاثة كما يتبين من قوله تعالى **﴿ ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن ﴾** ١٦ آ ١٢٥ .

فجمعت الآية بين الوسائل التى يمكن بها الاقناع والارشاد ، فلا اعتماد على العقل وحده والاكتفاء بالحث على النظرالعقلى وهى من سمات الخاصة وانما ينصرف معنى الحكمة فى الآية الى ما (يدعى به العقلاء وأهل النظر من البراهين والحجج) وأضيف اليها الموعظة أى (ما يدعى به العوام والسذج) ، ثم الجدل بالتى هى أحسن وهو منهج الدعوة (للمتوسطين الذين لم يرتقوا الى الاستعداد لطلب الحكمة ولا ينقادون الى الموعظة بسهولة) [٢] .

وتفسير الحكمة بالنظر والعمل لا يتعارض مع القائلين بأن معناها (السّنة) التى فسرها بها كثيرون ، ومنهم الامام الشافعى ، لأن السّنة هى المفصّلة لكتاب الله تعالى وهى الموضحّة للأركان العملية للاسلام. وعن مالك أنها ـ أى الحكمة ـ (معرفة الدين والفقه فيه والاتباع له)[٣] .

وقيل أيضا بأن الحكمة هى (تهذيب الاخلاق) [٤] .

ويرى الراغب الاصفهانى أن الحكمة هى أشرف منزله العلم ، مفسرا لقوله تعالى **﴿ ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم * انك أنت العزيز الحكيم ﴾** البقرة ١٢٩ ، حيث يتقيد بترتيب الآية ومطابقتها فى الوقت نفسه للمنهج الذى اتبعه النبى ﷺ ، فقد أتى ـ

(١) تفسير المنار جـ ٤ ص ٤٠٩ .

(٢) تفسير المنار جـ ٣ ص ٢٦٣ .

(٣) تفسير القاسمى جـ ٢ ص ٢٥٩ .

(٤) تفسير القاسمى جـ ٣ ص ٨٤٦ .

بعد اعلانه النبوة ـ بالآيات الدالة على نبوته ، ثم أخذ فى تعليمهم حقائق الكتاب لا ألفاظه (ثم بتعليمهم الكتاب يوصلهم الى افادة الحكمة وهى أشرف منزلة العلم) مستدلا على ذلك بقوله عز وجل **﴿ ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً** البقرة ٢٦٩) .

وللحكمة أيضا درجاتها عند الراغب الاصفهانى ، حيث يصير بها الانسان مزكى ـ أى مطهرا ـ (مستصلحا لمجاورة الله عز وجل) [١] .

وأخيرا قد يظهر الفرق بين الفيلسوف والحكيم ، استنتاجا من الآ يات السابقة ، أن الاول يعتنق نظرية فلسفية وقلما يعمل بها أو يخلص لها ، بل قد يؤثر هواه ومنفعته بينما الحكيم يصل الى أعلى مراتب العلم النافع والعمل الصالح فإنه (المؤمن الفقيه فى دينه) [٢] .

ثانياً : المنهج عند الفلاسفة :

لن نعود الى الحديث عن مذاهب الفلاسفة فى الاخلاق مرة أخرى ولكن سنقتصر هنا على عرض مقارنة عامة بين منهجهم ومنهج علماء الاسلام وحكمائه.

فاذا نظرنا الى الاخلاقيات الغربيه من الاتجاهين ـ الغائى والموضوعى ـ فان منها مذاهب غائية تحكم على الفعل الخلقى بالاستناد الى آثاره أو نتائجه وأشهرها مذهب اللذة عند أرستبس وأبيقور قديما أو مذهب المنفعة حديثا (ويعتبره الدارسون التصحيح العقلى لمذهب اللذة . وهناك أخلاق السعادة عند أرسطو وهى الخير الأقصى تُقصد لذاتهاوهى كافية بنفسها لاسعاد الحياة . أما الرواقيون فرأوا انحصار السعادة فى (ضبط النفس)و (والاكتفاء بالذات) و(والحكمة) أى أنه تحرر من الانفعال والتخلص من الهوى .

(١) تفسير القاسمى جـ ٢ ص ٢٦٠ . (٢) تفسير المنار جـ ٥ ص ٤٠٩ .

ولكن أبرز معالم الاتجاه الموضوعى يظهر فى مذهب كانط صاحب فكرة (قانون الواجب) الذى يحكم على الفعل الخلقى فى ذاته ـ لا بالنظر الى آثاره ونتائجه .

وتعد المدرسة الاجتماعية الاخلاقية فى العصر الحديث من أهم المدارس التى أسهمت بآراء روادها فى دراسة الاخلاق منذ (كونت) و(دوركايم) اللذان أرادا تطبيق منهج البحث فى العلوم التجريبية على دراسة الظواهر الاجتماعية من تاريخ واقتصاد وأخلاق ولغة وغير ذلك .

ويأتى فلاسفة الوضعية المنطقية فينكرون القضايا الاخلاقيه لأن الفلسفة الاخلاقية فى رأيهم لا تنطوى على أى بحث فى الواقع ، ويذهبون فى غلوهم الانكارى الى القول بأنها قضايا زائفة لا تعبر عن أى شئ قابل للتحقيق تجريبيا .

وفى ضوء هذا الانكار يرون فى الاحكام الاخلاقية مجرد « توصيات » أو « رغبات » أو « عبارات تعجب »

أما أساطين الفلسفة الوجودية أمثال كيركجارد وجبرييل مارسيل وسارتر ، فبدافع رفضهم اخضاع الفرد للحتمية الاجتاعية أو الموضوعية العلمية ، وتقديسهم للحرية باعتبارها مصدر الالزام ، أسقطوا جميع القيم من حسابهم ، فكانت فلسفتهم فى الحقيقة ضربة قاصمة للقيم والفضائل الخلقية ، وتجاوزت معاول هدمهم هذا الحد ، وهوت بالحياة الانسانية الى مشاعر القلق والعبث والغربة والضياع والفراغ واليأس !!

فهل نحن اذن أمام فلسفة أخلاقية أم تدهور أخلاقى ؟

فى رأى بارودى أن الازمة المعنوية التى تكافح فيها المدنية الغربية منذ ثلاثة قرون انما هى أزمة خلقية ، معللاً اياها بالانفصال الذى حدث بين الاخلاق والوحى الدينى ومن ثم فان الحاجة أصبحت ماسة من جديد الى سلطة ما ، والى قاعدة

خارجية والى مبادئ موضوعية [1] .

وأمام هذا التردى فى المذاهب الاخلاقية هناك ، هل يصعب علينا استقراء المغزى ؟

ان الازمة الحقيقية للفلسفة الغربية فى الاخلاق نابعة من انحراف عن المنهج الصحيح فى استمداد تصورات الانسان للقيم الخلقية ، أو اللهث وراء البحث عن اللذة أو المنفعة وخطأ تصوراته ـ أى الانسان ـ عن الهدف والمرمى من الحياة الدنيوية ، وبحثه عن أهداف كالسراب ، مع افتقاده للنظرة الصحيحة للقيم الثابتة التى نستمدها نحن من عقيدتنا ، ومن خبرة الاجيال تلو الاجيال .

ان الحياة وفقا للعقيدة الاسلامية مهما كانت زينتها فانها زائلة لا تلبث أن تتكشف عن زيف معدنها لأنها حتما الى فناء ، وتبقى آثار الاعمال الصالحة لتصاحبنا الى حياة الخلد فى الجنة ، وهى الهدف الصحيح النهائى الذى يستحق المكابدة والسعى والجهاد ، فان كل بلاء ـ دون النار عافية ، وكل نعيم ـ دون الجنة ـ حقير .

ان الطريق اذن طويل ويحتاج الى صبر ومصابرة مع العمل المستمر ، ومجابهة العقبات تلو العقبات ، فمن حديث أنس عن النبى ﷺ أنه قال (حفت الجنة بالمكارة ، وحفت النار بالشهوات) ـ رواه مسلم [2] .

وكل ما يقابله الانسان فى الدنيا من صعاب ومشقات يهون اذا عرف زوالها وانقضائها ، قال تعالى ﴿ **وما هذه الحياة الدنيا الا لهو ولعب وان الدار الآخرة**

(١) المشكلة الأخلاقية والفكر المعاصر : د. بارودى ص ٣ ، ترجمة د. محمد غلاب ومراجعة د. ابراهيم بيومى مدكور ـ ط الانجلو ١٩٥٨ م .

(٢) وفى البخارى عن أبى هريرة ، إلا أن لفظه (حجبت مكان حفت)

لهى الحيوان لو كانوا يعلمون ﴾ العنكبوت ٦٤ .

جاء فى تفسير ابن كثير : يقول تعالى مخبرا عن حقارة الدنيا وزوالهاوانقضائها، وأنهالادوام لها ، وغاية ما فيها لهو ولعب : **﴿ وإن الدار الآخرة لهى الحيوان ﴾** أى : الحياةالدائمة الحق التى لا زوال لها ولا انقضاء ، بل هى مستمرة أبد الآباد [١] .

أصول المنهج الاخلاقى لدى علماء المسلمين :

وفى ضوء بحثنا للمشكلة الخلقية نجد أنها لم تطرح بواسطة علماء المسلمين بعامة بالطريقة التى طرحت بها على مسرح الفلسفة فى أوربا سواء اليونانية قديما أو الغربية حديثا .

ولإثبات ذلك لجأنا الى طريقة المقارنه لأنها كفيلة بتوضيح سمات الفكر الاخلاقى الاسلامى ومن ثم يستطيع القارئ الفاحص التمييز بين الاصاله والتبعية حيث نرى الحاجة الماسة الى تعديل مناهج دراسة العلوم الانسانية للتوافق مع العقيدة الاسلامية وتصورها الصحيح حتى يفهمها الجيل الحاضر ويقدر قيمتها ويعرف مدى الاسهام الحقيقى الذى قام به حكماء الاسلام فى تراث الانسانية ، فيصبح دافعا له على مواصلة نفس المنهج الذى ساروا عليه فى الحياة العلمية والعملية .

وتنبع أخلاقيات الاسلام من أصلين : أولهما عقيدة التوحيد التى جددها الاسلام ونادى بها رسول الله ﷺ ، بالاضافة الى الشريعة التى أنزلها الله تعالى عليه ، فهى الاساس الضرورى للحياة الانسانية الطيبة لأنها تضع للمجتمعات البشرية النظم الملائمة لحياة الفرد وحياة الجماعة وفقا لكافة القيم الخلقية العليا .

والاصل الثانى : الايمان باليوم الآخر كضرورة توجه سلوك الانسان اذ يزوده

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٣٠١ ط دار الشعب ، تحقيق د. محمد ابراهيم البنا ، محمد احمد عاشور ، عبد الغزيز غنيم .

باستعداد نفسى للتضحية بالمتاع الزائل وتحمل الصعوبات والمشاق لبلوغ جنة الله تعالى ورضوانه ، ولا يملك ذلك الاستعداد الا من كان يؤمن ايمانا عميقاً بأن كل منا سيقف أمام الله تعالى يوم القامية ليحاسبه عما عمل فى حياته الدنيا فيكافؤه أو يعاقبه بحسب عمله .

وبخلاف هذه العقيدة وهذا الايمان فاننا رأينا كيف تدهورت الانظمة والقواعد الاخلاقية عندما قطعت صلتها بمصدر الوحى الالهى ، وتولت قيادتها أيدى البشر ، وأصبح الاحتمال القائم ـ بل الماثل للأعين ـ وقوع العالم فى ما يشبه الفوضى المؤدية الى فساد الفرد والجماعة ، وهو ما يتحقق أمام أعيننا بين شعوب العالم المسمى بالمتحضر !!

ومهما يكن من أمر ، فان عناية أصحاب الاتجاهات الاخلاقية بوضع أسس صحيحة للاقرار بالقيم والمبادئ ، وحرصهم جميعا على رفع أصواتهم محذرين ومنذرين لمجتمعاتهم من التدهور الاخلاقى ، هذا كله دليل ما بعده دليل على أن الانسان ليس جسدا وغرائز وشهوات فحسب ، ولكنه أفضل من ذلك وأسمى ، وان شقاءه الحقيقى ناجم عن عجزه عن المواءمة بين جسده وروحه ، أى بين متطلبات الجسد واحتياجاته ، وبين شوق الروح وتطلعها الى الاسمى والأفضل .

لهذا يعد موقف علماء الاسلام فى دائرة الاسلام استجابة لنداء القرآن بالنظر الى الآفاق والانفس ، وفى ضوء هذا المنهج سيتضح لنا كيف كان الراغب الاصفهانى متوافقا مع الآيات القرآنية ومستخلصا منها التصور الصحيح للانسان أثناء دورته فى الحياة الدنيا ، مرورا بابتلاءاته المتوالية حتى ينتقل الى الحياة الآخرة .

ومن النموذج الاخلاقى التطبيقى للراغب الاصفهانى سنعرف أن المشكلة الخلقية لم تطرح بواسطة علماء المسلمين بالطريقة التى طرحت بها على مسرح الفلسفة فى أوروبا سواء اليونانية قديما أو الغربية حديثاً) فباستثناء أشهر الفلاسفة

كابن مسكوية ـ ومن سار على منهجهم ممن تأثروا بالنزعة اليونانية لم ينفصل البحث فى (الاخلاق) و(القيم الخلقية) عن دراسة الانسان فى ظل شريعة الله تعالى وخضوع الانسان لهذا التشريع فى العبادة ، والسلوك والاخلاق والاعمال الصالحة جميعاً ، ولعل أول المستويات (الخلقية) لدى المسلم ينبغى أن تتحقق فى تحرى (الحلال) واجتناب (الحرام) ، هذا فضلا عن الصبغة الاخلاقية المميزة للشريعة الاسلامية كما قلنا فى المقدمة .

وقد عنى علماء المسلمين عند علاج المشكلة الاخلاقية بتفسير الكتاب الكريم وحرصوا على الاستضاءة بالسيرة النبوية لأن الاسلام جاء مخاطباً الانسان ، حاثاً اياه على الارتفاع الى المستوى الأخلاقى اللائق به ليهيأ لخلافة الله تعالى على الارض ، فرتب النماذج الانسانية قياساً على طاعة الله ورسولة ﷺ . قال تعالى **﴿ ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ﴾** النساء ٦٩ .

لذلك فاننا نلحظ أن المنهج الذى اتبعه علماء المسلمين يتصل بالتصور الصحيح لحقيقة الانسان ودرورته فى الحياة المبتدئة بخلق آدم عليه السلام ثم اهباطه الى الارض ابتلاء واختبارا ، ومصاحبته مع شريعة الله تعالى التزاما بأوامرها وتنفيذا لأحكامها ، وارتفاعاً بمستواها الانسانى الى العمل بمكارمها [١] حتى ينتقل من هذه الحياة الدنيا الى الحياة الآخرة ويعود ادراجه الى موطنه الاصلى ـ اذا اجتاز

---

(١) يميز الأصفهانى بين مكارم الشريعة والعبادات . فإن العبادات فرائض معلومة ومحددة بينما المكارم درجة اعلى من العبادات . ولا يستحق الانسان مقام (الخلافة) الا بتحرى مكارم الشريعة لأن الخلافة عند الراغب الأصفهانى (الاقتداء به تعالى على الطاقة البشرية فى تحرى الأفعال الالهيه) ، الذريعة الى مكارم الشريعة ص ٢٩ ط مكتبة الكليات الأزهرية ، مراجعة وتقديم طه عبد الرؤوف سعد ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣ م .

الابتلاء الدنيوى بنجاح ـ أى الى الجنة .

وينبغى علينا الاحتراز من التعبيرات التى تتردد فى كتب الاخلاق عند الحديث عن (التخلق بأخلاق الله تعالى) حيث تلتبس على الكثيرين ، والصحيح أن الحديث المروى عن الرسول ﷺ نصه (لله تسعة وتسعون اسماً ـ مائة الا واحدا ـ من أحصاها دخل الجنة ، وهو وتر يحب الوتر) . وفى رواية (من تخلق بصفة دخل الجنة) ـ رواه البخارى من حديث أبى هريرة .

وازاء ما نلحظه عند الاصفهانى وغيره عند استخدامهم للدعوة الى (التخلق بأخلاق الله) فاننا نرى أن أفضل تفسير لهذه الدعوة أن (الصفات فى حق الله تعالى كمال مطلق لا يحيط به بشر ، وهى حين تنسب الى الانسان نقص يتدرج نحو الكمال بقدر ما يطلبه البشر [1] .

ونعود الى المقارنة بين الاسلام كمصدر للاخلاق عن حكماء المسلمين ، وبين الدين والاخلاق فى أوروبا ، اذ يتسطيع الباحث الملم بتارخ أوروبا فى العصر الحديث تعليل بزوع عصر النهضة على النقيض من أصول قيام الحضارة الاسلامية ، فقد كانت الاولى أى الحضارة الاوروبية حركة رد فعل لكل ما هو دينى ، حيث انسلخت العلوم والآداب والنظم الاجتماعية عن الدين ، وطرحت المفاهيم الدينية جانباً وحلت محلها مفاهيم بشرية فى كفة العلوم والنظم ، ومن هنا كانت الحضارة الاوروبية وفلسفتها ونظمها منسجمة من حيث الاصول المستمدة منها ، وانحسر الدين داخل الكنائس يعالج شئون الروح . وعندما عانى أهل أوروبا فى العصر الحاضر من الاغريق فى المادية وأعجزتهم المشكلات الدنيوية بدأ البحث فى الأديان واللجوء

(١) قيم الحياة فى القرآن : محد شديد ص ٦٩ دار الشعب ٣٩٣ هـ ـ ١٩٧٣ م .

الى بيوت العبادة [1]

أما الاسلام باعتباره الحلقة الاخيرة الكاملة لدين الله تعالى ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا** ﴾ المائدة ٣ ، فانه بهذه الصفة جاء لينظم ـ وبصفة كاملة ونهائية ـ مسلك الانسان فى الحياة الدنيا المتجه الى الآخرة بالضرورة ، فكان الانسجام فى الحياة النفسية لدى المسلمين ، ولهذا لا نعثر فى صفحات التاريخ على مشكلات وأزمات نفسية وعصبية وأخلاقية عانى منها المسلمون بالصورة التى يضج منها الغرب الآن بالشكوى ذلك لأن نظم الاسلام فى عباداته وشرائعة ومبادئه قد خطت أحسن الطرق للانسان باعتبارين :

الاول ـ أن طبيعة الانسان تجمع بين الجسد والروح .

والثانى ـ الحياة الانسانية ممتده من الدنيا الى الآخرة .

---

(١) مثال ذلك ما ذكرته وكالة الأنباء الفرنسية فى تقرير لها يوم ٨ / ١ / ٨٤ من موسكو ان الكنائس الارثوذكسية فى العاصمة السوفيتية شهدت ازدحاماً شديداً لحضور قداس عيد الميلاد الذى احتفل به ليلة ٦ و ٧ يناير وهو ما فسره المراقبون بأنه دليل على استمرار وتجدد الشعور الدينى هناك رغم ازدياد الدعاية للالحاد وضغوط الحكومة على السلطات الدينية فى الآونه الأخيرة . (جريدة الأهرام ص ٤ يوم ٩ / ١ / ١٩٨٤) .

وبعد انهيار الاتحاد السوفيتى عادت الكنيسة لتأدية دورها وتثبيت قدمها كعامل هام فى التطورات السياسية لا سيما فى أحداث الاصطدام الأخير بين الرئيس الروسى والبرلمان اذ تدخل البطريرك اليكس الثانى للتوفيق بينهما . هذا ، وقد تابع العالم باهتمام ودهشة انحناء العالم الرئيس واحترامة للبطريرك ، بالرغم من ان الرئيس كان عضواً فى الحزب الشيوعى لمدة عشرين سنة . مع العلم بان تطريرك الكنيسة الأرثوذكسية الروسية يعد صاحب أعلى منصب دينى للكنيسة الشرقية ، مقابل بابا الفاتيكان

ينظر مجلة (اكتوبر ـ العدد ٨٨٥

٢٣ ربيع الثانى ١٤١٤ هـ = ١٠ أكتوبر ١٩٩٣ م ص ٢٩ .

ان الامراض النفسية المعاصرة اذن ومظاهر الانحدار الخلقى وافدة ضمن ما وفد من الغرب أى مع أساليبه ونظمه فى المذاهب والفلسفات والحياة الاجتماعية والسياسية .

**

والآن ، سنعرّف بالراغب الاصفهانى ونشرح آراءه فى كيفيه حل المشكلة الاخلاقية :

عالجنا فى مقال سابق [1] بعض رؤوس الموضوعات المتصلة بالاخلاق عند الراغب الاصفهانى ، حيث أثبت حرية الارادة الانسانية وامكان الارتقاء بالانسان الى مقام (الخلافة) عن طريق العمل بمكارم الشريعة ، وهى مرتبة أعلى من الشريعة ذاتها .

وسنحاول الآن عرض أفكار مقالنا السابق مع شرح منهجه فى ميدان الاخلاق ، وكيف أخذ بيد الانسان لمعاونته فى اجتياز طريق الحياة المليء بالمخاطر ، اذ بعد أن أرسى قواعد المنهج وحلل المشكلة الاخلاقية ، قدم لها بتحليل مسهب للانسان ومكانته بين المخلوقات والغرض الذى من أجله خلق وبيان مصيره وامكان اصلاح أخلاقه وتوجيه الارادة الانسانية الوجهة الافضل عن طريق بذل الجهد والعمل الدائب لرياضة النفس وتحسين الخلق .

وبعد كل هذه المقدمات والاصول التفسيرية التى استقرأها من فهمه للآيات القرآنية والسنة النبوية ، أصبح أمامنا الطريق ممهدا لشرح آرائه العملية فى تنفيذ ما رآه كفيلاً بتحقيق سعادة الانسان والوصول به الى حياة أفضل فى الدنيا وصولا الى

---

(١) ينظر مقالنا (الذريعة الى مكارم الشريعة كما يوضحها الراغب الأصفهانى) مجلة الدارة بالرياض (ص ٢٠٦ ـ ٢٢٧) جمادى الثانى ١٣٩٧ هـ ـ يونيو ١٩٧٧ م .

الجنة فى الآخرة .

والمنهج الذى خطه الراغب يعد جديدا وأصيلا فى نفس الوقت . اذ يرشدنا أيضا معشر مسلمى العصر الحاضر الى الطريقة التى نحقق بها الصفات الانسانية بفضائلها الاخلاقية كأحسن ماتكون فى ضوء الشرع الاسلامى ، وسنبدأ بالتعريف به قبل عرض آرائه .

الراغب الاصفهانى (ابو القاسم الحسين بن محمد) ٤٠٢ هـ :

يعد الراغب الاصفهانى من حكماء المسلمين الذين أكدوا علو مكانتهم العقلية وجهودهم البناءة فى عالم الفكر الاسلامى ، ولكنهم لم يلقوا العناية الجديرة بهم بسبب الانحصار فى دائرة بعض فلاسفة المسلمين التقليديين الذين كثر الاهتمام بهم ، وتشعبت حولهم الدراسات والابحاث ، أمثال : الكندى والفارابى وابن سينا وابن رشد وغيرهم ، فأشبعتهم الدراسات بحثاً حتى راجت أفكارهم واشتهرت أسماؤهم على حساب عدد آخر من حكماء الاسلام ، فكم من العلماء ، الحكماء الغائبين فى متاهات النسيان أو زوايا النكران ؟ !!

ولا نحب الإنسياق وراء التعليلات والتفسيرات بسوء الحظ الذى لحقهم أمواتا كما لحقهم أحياء ، فقد آلينا على أنفسنا أن نساهم بجهدنا المحدود ـ والله المستعان ـ فى مسح غبار النسيان عن بعض بناة أمجاد الثقافة الاسلامية ، بادئين بأحد حكمائها الشيخ أبى القاسم الحسين بن محمد بن المفضل الراغب الاصفهانى ، الذى جمع ثقافات عصره من لغة وأدب وتاريخ وتفسير وحديث وفقه وفلسفة وعلم كلام ومقارنة الاديان ، وكتب فى هذه العلوم عن دراية واسعة وفهم عميق . فأخرج كتابه (محاضرات الادباء ومحاورات الشعراء والبلغاء) ، الذى جمع فأوعى من كافة صنوف المعرفة والعلوم التى أحاط بها علماً ، كما تفتق ذهنه عن منهج

حديد فى تفسير القرآن الحكيم ، فرأى أن أول ما يحتاج أن يشتغل به من علومه « العلوم اللفظية » ، ومن العلوم اللفظية تحقيق الالفاظ المفردة (فتحصيل معانى مفردات ألفاظ القرآن فى كونه من أوائل المعاون لمن يريد أن يدرك معانيه ، كتحصيل اللبن فى كونه من أول المعاون فى بناء ما يريد أن يبينه) (١) . والقارئ لكتابه (المفرادت فى غريب القرآن) يقتنع بصحة منهجه .

كما أوضح لنا رأيه فى الاتجاهات الاخلاقية السائدة حينذاك واستوعبها فى كتاب ، ربما يعد من أفضل كتب الاخلاق التى ابدعتها قرائح علماء المسلمين ، وسماه (الذريعة الى مكارم الشريعة) ، الى جانب كتب أخرى ما زالت راقدة على أرفف المخطوطات تنتظر من يحييها بعد طول رقاد .

ونقول باختصار : اننا نرى أنه أسهم بمؤلفاته فى مقاومة تيار الغزو الثقافى الاجنبى ، بل استطاع تطويع هذه الثقافة للتصورات الاسلامية ، فكشف عن حكيم مسلم ، مزج النظر العقلى التأملى فى موضوعات الغيب ـ أو ما وراء الطبيعة ـ بنبضات الحياة الاخلاقية المثلى للانسان أثناء سعية فى الارض نحو غاية الغايات ، وهى السعادة الاخروية الابدية ، وأعطى مدلولا مبتكرا للحرية بشقيها الميتافيزيقى والاخلاقى لما أثبته من حرية الانسان فى اختيار أفعاله ، الى جانب مدلول الحرية المعبر عن سيطرة الانسان على أهوائه وشهواته وارتقائه الى مستوى (التلطف عن الاخذ) (٢) .

واسترشد الراغب بالآيات القرآنية للاستدلال على مفاهيم متعددة تتناول الغرض

(١) المفردات فى غريب القرآن : تحقيق وضبط محمد سيد كيلانى ص ٦
ط الحلبى ١٣٨١ هـ ـ ١٩٦١ م .

(٢) الذريعة الى مكارم الشريعة : تحقيق طه عبد الرؤف سعد ص ٥٩
ط مكتبة الكليات الأزهرية ١٣٩٣ هـ ـ ١٩٧٣ م . وقام زميلنا الاستاذ الدكتور أبو اليزيد العجمى باصدار طبعة محققة جديدة . دار الصحوة بالقاهرة ١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٥ م .

من وجود الانسان على هذه الارض ، مستخلصاً فكرة (عمارة الارض) التى عنى بها كأحد الاهداف الالهية من خلق الانسان .

وفى نظرته الى (العبادة) لم يقتصر على المعنى الاخلاقى لها كفعل مناف للشهوات ـ كما سنرى ولكنه جعل الاعمال الانسانية كلها لونا من العبادات ، أى أنه بالاصطلاح الحديث ، جعل من مظاهر هذه العبادة سيطرة الانسان وتسخيره لما فى السماء والارض من موجودات لصالحه والارتقاء بحياته ، ونجاحه فى الاكتشافات العلمية المؤدية لاستخراج ما فى باطن الارض وظاهرها ، وتعميرها ، واستغلال كنوزها، واستخدام الآلات المخترعه فى توفير احتياجاته وتحقيق سعادته فى الدنيا والتمتع بخيراتها . وحث على بذل الجهود الانسانية بكافة قواها ـ مباشرة أو بواسطة الآلات المحققه لهذه الاغراض ـ للوصول الى تسخير المخلوقات وتحسين ظروف الحياة على ظهر الارض ، جاعلا من كل هذه الاعمال لوناً من العبادات . فقد جعل من كل فعل يتحراه الانسان عبادة سواء كان الفعل واجباً أو ندباً أو مباحاً ، متوسعاً فى الافعال المباحة ، لأنه ما من مباح فى رأيه الا واذا تعاطاه الانسان على ما يقتضيه حكم الله تعالى كان (كالانسان فى تعاطيه عابداً لله مستحقا لثوابه) [1] ، مستنداً لخطاب النبى ﷺ لسعد (انك لتؤجر فى كل شئ حتى اللقمة تضعها فى فم امرأتك) ، وعلى هذا الوجه قال أيضاً (ما من مسلم غرس غرساً لم يأكل منه أحد الا كان له صدقة) . ولكنه يشترط فى هذه الاعمال لكى تكون عبادة مراعاة أمر الله فى جميع الامور دقيقها وجليلها ، وأن يتحرى بها حكم الشريعة [2] .

(١) تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين : الأصفهانى ص ٤٨ من سلسة الثقافة الاسلامية العدد ٢٨ ذو القعد ١٣٨٠ هـ ـ ابريل ١٩٦١ م .

(٢) نفسه ص ٤٨ ـ ٤٩ وفى مسند الامام احمد عن ابى الدرداء : (من غرس غرساً لم يأكل منه آدمى خلق من خلق الله ...) .

ودعاه ذلك الى بحث مدلول « الانسان الحضارى » بلغتنا ، وهو عنده الانسان المؤمن ، الآخذ بالاسباب المؤدية الى جعله مستحقا لخلافة الله سبحانه وتعالى فى الارض أى الاخذ بمكارم الشريعة ، وهى الحكمة والقيام بالعدالة ، جاعلا دور الحكماء يلى الرسل والانبياء عليهم السلام .

الحكمة لدى الاصفهانى :

عرض الاصفهانى أولاً للمعنى اللغوى للحكـمة ، فـردها الى الفـعل الثـلاثى (حكم) وأصله منع منعاً لإصلاح ومنه سميت اللجام (حكمة) الدابة فقيل حكمته ، وحكمت الدابة منعتها بحكمة ، وأحكمتها جعلت لها حكمة وكذلك حكمت السفينه وأحكمتها .

عندما نظر الى الكلمة كما وردت فى القرآن ، ميز بين الحكمة المنسوبة لله سبحانه وتعالى والمتصف بها الانسان ، فالحكمة من الله تعالى (معرفة الاشياء وايجادها على غاية الاحكام ، ومن الانسان معرفة الموجودات وفعل الخيرات) أى لأن لهاوجه أخلاقى عملى الى جانب المعرفة .

وقد تفرد الله عز وجل بمعنى لا يوصف به غيره فى قوله ﴿ **اليس الله بأحكم الحاكمين** ﴾ . ؟

وأوضح الراغب المقصود بالحكمة فى بعض الآيات الواردة فى القرآن مثل قوله تعالى ﴿ **ويعلمهم الكتاب والحكمة** ﴾ فقيل تفسير القرآن ويعنى ما نبه عليه القرآن ، مستنداً الى تفسير لابن عباس بأنها علم القرآن ناسخه ومنسوخه محكمه ومتشابهه[1] .

---

(١) المفردات ص ١٢٦ ـ ١٢٨

وربما يتضح الاتجاه الاخلاقى للاصفهانى فى تعريفه للحكمة فى موضع آخر بأنها اسم لكل علم حسن وعمل صالح ، فهى بالعلم العملى أخص منه بالعلم النظرى .

أما الوسيلة لبلوغ درجة الحكمة فهى لا تتحقق الا لرجلين :

أحدهما : مهذب فى فهمه ، مؤمن فى فعله ، ساعده معلم ناصح وكفاية وعمر ، أى أنه يجعل الغاية من الحكمة تكوين الانسان المؤمن ، لأن الايمان زبدة العقل والعمل ، ومن ثم فلا يعد الكافر انساناً الا على سبيل المجاز لأنه لم يستكمل مرتبة الانسانية القائمة على العلم بالله وعبادته [١] .

الثانى : الذى يصطفيه الله تعالى . وربما يقصد الحاصلين على الحكمة بنوع من الالهام [٢] .

وقد تنبه الاصفهانى الى اختلاف مفهوم الحكمة كما وردت فى القرآن والحديث ، وبين الحكمة عند فلاسفة اليونان ، اذ وصفهم بأنهم كانوا أصحاب حكمة ولم يكونوا عمله ، ويستطرد فى بيان رأيه عنهم فيقول (كانوا يصورون الآله ولا يخرطون الاداة ، يشيرون اليها ولا يمسونها يرغبون فى التعلم ويرغبون عن العمل) [٣] .

بينما يلح على ذكر العمل لأنه ما خلى ذكر الايمان فى عامة القرآن من ذكر العمل الصالح كقوله ﴿ **الذين آمنوا وعملوا الصالحات** ﴾ والى ذلك أشار بقوله تعالى ﴿ **اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه** ﴾ . ويجمع الاقوال الدالة على ابطال فائدة العلم بلا عمل فالعلم من غير العمل مادة للذنوب ، وقال

---

(١) تفصيل النشأتين ص ٤٥ ـ ٤٦ .
(٢) الذريعة ص ٤١ .
(٣) محاضرات الأدباء جـ ١ ص ٩٣ .

رجل لرجل يستكثر من العلم ولا يعمل (يا هذا اذا افنيت عمرك فى جمع السلاح فمتى تقاتل) [1] .؟

ونكتفى بهذه المقدمة للتعريف بالراغب الاصفهانى وأشهر كتبه المطبوعة ، لننتقل للحديث عن مواقفه الميتافيزيقية والاخلاقية ، وبيان منهجه الذى جمع فيه بين العقل والنقل ومزجهما عن دقة فهم واحاطة وسنحاول التعبير عن هذا الامتزاج الذى يلمسه القارئ لمؤلفاته النابضة بالحياة والحركة ، فنصحب معه الانسان منذ ولادته الى موتته الاولى ثم بعثه ، ونسير معه على الدرب الطويل : نرقبه فى مجاهداته وصراعاته مع هوى النفس وهواتف الشيطان ، ونرتقى معه الى الكمالات الانسانيه ، وننظر وإيّاه الى أعماق النفس البشرية فى أحوالها وتقلباتها . ثم نستمع الى اجاباته الواضحة ، المحددة عن الاسئلة الملحة التى تراود الانسان فى كل عصر ومصر بعامة ، والحكماء والفلاسفة بخاصة ، ألا وهى :

- كيف خلقنا ؟ ولم خلقنا ؟

- وإلى أين المصير ؟

أولاً كيف خلقنا ؟ :

تقتضى دراسة النظرية الاخلاقية عند الاصفهانى أن نستطلع آراءه فى أهم الموضوعات التى تطرق اليها ، حيث تكلم عن الانسان من حيث ماهيته مبيناً ما يفضل به على سائر الحيوان ، وأنه على سفر الى الدار الآخرة ، مع بيان الغرض الذى من أجله خلق الانسان . وعالج الصلة بين العقل وهوى النفس كما تطرق الى أنواع الافعال الارادية والغير الارادية ، وأوضح مفهوم السعادة الحقيقية التى ينبغى أن يسعى لها الانسان .

---

(١) الذريعة ص ١١٥ ـ ١١٦ .

أولا : الانسان

١ ـ ماهية الانسان :

الانسان عنده مركب من جسم مدركه البصر ، ونفس مدركها البصيرة ، ويستند في ذلك الى تفسيرة لقوله تعالى ﴿ **انى خالق بشراً من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين** ﴾ ، فالروح هى النفس ويرى أن اضافتها الى الله تعالى تشريفاً لها [١] .

والانسان أفضل من سائر الحيوان بالعقل والعلم والحكمة والتدبير والرأى ، وان كل ما أوجد فى هذا العالم فمن أجل الانسان [٢] ، وهو يعنى أن تخصيص الانسان بالعقل بجعله قادراً على التمييز بين الخير والشر ، وقد ارتقى الى درجة الكمال ببعثة الانبياء [٣] .

ويقول فى احدى عباراته (وجملة الامر ، ان الانسان هو زبدة هذا العالم وما سواه مخلوق لأجله ، ولهذا قال تعالى ﴿ هو الذى خلق لكم ما فى الارض جميعاً ﴾ البقرة ٢٩ ، والمقصد من الانسان سوقه الى كماله الذى رشح له [٤] .

وللنفس الانسانية قوتان ، قوة الشهوة وقوة العقل ، فبالاولى يحرص الانسان على تناول اللذات البدنية البهيمية ، وبالثانية يحرص على تناول العلوم . وقد عالج الراغب اختلاف الناس فى الخلق (الاخلاق) حيث رأى بعضهم انها من جنس الخلقة ولا يستطيع أحد تغيير ما جبل عليه ان خيراً وإن شراً ، ويعارض هذا الرأى لأن

---

(١) الذريعة الى مكارم الشريعة : الأصفهانى ص ١١ .

(٢) تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين ص ١٥

سلسلة الثقافة الاسلامية (العدد ٢٨) ١٣٨٠ هـ ـ ١٩٦١ م .

(٣) محاسن التأويل : القاسمى جـ ٢ ص ٢٨٣ .

(٤) نفسه ص ١٠٩ ـ ٥١٠

للأنسان قوة تجعله يستطيع أن يتخلق بالاخلاق الحسنة ، فقد جعل الله له سبيلاً الى اسلاس أخلاقه ولهذا قال تعالى ﴿ **قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها** ﴾ واذا لم يكن الامر كذلك لبطلت فائدة المواعظ والوصايا والوعد والوعيد والامر والنهى ولماجاز عقلا أن نسأل أحد لم فعلت ولم نكصت (وكيف يكون هذا فى الانسان ممتنعاً وقد وجدناه فى بعض البهائم ممكناً ، فالوحش قد ينقل بالعادة الى التأنس والجامح الى السلاسة) [1] .

ومهما اختلف الناس فى غرائزهم ، من حيث قبول البعض الى امكان التغيير السريع لاخلاقهم والبعض الآخر الى البطء والبعض فى الوسط ـ الا أنه لا ينفك من أثر قبول .

والبواعث على طلب الخيرات الدنيوية ثلاثة ، أدناها مرتبه الترغيب والترهيب ممن يرجى نفعه ويخشى ضره ، وهى من مقتضى الشهوة ولذا فهى من فعل العامة . والثانى رجاء الحمد وخوف الذم ممن يعتد بحمده وذمه وهى من مقتضى الحياء وهى لكبار أبناء الدنيا ، والثالث تحرى الخير وطلب الفضيلة وهى من مقتضى العقل وفعل الحكماء .

أما البواعث على طلب الخيرات الاخروية فهى ثلاثة أيضاً :

الاول : الرغبة فى ثواب الله تعالى والمخافة من عقابه وهى منزله العامة ، والثانى رجاء حمده ومخافة ذمه وهى منزلة الصالحين والثالث : طلب مرضاته عز وجل وهى منزلة النبيين والصديقين والشهداء ، وهى أعزها وجوداً وأفضل ما يتقرب به العبد . قال تعالى ﴿ **وأصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه** ﴾ فإن أفضل ما يتقرب به العبد الى ربه عز وجل أن لا يريد من الدنيا والآخرة غيره [2] .

---

(١) الذريعة الى مكارم الشريعة ص ٢٩ .   (٢) نفسه ص ٤٧ .

ثانياً : لم خلقنا ؟

يقسم الراغب الاصفهانى الكائنات من حيث الاغراض التى تحققها ، والافعال التى تختص بها ، كالبعير خصص ليبلغنا وأثقالنا الى بلد لم نكن بالغيه الا بشق الانفس ، والفرس لنصل به الى غاياتنا فى سرعة ويسر ، والمنشار لاصلاح المصنوعات الخشبية وغيرها ، والباب لندخل به الى المنزل .

وبالمثل فإن للإنسان ثلاثة أفعال تختص به وهى :

١ ـ عمارة الارض المذكورة فى قوله تعالى ﴿ **واستعمركم فيها** ﴾ لتحصيل المعاش لنفسه ولغيره .

٢ ـ عبادته المذكورة فى قوله تعالى ﴿ **وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون** ﴾ أى الامتثال لله سبحانه فى عبادته فى أوامره ونواهيه .

٣ ـ خلافته المذكورة فى قوله تعالى ﴿ **ويستخلفكم فى الارض فينظر كيف تعملون** ﴾ [١] .

ولا يستحق الانسان الخلافة الا بتحرى مكارم الشريعة وهى الحكمة والقيام بالعدالة بين الناس فى الحكم والاحسان والفضل ، والغرض منها بلوغ جنة المأوى .

ولما كان شرف الاشياء بتمام تحقيق الغرض من وجودها ودناءتها بفقدان ذلك المعنى ، فإن الفرس اذا لم يصلح للعدو اتخذ للحمولة ، والسيف ان لم يصلح للقطع اتخذ منشاراً ، وبالمثل فمن لم يصلح من الانسان لتحقيق ما لأجله أوجد فالبهيمة خير منه ولذلك ذم الله تعالى الذين فقدوا هذه الفضيلة ﴿ **إن هم كالأنعام بل هم أضل** ﴾ [٢] .

---

(١) الذريعة الى احكام الشريعة : الراغب الأصفهانى ص ١٨ .

(٢) الذريعة الى مكارم الشريعة ص ١٨ .

وتحرى مكارم الشريعة يحتاج الى أن يصلح الانسان نفسه أولا بتهذيب نفسه قبل غيره ، حيث ذم الله تعالى من يأمر غيره بالمعروف وينهاه عن المنكر وهو غير مهذب فى نفسه فقال سبحانه ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون * كبر مقتاً عند الله أن تقولوا مالا تفعلون** ﴾ الصف ٢ ، ٣ .

وتبدأ مكارم الشريعة بطهارة النفس بالتعلم للتوصل الى الحكمة ، ثم العفة للتوصل الى الجود ، والصبر ليدرك الشجاعة والحلم ، والعدالة لتصحيح الافعال .

وباستكمال هذه الدرجات فانه أصبح المعنّى بقوله تعالى ﴿ **إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾ وصلح لخلافة الله عز وجل .

ويظهر لنا من التفرقة بين مكارم الشريعة والعبادات ، أن العبادات فرائض معلومة ومحددة وتاركها يصبح ظالماً ، بينما المكارم درجة أعلى من العبادات ، ولذا فإن أداء العبادات من باب العدالة ولكن التحرى بمكارم الشريعة من قبيل النفل والافضال [١] .

وهكذا فإن الراغب الاصفهانى يضع مستويات أخلاقية لأعمال الإنسان ، فالعدل فعل ما يجب والتفضل الزيادة على ما يجب .

كذلك لا يصلح لخلافة الله ولا يكمل لعبادته وعمارة أرضه إلا من كان طاهر النفس ، فكما أن للبدن نجاسة فكذلك للنفس نجاسة ، الأولى تدرك بالبصر والثانية تدرك بالبصيرة ، واياها قصد تعالى بقوله ﴿ **إنما المشركون نجس** ﴾ ولقوله تعالى ﴿ **كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون** ﴾ ، كما أشار سبحانه الى طهارة القلوب بقوله تعالى ﴿ **أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى** ﴾ وقوله ﴿ **والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذى خبث لا يخرج إلا نكدا** ﴾ .

---

(١) نفسه ص ٢٠.

ومن الآيات أيضاً التى تتضمن معنى التطهر قوله تعالى ﴿ **انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا** ﴾ وقال ﴿ **إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين** ﴾ [1] .

ما تطهر به النفس :

ولكن كيف يتم تطهير النفس فى رأى حكيمنا الاخلاقى حتى يصبح الانسان مرشحا لخلافة الله تعالى مستحقاً به ثوابه ؟

يرى أن العلم والعبادات هما المطهران للنفس اذ أن أثرهما فى النفس كأثر الماء الذى يطهر البدن [2] وأدلته على ذلك الآيات القرآنية التى يفسرها بهذا المعنى ، مثل قوله تعالى ﴿ **استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم** ﴾ وقوله تعالى ﴿ **أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها** ﴾ .

فالآية الاولى تدل على أن حياة النفس فى العلم والعبادة .

أما الآية الثانية فقد فسرها ابن عباس بأن الماء يعنى به القرآن لأن به طهارة النفس والأودية هى القلوب التى احتملته بحسب ما وسعته [3] .

والذى يلزم تطهيره من النفس القوى الثلاث : قوة الفكر بتهذيبها حتى تحصل الحكمة والعلم ـ والحكمة هى أشرف منزلة العلم [4] لأنها العلم والعمل به . ولهذا وصف الله تعالى الذين ليس لهم علم صحيح ولا عمل على الطريق المستقيم بقوله ﴿ **وإذا قيل لهم أتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون** ﴾ البقرة ١٧٠ . فالعقل يقال بالاضافة

---

(١) الذريعة الى مكارم الشريعة ص ٢٠ . (٢) نفسه ص ٢١ ـ ٢٢ . (٣) نفسه ص ٢٢

(٤) تفسير القاسمى جـ ٢ ص ٢٦٠ ـ محمد جمال الدين القاسمى تصحيح محمد فؤاد عبد الباقى ـ ط عيسى البابى الحلبى ١٣٧٦ هـ ـ ١٩٥٧ م .

الى المعرفة ، والاهتداء بالاضافة الى العمل [1] .

وتهذيب قوة الشهوة بقمعها لكى تكتسب العفة والجود ، ويتم اخضاع قوة الحمية باستيلاء العقل عليها حتى تنقاد له فيحصل الشجاعة والحلم (فيتولد من اجتماع ذلك العدل) [2] .

الطريق ممهد اذن للإنسان لتطهير نفسه ورياضتها ، وتقويم أخلاقه والارتقاء بها الى ما يمكنه بحيث يصل بها إلى أرقى المستويات ، لأن الانسان حر مختار ، والادلة على ذلك تلزمنا بايضاح وتحليل العوامل المؤثرة فى الارادة إذ يخيل للبعض أنه (مجبر) ولكن الحقيقة غير ذلك . واليك البيان . :

٢ـ الانسان مختار :

يقسم الاصفهانى الاحياء الى ثلاثة أنواع ، نوع لدار الدنيا وهى الحيوانات ، ونوع للدار الآخرة والملأ الاعلى (أى الملائكة) ، والإنسان بين هذين النوعين يصلح للدارين لأنه واسطة بين اثنين أحدهما وضيع وهو الحيوانات والثانى رفيع وهو الملائكة ، فهو كالحيوانات من حيث الشهوة البدنية والغذاء والتناسل والمنازعة وغيرها من صفات الحيوانات ، وكالملائكة فى العقل والعلم وعبادة الرب والاتصاف بالأخلاق الشريفة كالصدق والوفاء وغيرها ، وذلك لأن حكمة الله عز وجل اقتضت أن يرشح الانسان لعبادته وخلافته وعمارة أرضه وهيأه أيضاً لمجاورته فى جنته فلو خلق كالحيوانات لما صلح للمجاورة بالجنة ، ولو خلق كالملائكة لما صلح لتعمير الارض (فاقتضت الحكمة الالهية أن تجمع له القوتان وفى اعتبار هذه الجملة تنبيه على أن الانسان دنيوى أخروى وأنه لم يخلق عبثاً ﴿ **أفحسبتم أنما خلقناكم**

---

(١) تفسير القاسمى جـ ٣ ص ٣٧٤ .

(٢) الذريعة ص ٢٢ .

عبثاً وأنكم الينا لا ترجعون ﴾ [1] .

أما بالنظر الى البشر فى مدى اختلافهم فإنه يرى أن التفاوت بينهم يظهر للأسباب الآتية :

أولاً : اختلاف الخلقة ، مستخرجا هذا المعنى من قوله تعالى **﴿ والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذى خبث لا يخرج الا نكداً ﴾** والآية الأخرى **﴿ هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء ﴾** . ويستشهد بما روى عن واقعة أصل الخلق (إن الله تعالى لما أراد خلق آدم عليه السلام أمر أن يؤخذ من كل أرض قبضة فجاء بنو آدم على قدر طينها الأحمر والأبيض والأسود والسهل والحزن والطيب والخبيث) [2] .

ثانياً : اختلاف طبائع الوالدين وتأثير عوامل الوراثة ، ولهذا قال الرسول ﷺ (تخيروا لنطفكم) [3] .

ثالثاً : اختلاف الوالدين من حيث الصلاح والفساد اذ أن الطفل بحكم نشأته بينهما ومخالطته لهما قد يتأثر بما هما عليه من جميل السيرة والخلق وقبيحهما .

رابعاً : أثر الغذاء من حيث الرضاع وطيب المطعم ، وبسبب هذا التأثير تصف العرب صاحب الفضل بقولها (لله دره) [4] .

خامساً : من حيث التربية والتهذيب وتنشئتهم على التعود بالعادات الحسنة ونبذ القبيحة ، وبيان تفصيل ذلك أخذ الطفل بالآداب الشرعية وأمره بالصلاة لسبع وضربه لعشر طبقاً لحديث الرسول ﷺ ، مع ابعاده عن مجالسة الاردياء لأنه يتطبع بطبائعهم ، وتعليمه أن يسلك السبيل القويم فى أقواله وسلوكه ، وأن يقتصد فى

(١) تفصيل النشأتين : الراغب الأصفهانى ص ١٩ ـ ٢٠ .
(٢) نفسه ص ٣٠
(٣) نفسه ص ٣٠ .
(٤) نفسه ص ٣١ .

المآكل والمشارب ، ويخالف الشهوة (ويمنع من المفاخرة ومن الضرب والشتم والعبث والاستكثار من الذهب والفضة ، ويعوّد صلة الرحم وحسن تأدية فروض الشرع) .

سادساً : اختلاف الناس الذين يعيشون معهم ويختلطون بهم من حيث الآراء والمذاهب [1] .

سابعاً : مدى الاختلاف فى الاجتهاد فى تزكية النفس بالعلم والعمل ، فإذا مااجتمعت للإنسان هذا الركن فجاهد نفسه فى تعرف الحق وزكاها مع توفر الاستعدادات الجبلية من حيث طيب المنبت وصلاح الوالدين وحسن التربية عن طريق الاخذ بالقواعد السالف الاشارة اليها ، بلغ المرتبة العليا فى الخيرات من جميع الجهات ، وحق فيه قول والله تعالى ﴿ **وانهم عندنا لمن المصطفين الأخيار** ﴾ على عكس من يسميهم بالرذل التام الرذيلة أى بعكس الامور التى ذكرها [2] .

وهكذا نجد الاصفهانى يقر جانب عوامل الوراثة والبيئة وأصل الخلقة من حيث التكوين البيولوجى ، ثم يحرص على التنويه بأنه مهما تفاوت الناس فى هذه العوامل التى تعد فى حكم الجبرية ، الا أنه مامن أحد (إلا وله قوة على اكتساب قدر ما من الفضيلة ، ولولا ذلك لبطلت فائدة الوعظ والانذار والتأديب) . ولهذا فإن على الانسان أن يبذل قصارى جهده ليكتسب ما يقدر عليه من أنواع الفضائل والله تعالى يعذره بقوله سبحانه ﴿ **لا يكلف نفساً إلا وسعها** ﴾ ، فالأمر الهام والضرورى هو المحاولة وعقد النية على تغيير سلوكه وتحسينه ، حتى اذا فعل غاية وسعه كان ذلك إيذاناً بأن يزيل الله عنه باقى السيئات التى عجز عن التخلص منها . يقول تعالى ﴿ **يأيها الذين آمنوا توبوا الى الله توبة نصوحاً عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم** ﴾ [3] .

---

(١) نفسه ص ٣٢ .   (٢) نفسه ص ٥٤ .   (٣) نفسه ص ٥٤ .

انه يثبت جانب جبرى فى الانسان ـ يتمثل فى عوامل الوراثة والخلقة وظروف النشأة والبيئة ، ولكنه يرى أنه مختار لأفعاله ، ويدعوه إلى بذل الجهد واستخدام ارادته الحرّة فى رياضة نفسه وتقويم أخلاقه ما استطاع الى ذلك سبيلاً ، وهنا يكاد يتفرد الاصفهانى بنظرته الى دور العبادة فى المجال الأخلاقى .

العبادة ودورها فى السلوك الاخلاقى :

تمهيداً لبيان دور العبادة فى تقويم الاخلاق ، ينبغى بشرح ما يمتاز به الانسان عن الحيوان ، من حيث القوى والطبائع الحيوانية أى الشهوة البدنية والغذاء والتناسل وغيرها ، ولكن الانسان ينتقل الى مستوى أعلى حيث يتميز بالعقل ، بل انه بسبب العقل صار انساناً . ولكن العقل لا يصلح وحده بغير الشرع ، وهنا تظهر أهمية العبادة فى السلوك الانسانى عند الراغب الأصفهانى (فمن قام بالعبادة حق القيام فقد استكمل الانسانية ، ومن رفضها فقد انسلخ عن الانسانية فصار حيواناً أو دون الحيوان) [1] ، لأنه بالعبادة يحقق الغاية التى من أجلها خلق كما قال تعالى **﴿ وما خلقت الجن والأنس الا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ﴾ ﴿ وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين ﴾** .

فما هى العبادة وما هو دورها فى السلوك الأخلاقى ؟

العبادة كما يعرّفها هى (فعل اختيارى مناف للشهوات البدنية تصدر عن نية يراد بها التقرب الى الله تعالى طاعة للشريعة) .

أما دورها فهو المحافظة على الفطرة التى خلق بها الانسان المشار اليها بقوله تعالى **﴿ فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ﴾** الروم ٣٠ ، وقوله عز وجل **﴿ صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون ﴾**

---

(١) تفصيل النشأتين ص ٤٥ .

البقرة ١٣٨ فالصبغة هى العقول التى تميز بها الانسان عن البهائم ، والاستفهام فى الآية للإنكار والنفى ، فلا صبغة أحسن من صبغته تعالى ، ويتساءل الراغب (فكيف تذهب عنا صبغته ونحن نؤكدها بالعبادة ، وهى تزيل رين القلب فينطبع فيه صورة الهداية ؟) [١] .

وترتفع العبادة الى أرقى مراتبها عندما يحب الانسان أن يتحرى بها ابتغاء مرضاة الله ، ويؤديها بإنشراح صدر بدلا من مجاهدة النفس (ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : إن استطعت ن تعمل لله فى الرضا باليقين فاعمل والا ففى الصبر على ماتكره خير كثير) [٢] .

ثالثاً : الى أين المصير ؟

يرى الراغب ان الانسان فى دنياه مسافر متخذاً الدليل على ذلك قصة الخلق اذ قال تعالى ﴿ **وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الارض مستقر ومتاع إلى حين** ﴾ ، ويستشهد بعبارة على بن أبى طالب رضى الله عنه (الناس على سفر والدنيا دار ممر لا دار مقر وبطن أمه مبدأ سفره والآخرة مقصده وزمان حياته مقدار مسافته وسنوه منازله وشهوره فراسخه وأيامه أمياله وأنفاسه خطاياه يسار به سير السفينه براكبها) [٣] .

فالغاية للإنسان ينبغى أن تكون دار السلام ، ويحتاج فى حياته الى التزود للسفر ، وهو فى كدح وكبد ما لم ينته الى دار القرار كما قال تعالى ﴿ **يا أيها الانسان انك كادح الى ربك كدحاً فملاقيه** ﴾ .

---

(١) تفسير القاسمى جـ ٢ ص ٢٧٤ .

(٢) الذريعة الى مكارم الشريعة : الراغب الأصفهانى ص ٣٤ .

(٣) نفسه ص ٩ .

والناس فى طلبها على ضربين :

ضرب انصرفوا عن طلب الآخرة وركنوا الى الدنيا وقالوا (**ما هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا**) وطلبوا الراحة فيها من حيث لا راحة ، أى أنهم فى أعمالهم وسلوكهم يبتغون من الدنيا (ما ليس فى طبيعتها ولا موجودا فيها ولها) [(١)] .

ونفهم من رأى الاصفهانى انحراف هذا الموقف من الناحية الاخلاقية لأن أصحابه يسعون فى تصرفاهم نحو غاية لن تتحقق ، مصداقاً لقوله تعالى ﴿ **والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئاً** ﴾

أما الضرب الثانى من الناس ، فهم الذين عرفوا أنهم يعيشون فى الدنيا بصفة مؤقتة كما قال سبحانه ﴿ **ولكم فى الارض مستقر ومتاع الى حين** ﴾ ، ومن ثم فقد أصبح الدافع لهم فى أعمالهم التزود لدار الخلود فاغترفوا من الزاد الروحانى كالمعارف والحكم والعبادات والاخلاق الحميدة ، لأنهم على يقين من الحصول على ثمرته وهى الحياة الابدية ، فإن الاستكثار من هذا الزاد محمود (ولا يكاد يطلبه الا من قد عرفه وعرف منفعته) [(٢)] .

ولم ينس هذا الفريق من الناس فى الوقت نفسه نصيبه من الدنيا ، فتزود بالزاد الجسمانى كالمال والاثاث ﴿ **زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث** ﴾ ، وغايتهم أن يستعينوا به على الحياة الدنيوية الفانية ، اذ من طبيعة هذا الزاد أن يسترد من الانسان بعد مفارقته للدنيا ، فلا ينبغى الركون اليه والاستغناء به عن الزاد الروحانى اللازم للآخرة ﴿ **وما الحياة الدنيا فى الآخرة الا متاع** ﴾ . ويخشى

---

(١) تفصيل النشأتين : الراغب ص ٣٩ .

(٢) تفصيل النشأتين : الراغب ص ٣٩ .

على المتكثر منه أن يثبط صاحبه عن مقصده . يقول الراغب (والاستكثار منه ليس بمذموم ما لم يكن مثبطاً لصاحبه عن مقصده ، وكان متناولا على الوجه الذى يحب وكما يجب) [1] ويقصد بالشق الثانى من عبارته التقيد فى المعاملات بمقتضى الشرع .

وقد تقصر نفس المرء عن الجمع بين الامرين ، وهنا يجب الاهتمام بما يبقى وتفضيله عما يفنى ، أى ايثار الآخرة على الدنيا ، ولا يأخذ من الثانية الا بما يبلغ به دار الخلود بشرط مراعاة حكم الشرع والحافظة على قول الله تعالى ﴿ **يا أيها الناس ان وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور** ﴾ [2]

ويحرص عالمنا الاخلاقى على أن يستخدم الانسان قواه التى فطر بها للوصول الى أشرف مراتب السعادة وأعلاها وهى السعادة الاخروية الجديرة بأن تعد السعادة الحقيقية والتى لا سبيل اليها الا باكتساب الفضائل ولذلك قال تعالى ﴿ **ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا** ﴾ [3] .

وتكتسب الفضائل باستخدام القوى الثلاث التى خص بها الانسان ، أى السعى فى استخدام القوى الشهوية فى حدود ما رسمه الشرع ، واستعمال القوة الغضبية فى المجاهدة التى تحمية ، وقوته الفكرية لتحصيل العلم الذى يهديه ، وعليه ألا يركن الى الخمول والكسل بل أن يعمل بقول القائل (إن أردت أن لا تتعب فاتعب لئلا تتعب) فإن الأنسان أسمى من الحيوان ، واذا كان للحيوان قوة التحرك سعياً لطلب الرزق ، فللإنسان قوى العقل الذى ان لم يستخدمه فقد أبطل كل نعمة أنعمها الله عليه ويصبح وجود العقل عبثاً ، لأن النفس تتبلد بترك التفكر والنظر كما يتبلد البدن بتعود الرفاهية بالكسل (فحق الانسان أن لا يذهب عامة أوقاته الا فى اصلاح

---

(١) نفسه ص ٤٠ . (٢) تفصيل النشأتين ص ٤٠ .

(٣) الذريعة الى مكارم الشريعة ص ٣٨ .

أمر دينه ودنياه وموصلاته الى آخرته مراعياً لها) .

ان الحكيم الاصفهانى يصور الانسان فى حركة دائمة ساعيا نحو غايته ، فهو على سفر ، ومقصده الدار الآخرة حيث تتحقق له السعادة الدائمة . بل انه يستخدم لفظ (التحريك) معبراً عن هذا التصور للإنسان فى حركته ، نحو الآخرة ويستند الى الحديث (سافروا تغنموا) فإنه فى رأيه يحث على التحريك الذى يثمر جنة المأوى ومصاحبة الملأ الأعلى ومجاورة الله تعالى وكلها أسمى الغايات .

ولكن الانسان فى سعيه هذا يحتاج الى خمسة أشياء : معرفة المعبود المشار اليه بقوله ﴿ **ففروا الى الله** ﴾ ، ومعرفة الطريق المشار اليه بقوله ﴿ **قل هذه سبيلى أدعوا الى الله على بصيرة** ﴾ وتحصيل الزاد المتبلغ به المشار اليه بقوله ﴿ وتزودوا فإن خير الزاد التقوى﴾ والمجاهدة فى الوصول كما قال تعالى ﴿ **وجاهدوا فى الله حق جهاده** ﴾ وبهذه الأشياء يأمن الغرور الذى خوّفه الله تعالى منه فى قوله ﴿ **ولا يغرنكم بالله الغرور** ﴾ .

السعادة الأبدية :

يطلق الراغب الاصفهانى السعادة الحقيقية على الخيرات الاخروية ، أما تسمية غيرها بهذا الاسم ، فإما لكونه معاونا على ذلك أو نافعا فيه (وكل ما أعان على خير وسعادة فهو خير وسعادة) [1] .

ولهذا فإن سعى الانسان يجب أن يتجه لتحقيق هذه السعادة حيث البقاء بلا فناء والعلم بلا جهل والقدره بلا عجز والغنى بلا فقر .

ولكن الوصول اليها أمر بعيد المنال ولا يتم الا باكتساب الفضائل النفسية وهى أربعة أشياء (العقل وكماله العلم والعفة وكمالها الورع والشجاعة وكمالها المجاهدة

(١) نفسه ص ١٥٢ .

والعدالة وكمالها الانصاف) [1] ولذلك قال تعالى **﴿ ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا ﴾** ، فنبه أنه لا مطمع لمن أراد الوصول اليها إلا بالسعى [2] .

وللانسان سعادات [3] أبيحت له فى الدنيا وهى النعم المذكورة فى قوله تعالى **﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾** ، ولكن الفرق بين النعم الدنيوية والاخروية ، هو أن الاولى تبيد بينما الثانية دائمة لا تبيد .

والنعم الدنيوية تكون نعمة وسعادة اذا تناولها الناس على الوجه الذى جعل الله لهم فأصبحت لهم نعمة وسعادة وهم الموصوفون بقولة تعالى **﴿ للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين ﴾** .

وهناك فريق آخر ركنوا اليها فأصبحت عليهم نقمة فتعذبوا بها عاجلا وآجلاً وهم الموصوفون بقوله تعالى **﴿ إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون ﴾** [4] .

واللذات الأخروية لا تدرك بالعقل فى هذه الدنيا لأنه يقصر عن معرفتها ،ولهذا

---

(١) الذريعة الى مكارم الشريعة ص ٣٥ . (٢) نفسه ص ٣٨ .

(٣) ونلاحظ أن التصور الاسلامى للدنيا والآخرة هو القاسم المشترك بين علماء الأخلاق ، فأنظر مثلا قول ابن حبان (وأن الحر حق الحر ـ من اعتقته الأخلاق الجميلة ، كما أن أسوء العبيد من استعبدته الأخلاق الدنية ومن أفضل الزاد فى المعاد اعتقاد المحامد الباقية ، ومن لزم معالى الأخلاق انتج له سلوكها فراخا تطير بالسرور) ولاحظ أيضا مدلولات ـ الحرية ـ المحامد الباقية ـ الأخلاق كتاب (روضة العقلاء ونزهة الفضلاء) ص ٢٥٢ ـ ٢٥٣ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد . ط . دار الكتب العلمية ـ بيروت ١٣٩٥ هـ ـ ١٩٧٥ م .

(٤) تفصيل النشأتين ص ٣٥ ـ ٣٦ .

فقد قرب الله سبحانه تلك اللذات فى الاذهان فشبهها لهم بأنواع ما تدركه حواسهم فقال تعالى ﴿ **مثل الجنة التى وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى** ﴾
وقوله عز وجل فى أول هذه الآية ﴿ **مثل الجنة التى وعد المتقون** ﴾ يدل على أن ذلك تصوير وعلى سبيل التشبيه [1]

ولئن كان الموت هو الذريعة الى السعادة الكبرى ، وإن الإنسان لن يطلع على سعادة الآخرة إلا بعد مفارقته الهيكل الانسانى ، إلا أن بوسعه قبل مفارقته لهذا الهيكل أن يزيل الأمراض النفسانيه المشار اليها بقوله تعالى ﴿ **فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا** ﴾ لكى يطلع (من وراء ستر رقيق على بعض ما أعد له) ، وقد حدث هذا لحارثة الذى قال للنبى ﷺ عزفت نفسى عن الدنيا فكأنى أنظر الى عرش ربى بارزا وأطلع على أهل الجنة يتزاورون ، وعلى أهل النار يتعاوون) فقال له النبى (عرفت فالزم) [2]

السعادة الأخروية إذن هى الجديرة بالسعى والعمل، ولا يجب على الإنسان أن ييئس اذا حرم من نعم الدنيا بالرغم من محاولاته ودعواته وابتهاله الى الله ، بل عليه أن يعلم (إن نعمته فيما يمنعه من دنياه كنعمته فيما خوله وأعطاه) [3] وربما يقصد بذلك أن اختيار الله تعالى للعبد أفضل من اختيار العبد لنفسه

ولا يعد فقدان النعيم الدنيوى خسارة بل هو على سبيل الاختبار والابتلاء اذ قال تعالى ﴿ **ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين** ﴾ فإن هذه الآية مشتملة على محن الدنيا . كما بين تعالى ما للصابرين عنده بقوله ﴿ وبشر

(١) نفسه ص ٣٧ (٢) نفسه ص ٣٨
(٣) تفسير القاسمى جـ ٣ ص ٤٣٤

الصابرين الذين اذا أصابتهم مصيبة ﴾ أي الذين اذا أصيبوا بهذه البلايا **﴿ قالوا إنا لله ﴾** ، أي أننا ملكا لله وخلقاً له ، فلا يجب المبالاة بالجوع لأن رزق العبد على سيده (فإن منع وقتا فلابد أن يعود اليه وأموالنا وأنفسنا وثرواتنا ملك له ، فله أن يتصرف فيها بما يشاء **﴿ وانا إليه راجعون ﴾** فى دار الآخرة . فيحصل لنا عنده ما فوته علينا [1]

* * *

(١) نفسه جـ ٢ ص ٣٢٦

المشكلة الأخلاقية وكيفية التغلب عليها
عند ابن القيم الجوزية [٧٥١ هـ]

التعريف بابن القيم :

هو محمد بن ابى بكر بن أيوب بن سعد بن حارز المعروف باسم ابن القيم الجوزية ولد عام ٦٩١ هـ بدمشق ، وكان شغوفاً بالعلم منذ نعومة أظافره ، حريصاً على اقتناء الكتب فى اختلاف فروع العلوم والمعارف المطلوبة فى عصره ، فامتلك مكتبة ضخمة عكف على الاطلاع على محتوياتها ليلاً ونهاراً كما يذكر عنه ذلك ابن كثير فى تاريخه ، وقد ترك لنا مؤلفات فى شتى فروع العلوم كالفقه وأصوله والكلام والفلسفة والتصوف والسيرة النبوية . لازم أثناء حياته شيخه ابن تيمية وتلقى عنه وتأثر به لاسيما منذ عودته من مصر عام ٧١٢ هـ ، وابتداء من هذا الوقت ارتبط مصيره بمصيره ، وكان من نتائج هذا الوفاء أن قاسم استاذه فى كثير من محنة . ابتلى وسجن بسبب بعض آرائه التى التزم بها شيخه ووقع فى نزاع مع بعض الفقهاء والصوفية المعاصرين له ، وتوفى سنة ٧٥١ هـ بعد أن أثر طوال حياته تأثيراً عميقاً فى كثير من معاصريه ، وترك لنا مؤلفات عديدة يغلب عليها منهج استاذة من حيث الارتباط بالكتاب والسنة والدفاع عنهما والدفاع عنهما كمنهج أصلى يغنى عن اتباع مناهج المتكلمين والفلاسفة والصوفية ، وان مال فى كثير من تصانيفه الى الاتجاه الاخلاقى الصوفى ، مع ملاحظة أنه لا يعد صوفيا بالمعنى الحرفى للكلمة ، وإن كان ذو مذهب خاص فى الحياة الوجدانية والاخلاقية ، وأخذ ينقد بشدة الصوفية المنحرفين عن الطريق الاسلامى الصحيح ، البعيد عن منهج القرآن (فالحقيقة والطريقة والاذواق والمواجيد الصحيحة كلها لا تقتبس الا من مشكاته ولا تستمد إلا من شجرته) (١) .

---

(١)مدارج السالكين جـ ١ ص ٧ ـ تحقيق الشيخ محمد حامد الفقى .

وقد التزم فعلا فى مؤلفاته بهذه القاعدة .

وسنتوخى فى هذه الدراسة بيان موقف ابن القيم من المشكلة الأخلاقية ومعاناة الانسان لهذه المشكلة ، مع تتبع آرائه فى كيفية التغلب عليها وحلها والطريقة الموصلة الى السعادة الحقيقية المنشودة .

ومما يساعد على فهم آرائه أن نقف على تحليله لحقيقة الانسان ، وتفسيرة لقصّة خلق آدم عليه السلام ، وشرحه لآثار خلقة الانسان على أخلاقه بسبب التنازع بين الجانبين المتضادين فى النفس البشرية أحدهما يجذبه الى الرفيق الأعلى من أعلى عليين وجاذب يجذبه الى أسفل سافلين .

الانسان على الحقيقة :

اننا لا نستطيع فهم الانسان وتفسير سلوكه وأخلاقة إلا إذا عرفنا حيقته ، فليس هو الظاهر أمامنا بجوارحه وأعضائه التى تصور فقط الهيكل الخارجى ، وإنما حقيقته تكمن فى داخله، أى فى قلبه ، فمن أراد إصلاح أخلاقه فعليه أيضاً البدء بإصلاح قلبه .

والقلب يطلق على معنيين :

أحدهما أمر حسى وهو العضو اللحمى مجمع الدم .

والثانى معنوى ، وهو لطيفة ربانية رحمانية روحانية لها بهذا العضو تعلق واختصاص ، وتلك اللطيفة هى حقيقة الانسانية [1] .

ويقرب الينا ابن القيم فهم هذا القلب الذى هو الانسان على الحقيقة فيصوره فى

(١) التبيان فى اقسام القرآن : ابن القيم ص ٢٦٣ تصحيح وتعليق طه يوسف شاهين مكتبة انصار السنة المحمدية ـ عابدين مصر ١٣٨٨ هـ ـ ١٩٦٨ م .

شكل ملك عظيم جالساً على سرير مملكته ، يأمر ، وينهى ، ويولى ، ويعزل وقد حف به الأمراء والوزراء والجند ، كلهم فى خدمته ، ان استقام استقاموا وإن زاغ زاغوا ، وإن جنح جنحوا ، وإن فسد فسدوا . فعليه المعول ، وهو محل نظر الرب تعالى ، ومحل معرفته ومحبته وخشيته ، والتوكل عليه ، والانابة اليه ، والرضى به ، وعنه ، والعبودية عليه أولاً وعلى رعيته وجنده تبعاً .

ولما خلق القلب للسفر الى الله والدار الآخرة وحصل فى هذا العالم ليتزود منه ، افتقر الى المركب والزاد لسفره الذى خلق لأجله . فأعين بالأعضاء والقوى وسخرت له ، وأقيمت له فى خدمته لتجلب له ما يوافقه من الغذاء والمنافع ويدفع عنه ما يضره ويهلكه.

لذلك احتاج القلب الى جنديين :

١ ـ **باطن** : وهو الارادة والشهوة والقوى .

٢ ـ **ظاهر** : وهو الاعضاء أى آلة الأرادة .

وعلى ضوء حقيقة ابتلاء الانسان فى الدنيا بالشهوة والغضب والشيطان فإن الله تعالى أعانه عليها بجند من الملائكة . بل ما ابتلى بصفة من الصفات إلا وجعل لها مصرفاً ومحلاً ينفذها فيه : فبازاء الحسد جعل له المنافسة فى فعل الخير والغبطة عليه والمسابقة اليه .

وبازاء الكبر جعل له التكبر على أعداء الله تعالى واهانتهم ، وقد قال النبى ﷺ لمن رآه يختال بين الصفين فى الحرب (انها لمشية يبغضها الله إلافى هذا الموطن) .

وهكذا جعل لكل أحاسيس النفس، واردات القلب مصارف ومواضع تستعملها بأعمال الحلال .

وإليكم هذه المصارف :

جعل لقوة الحرص مصرفا ، وهو الحرص على ما ينفع كما قال النبى ﷺ (احرص على ما ينفعك) ، ولقوة الشهوة الزواج ، ولقوة حب المال انفاقه فى مرضاته تعالى ، ولمحبة الجاه مصرفا وهو استعماله فى تنفيذ أوامره واقامة دينه ونصر المظلوم واغاثة الملهوف واعانة الضعيف وقمع اعداء الله . فمحبة الرياسة والجاه على هذا الوجه عبادة .

وجعل لقوة اللعب واللهو مصرفاً ، وهو لهوه مع امرأته أو بقوسه وسهمه أو تأديبه فرسه (أى التمرين على آلات الحرب وأسلحة القتال فى عصرنا الحاضر [1] .

الانسان ومكانته فى الكون :

اذا لخصنا عقيدته المتصلة بالايمان بالله تعالى وموقفه من قضايا خلق الانسان والعالم فسنرى أنه تقيد بعقيدة شيخه ابن تيمية ، فاعتمد على النصوص الواردة عن الصحابة والتابعين وتابعيهم لإثبات الصفات والأفعال لله تعالى ، وهى ادلة الكمال ويستخدم أحياناً نفس عبارات شيخه للتعبير عن آرائه ، مثل قوله (ان الرسل صلوات الله عليهم لم يخبروا بما تحيله العقول وتقطع باستحالته بل اخبارهم قسمان : أحدهما ما تشهد به العقول والفطر ، والثانى : مالا تدركه العقول ، كالغيوب التى اخبروا بها) فالمنهج الذى يفضله هو اتباع الانبياء ، ومن ثم ابعاد الاراء الفلسفية والكلامية المبتدعة ، وكان من نقاد الاخلاق عند الفلاسفة كما سنرى .

ومن النظر فى القرآن الكريم نعرف الله سبحانه ، (ومعرفة الله نوعان :
١ـ معرفة اقرار ٢ ـ معرفة توجب الحياء والمحبة له وتعلق القلب به) [2] ، والسالك الى ربه لا بد له من التقرب بالاعمال الظاهرة ثم أعمال القلوب ، ويبدو

---

(١) نفسه ص ٢٦٤ . (٢) الروح : ابن القيم ص ١٢ ط صبيح ١٣٨٦ هـ ـ ١٩٦٧ م .

أنه خلص الى القرب بهذا المعنى من شرح حديث التقرب الى الله تعالى بالفروض ثم النوافل

أما عن الانسان فقد اقتضت حكمة الله تعالى خلق آدم عليه السلام من مواد مختلفة : تراب الارض والماء فأصبحت كالحمأ المسنون ، ثم جفت بواسطة الريح فصارت صلصالا كالفخار ثم قدر لها الأعضاء وغيرها وأبدع تصويرها وتشكيلها حتى صارت جسداً متكاملا كأنه ينطق ، إلا أنه لا روح فيه ولا حياة ، فلما نفخ الله تعالى فيه نفخة (انقلب ذلك الطين لحماً ودما وعظاما وعروقاً وسمعاً وبصراً وشماً ولساناً وحركة وكلاماً) [1] .

ويستند ابن القيم فى تفضيل آدم على الملائكة الى عدة أسباب ، منها العلم ، وأنه خلاصة الوجود وثمرته ، وأنه جمع ما فرقه فى العالم فى آدم (فهو العالم الصغير وفيه ما فى العالم الكبير) [2] .

وبالنظر الى القرآن ، استمد حقيقة الانسان الذى جعله الله تعالى خليفة فى الارض ، لأنه الغاية التى من أجلها خلقت السموات والأرض والشمس والقمر والبر والبحر [3].

وبالنظر أيضاً الى الحديث النبوى عثر على المزايا التى اختصها آدم وحده ، وهى (خلق الله له بيديه ، ونفخ فيه من روحه ، واسجاد ملائكته له وتعليمه أسماء كل شئ) [4] .

ولتتضح لنا محنة الانسان فإن الشيخ يلجأ كدأبه الى القرآن الكريم ليستخرج منه

---

(١) الفوائد ص ١١١ . الناشر زكريا على يوسف .

(٢) التبيان فى اقسام القرآن ص ٢٠٤ ط المنيرية تحقيق طه يوسف شاهين .

(٣) الفوائد ص ٥٨ الناشر زكريا على يوسف .　　　(٤) الروح ص ١٥٥ .

المكونات المادية والروحية للانسان ، فيعود بنا الى خلقة ونشأته .

خلق الأنسان ونشأته :

إن لفظ (الانسان) في القرآن لا يقصد شخص معين كأبي جهل أو غيره ـ كما يقول كثير من المفسرين في قوله تعالى **﴿ يا أيها الانسان انك كادح الى ربك كدحاً فملاقيه ﴾** لأن القرآن أجل من ذلك ، بل الإنسان هو الإنسان من حيث هو من غير اختصاص بواحد بعينه ، أى انه الانسان المشخص الواقعى الذى يجده الفرد منا فى ذاته وفى غيره ، لا انسان عصر بعينه ولا قارة ولا بلد ولا الانسان المطلق الذى يتصوره الفلاسفة عادة .

ولهذا فإنه تتبع السور والآيات التى ذكر فيها الإنسان بالكتاب الكريم وساعدته حصيلته الوفيرة من المعرفة بالتفسير ، واطلاعه على الحديث ومعلوماته الوفيره فى علوم ومعارف عصره ، كل هذا شكل منها نظرته لحقيقة الانسان ، سواء بتتبع خلق آدم عليه السلام ، أو بما اشتملت عليه الطبيعة الإنسانية من خير وشر والصراع الدائب بينهما . أخذ يبحث فى أصل الخلق الأول من المادة ـ وهى التراب ـ والروح ، فأصبح الانسان مضطراً الى نوعين من الحياة : حياة بدنه وحياة قلبه وعنى أكثر بحياة القلب وما يملأه من معرفة الله تعالى والايمان به ، وهى معرفة فطريه .

وعندما فضله الله تعالى على باقى المخلوقات وخصه بالخلافة وأمر الملائكة بالسجود ففعلوا إلا ابليس أصبح الصراع بينهما دائراً فى الحياة الدنيا ، وهى مرحلة انتقال ، تتم بها دورة الانسان ليعود فى النهاية الى المصير المحتوم ، فالناس (منذ خلقوا لم يزالوا مسافرين ، وليس لهم حظ عن رحالهم إلا فى الجنة أو النار) .

ومن هنا كان من الضرورى لبنى آدم من يرشدهم ـ وهم الرسل والانبياء ـ المكلفين بمهام علمية وتشريعية وأخلاقية ، وخاتمهم محمد ﷺ الذى بعث هادياً

وداعيا الى الله والى جنته ، ومعرفاً بالله ومبينا للأمّة مواقع رضاه ، وآمراً لهم بها ومواقع سخطه وناهياً لهم عنها ومخبرهم أخبار الأنبياء والرسل وأحوالهم مع أممهم وأخبار تخليق العالم وأمر المبدأ والمعاد ، وكيفيه شقاوة النفس وسعادتها وأسباب ذلك

ويرى ابن القيم أن الخلق الفاضلة يمكن اكتسابها ويرسم لنا الطريق :

الخلق مكتسبة :

يعرف ابن القيم الخلق بأنها (هيئة مركبة من علوم صادقة وارادات زاكية وأعمال ظاهرة وباطنة موافقة للعدل والحكمة والمصلحة وأقوال مطابقة للحق ، تصدر تلك الأقوال والأعمال عن تلك العلوم والأرادات ، فتكتسب النفس بها أخلاقاً ، هى أزكى الأخلاق ، وأشرفها ، وأفضلها) [1] .

ويرى ابن القيم أن الصفات الخلقية تكتسب بالمران والجهاد والمثابرة ، كالتحلم والتشجع والتكرم والتحلم ونحوها ، وإذا تكلفه المرء واستفاده صار سجية له كما فى الحديث عن النبى ﷺ (ومن يتصبر يصبره الله)[2] وكذلك العبد يتكلف التعفف حتى يصير التعفف له سجية ، كذلك سائر الأخلاق . وقد عرض لوجهتى النظر المتعارضتين ، فالجبريون يرون أن الله سبحانه قد فرغ من الخلق ، وعارضهم آخرون فقالوا بل يمكن اكتساب الخلق كما يكتسب العقل والحلم والجود والسخاء والشجاعة والتجارب شاهدة بذلك إذ أن المزاولات ـ أى مزاولة الخلق المطلوب ـ تعطى الملكات ، أى تصير ملكة لصاحبها ، ومعنى هذا أن من زاول خلقاً يريده واعتاده وتمرن عليه صار ملكة له وسجية وطبيعة ، فلا يزال الفرد يتكلف التصبر حتى يصير الصبر له سجية . كما أنه لا يزال يتكلف الحلم والوقار والسكينة والثبات حتى تصير له أخلاقاً بمنزلة الطبائع ، وقد جعل الله سبحانه فى الانسان قوة القبول

(١) التبيان فى اقسام القرآن ط أنصار السنة المحمدية ص ١٣٥ .

(٢) تفسير المعوذتين ص ١٨ المطبعة السلفية .

والتعلم ، فنقل الطبائع اذن عن مقتضياتها غير مستحيل غير أن هذا الانتقال قد يكون ضعيفاً وقد يكون قوياً بحسب الجهد الخلقى المبذول [1]. وسنرى بعد قليل كيف يرسم طريق هذا الجهاد ويستحثنا على صعود الدرج الأخلاقى بمثابرة وهمة واصرار لنغير أخلاقنا الى الأحسن ، ونقاوم آثار البيئة والعادة وأوهام الخضوع للطبائع الذميمة ، وخير من يعين على ذلك هو الدين لا الفلسفة عن اقتناع بالفارق الكبير بينهما فى علاج المشكلة الأخلاقية .

الأخلاق بين الدين والفلسفة :

لتعريف الدين عند ابن القيم أولاً أن نعرف العلم الألهى ، كما يراه فأصل العلم هو العلم بالله تعالى واسمائه وصفاته وأفعاله ، كذلك العمل بمرضاته وانجذاب القلب اليه بالخوف والرجاء فيتعين من ذلك أن تصبح أجل المقاصد فى الشوق الى لقائه والتنعم بذكره (وهذا أجل سعادة الدنيا والآخرة ، وهذا هو الغاية التى تطلب لذاتها) [2] .

وهكذا لخص الدين كله بمقصوده الاسمى وغاياته العظمى فعّرفه بكلمات مختصرة لها دلالات أخلاقية (فالدين كله يدور على أربع قواعد : حب وبغض ويترتب عليهما فعل وترك) [3] وذلك على التفصيل الذى سيأتى بيانه بعد اعتراضاته على الأخلاق الفلسفية ونلاحظ أنه تأثر فيها بشيخه ابن تيميه .

أما الفلاسفة فقد افتقدوا هذه النظرة المتكاملة للنفس البشرية وما يوجب سعادتها أو شقاوتها ، فاعتبروا أن المقصود بالشرائع والعبادات تهذيب أخلاق النفوس وتعديلها لتستعد بذلك لقبول الحكمة العملية والعلمية ، اذ أنهم رأوا النفس لها شهوة وغضب بقوتها العملية ولها تصور وعلم بقوتها العلمية فقالوا كمال الشهوة فى

---

(١) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ص ١٢ ـ ١٣ ـ مطبعة الامام .

(٢) المرجع السابق ص ٩٢ . (٣) الروح ص ٢٥٣ .

العفة وكمال الغضب فى الحلم والشجاعة وكمال القوة النظرية بالعلم والتوسط فى جميع ذلك بين طرفى الافراط والتفريط هو العدل . أى بعبارة أخرى دارت تفسيراتهم الاخلاقية حول الغاية من العبادات والشرائع فظنوا انها ترمى الى كمال النفس باستكمال قوتها العملية بانطباع صور المعلومات فى النفس واستكمال قوتها العملية بالعدل .

والحقيقة غير هذا فإنه لاكمال للنفس الا بتحقيق ما خلقت لأجله ويتلخص فى معرفة الله بأسمائه وصفاته ، ومعرفة أمره ودينه والتمييز بين مواقع رضاه وسخطه واستفراغ الوسع فى التقرب إليه وامتلاء القلب بمحبته ، بحيث يكون سلطان حبه قاهراً لكل محبة ولا سعادة للعبد فى دنياه ولا فى اخراه إلا بذلك [1] وهذا هو مقصود الدين الاسمى الذى يدفع بالعبد الى الكمالات الاخلاقية .

ونفهم من سياق نقده للنظريات الاخلاقية عند الفلاسفة أنه يعنى نظرية الوسط عند أرسطو ومن قلده من فلاسفة المسلمين ، فأخذ ابن القيم يناقش الفكرة من كافة وجوهها ، ويخصص بعض السجايا الاخلاقية عندهم بالنقد ، ففيما يتعلق بالعفة مثلا لم يذكروا عن ماذا تكون ولا مقدراها الذى اذا تجاوزه العبد وقع فى الفجور وكذلك الحلم لم يذكرا مواقعه ومقداره وأين يحسن وأين يقبح ، وكذلك الشجاعة وكذلك العلم لم يميزوا العلم الذى تزكو به النفوس وتسعد به من غيره ، بل لم يعرفوه أصلا وذلك بخلاف الرسل صلاة الله وسلامه عليهم فقد بينوا ذلك غاية البيان وفصّلوه أحسن تفصيل ، وقد جمع الله ذلك فى كتابه فى آية واحدة فقال ﴿ **قل انما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله ما لا**

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والارادة جـ ٢ ص ١١٩ ط صبيح ١٣٤١ هـ .

تعلمون﴾ . فهذه الأنواع الأربعة التى حرمها تحريماً مطلقاً لم يبح منها شيئاً لأحد ، فالفواحش متعلقة بالشهوة ـ وتعديل قوة الشهوة باجتنابها ـ والبغى بغير الحق متعلق بالغضب وتعديل القوة الغضبية باجتنابه ـ أى الغضب ـ والشرك بالله ظلم عظيم على الاطلاق وهو مناف للعدل وفساد العلم يرتبط بالقول على الله تعالى بغير علم وهذه المحرمات المحرمة تحريماً مطلقاً بخلاف غيرها كاميته والدم ولحم الخنزير فإنها تحرم فى حال وتباح فى حال [1] .

ويدور نقده أيضاً حول ضرور العلم والعمل معاً للنفس لا الاقتار على احدهما دون الآخر ، فإن مجرد العلم ليس بكمال للنفس ما لم تكن مريدة محبة لمن لا سعادة لها إلا بإرادته ومحبته . وإذا افترضنا أنه بمجرد العلم تكمل النفس فإن ما لهم من العلم لا يعد كمالا للنفس ، لأن ما عندهم من العلوم لا تخرج عن كونها اما رياضية أو طبيعية لاكمال للنفس باحدهما أو بهما معاً . وحتى العلم الالهى عندهم فإنه باطل عندهم كله لم يوفقوا فى اصابه الحق فيه ولو فى مسألة واحدة .

أما مقصودهم يعنى الفلاسفة ـ فى كمال القوة العملية فغايته عندهم تعديل الشهوة والغضب والشهوة أى جلب ما ينفع البدن ويبقى النوع فغايتهم المقصودة والحقيقية هو البدن ، والبدن هو آلة النفس فلم يذكروا كمال النفس من حيث الارادة والعمل بالمحبة والخوف والرجاء .

ننتهى من كل ذلك الى ما اشترطه ابن القيم فى القوتين العلمية والعملية للنفس حتى تتحقق سعادتها على أتم وجه فلا بد من غاية نهائية وهدف أسمى يتخطى المراحل المؤقته التى تجتازها النفس فى ادوار حياتها المختلفة مع تجدد أغراضها ، فإن عمل الانسان الاختيارى تابع للارادة ، وكل ارادة لابد لها من مراد لنفسه أو مراد لغيره ينتهى الى المراد لنفسه .

---

(١) المصدر السابق ص ١٢١ .

وهذا المراد فى النهاية اما أن يكون مضمحلاً فانياً كتحقيق أو جلب منفعة مؤقته فتزول حينئذ الارادة بزاوله وكأن الجهد المبذول انتهى الى لاشئ ، واما ان يكون باقيا غير فانٍ فيجب اذاً أن يكون مراد النفس الذى تكمل بارادته وحبه وايثاره باقيا لا يفنى ولا يزول ، وليس ذلك إلا الله وحده . أى العمل ابتغاء مرضاته عز وجل [1] .

ولكن كيف نستطيع اكتساب الاخلاق الحسنة ونبذ الاخلاق الرديئة ؟ هذا ما يوضحه ابن القيم أثناء حديثه عن خلق الصبر وبيان مكانته فى الجهد الخلقى والكفاح المستمر لتقوية الارادة الخيرة واضعاف الارادة الشريرة .

مكانة الصبر فى الجهد الخلقى :

مر بنا ان أبن القيم يرى انه يمكن اكتساب الخلق ، فبالرغم من ظروف البيئة وفساد الطباع وعوامل الوراثة والاخلاق الرديئة ، فإن الراغب فى الرقى الاخلاقى يستطيع تزكية نفسه وتقويم خلقه بالعزيمة الصادقة والمثابرة المصممة على الفوز . بل الكمالات الانسانية لاتنال إلا بالالآم والمشاق ، كالعلم والشجاعة والزهد والعفو والحلم والمرءة والاحسان والصبر .

ويعّرف ابن القيم الصبر تعريفاً دقيقاً فى مجال الاخلاق يربط فيه بين الرغبات النفسية والارادة فيقول (والصبر حبس النفس عن السخط بالمقدور ، وحبس اللسان عن الشكوى وحبس الجوارح عن المصيبة) [2] .

وتحقيق ذلك أن الانسان بين أمر يجب امتثاله وتنفيذه ونهى يجب عليه اجتنابه وتركه ، ولكن الصبر لازم له ، وهو بمثابة عاصم للنفس من التمادى فى الشعور النفسى المقبض كالجزع والحزن والخوف واليأس ، أو التمادى فى الشعور النفسى

---

(١) مفتاح دار السعادة جـ ٢ ص ١٢١ ـ ١٢٢ .

(٢) الوابل الصيب من الكلم الطيب ص ٢ المنيرية ١٣٧٨ هـ .

المضـاد أى الفرح والزهو والبطر ، كذلك فإنه ضابط للارادة ، ممسك لها عن اتيان الآثام والفـواحش فـالصبـر كـالخطام والزمام للنفس ذلك لأن الصـبـر لا يخـلو من نوعين :

أحدهما :

يوافق هوى الانسان ومراده كالصحة والسلامة والجاه والمال وأنواع الملاذ المباحة وهو أحوج الى الصبر فيها حتى لا يركن اليها ويغتر بها فتحمله على البطر المذموم ، وحتى لا يبالغ فى استقصائها فتنقلب الى أضدادها ، وحتى لا تدفعه نفسه الى تجاوز الحد فتوقعه فى الحرام بعد نيل حظها من الحلال ، والمقدرة على الصبر فى هذه الاحوال أشد منها فى حال المصائب ، فصدق القائل (البلاء يصبر عليه المؤمن والكافر ولا يصبر على العافية إلا الصديقون) .

والآخر :

مخالف للهوى وهو بدوره ينقسم الى قسمين :

(أ) أحدهما يرتبط باختياره كالطاعات والمعاصى ، فالصبر يحتاج اليه لأن النفس بطبعها تنفر عن كثير من العبادات وتؤثر الكسل والراحة لاسيما اذا اتفق مع ذلك قسوة القلب ورين الذنب والميل الى الشهوات ومخالطة أهل الغفلة .

(ب) الثانى لا يرتبط باختيارة كالمصائب التى لا صنع للعبد فيها كموت عزيز أو مريض أو سرقة مال ونحو ذلك [1] .

أما الجزاء على الصبر فيختلف فى الحالتين ، اذ أن الصبر على الامور الخارجة

---

(١) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ص ٥٠ ـ ٥٣ .

عن ارادة العبد لا يكتب لصاحبها أجر ولكن يكفر بها الخطايا ، ولا يؤجر العبد إلا على الأعمال الاختيارية ، وما تولد منها ، وذلك كان صبر يوسف الصديق عليه السلام عن مطاوعة امرأة العزيز وصبره على ما ناله فى ذلك من الحبس والمكروه أعظم من صبره على ما ناله من أخوته لما ألقوه فى الجب وفرقوا بينه وبين أبيه وباعوه بيع العبد .

بمثل هذا التفسير يفتح ابن القيم أمامنا مجالاً فسيحاً فى دائرة محاولاته الهادفه للسمو بأخلاقنا ، وبذل الجهود الدائبة لتحسينها والارتقاء بها ، ويستحثنا على ذلك ببيان أخلاق الله تعالى ، اذ أنه سبحانه هو الصبور ، بل لا أحد أصبر على أذى منه ، وقد قيل ان الله سبحانه أوحى الى داود (تخلق بأخلاقى فإن من أخلاقى أنى أنا الصبور) ، ويعلق ابن القيم على ذلك بقوله (والرب تعالى يحب أسماءه وصفاته ويحب مقتضى صفاته وظهور آثارها فى العبد فإنه جميل يحب الجمال ، عفو يحب أهل العفو ، كريم يحب أهل الكرم ، عليم يحب أهل العلم وتر يحب أهل الوتر قوى والمؤمن القوى أحب اليه من المؤمن الضعيف ، صبور يحب الصابرين ، شكور يحب الشاكرين . وإذا كان سبحانه يحب المتصفين بآثار صفاته فهو معهم بحسب نصيبهم من هذا الاتصاف ، فهذا المعية الخاصة عبر عنها بقوله « كنت له سمعا وبصرا ويدا ومؤيدا) [1] .

ومع وضعه هذه الغاية العظمى والهدف الاسمى فإنه يرسم الطريق ويخطط معالم الوصول عندما يحلل ويشرح طبيعة الارادة الانسانية ، اذ لا عذر للمرء فى اختيار الرذائل ومكابدة آلام الخطايا حيث الاسف والندم لان الارادة صالحة للضدين ، فاختيار أحد الطريقين على الآخر من مسئوليته ، ويتم بحريته ، فالعبد هو المستجيب المريد الفاعل حقيقة اذ لا سلطان لأحد على ارادته الحرة المختارة ، وآية ذلك أيضاً

---

(١) عدة الصابرين ص ٣٦ ــ ٣٧ .

حديث الرسـول ﷺ (بعثت داعيا ومبلغا وليس الى من الهداية شئ ، وبعث ابليس مزينا ومغوياً وليس اليه من الضلالة شئ) [1] .

ويظل الانسان طوال حياته ـ مع الكفاح فى تقوية الارادة الخيرة واضعاف الارادة الشريرة ـ مؤملا فى غفران الله تعالى ، مستغفراً من ذنوبه ، عائداً الى الله تائباً نادماً مصمماً على الكف عما يغضبه يحدوه الامل والرجاء ، فقد كان عمر رضى الله عنه مع منزلته فى الصحبة والايمان والعدل ومكارم الاخلاق يقول فى دعائة (اللهم ان كنت كتبتنى شقيا فامحنى واكتبنى سعيدا فانك تمحو ما تشاء وتثبت) [2] .

وتظهر العزيمة الصادقة كأظهر ما تكون فى خلق الصبر ، وهو ان كان شاقا كريها على النفوس فتحصيله ممكن ، ويتركب من العلم والعمل فمنهما تركب جميع الادوية التى تداوى بها القلوب والابدان .

ويتلخص منهاج ابن القيم فى طريق هذا الجهاد الخلقى بتقسيمه الى قسمين :

أحدهما علمى : وهو ادراك ما فى المأمور من الخير والنفع واللذة والكمال ، وادراك ما فى المحظور من الشر والضر والنقص .

الثانى عملى : أى العزيمة الصادقة والهمة العالية والنخوة والمروءة الانسانية ، وبذلك يكون مصارعة باعث العقل والدين لباعث الهوى والنفس ، وككل متصارعين أراد أن يتغلب احدهما على الآخر ، فالطريق فيه تقوية من أراد أن تكون الغلبة له ويضعف الآخر كالحاه مع القوة والمرض سواء.

وهذه القاعدة العامة لعلاج أمراض النفوس ، ولكنه يولى عناية خاصة لطرق علاج داء الشهوات المحرمة الذى يصبح هينا سهلا اذا ما اتبع الانسان

(١) شفاء العليل فى مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ط الخانجى سنة ١٣٢٣ هـ .
(٢) شفاء العليل ص ٩٠.

طـرق العلاج الآتية :

الاول : ان ينظر الى مادة قوة الشهوة فيجدها من الاغذية المحركة للشهرة فيقللها أو يمتنع عن تناولها فاذا لم تنحسم فعليه بالصـوم فانه يضعـف مجارى الشهوة ويكسر حدتها .

الثاني : أن يجتنب محـرك الطلب وهو النظر فالحـديث (النظر سهم من سهام ابليس) فان نصبت قلبك غرضا فيوشك أن يقتله سهم من تلك السهام السمومة .

الثالث : تسلية النفس بالمباح المعوض عن الحرام .

الرابع : التفكر فى المفاسد الدنيوية المتوقعة من قضاء هذا الوطر (١) .

وبعـــــــد

فقـد وضح لنا كيف حلّ المعضلة الاخلاقية بعد بيان أصل الانسان ودوره ومصيره ثم ربطه بالطريق الى الله تعالى بواسطة معرفته وعبادته ومحبته عز وجل .

وإذا شئنا ان نتابـعه فى تصوره للدورة التى يستغرقها الانسان فى حيـاته فإنهـا تبدو هكـذا :

عند بدء الخلق ، فطر الانسان على معرفة ربه ، ولذا فإن دور الانبيـاء عليهم السلام هو تذكرته بالميثاق الذى أخذه الله تعالى عليه حينذاك ، وعندما فضله على باقى المخلوقات وخصه بالخلافة ، وأمر ابليس بالسجود له فأبى ، زين له الاكل من الشجرة المنهى عنها ، فأخرج آدم عليه السلام من الجنة ومازالت (تلك الاكلة تعاوده حتى استولى داؤه على أولاده ، فأرسل اللطيف الخبير الدواء على أيدى أطباء الوجود ﴿ **فأما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا يضل ولا يشقى** ﴾ (٢) .

---

(١) عدة الصابرين ص ٤٢ ـ ٤٣ .

(٢) الفوائد ص ٦٠ .

وتظل المعارك دائرة مع ابليس ـ ميدانها النفس ، والجيوش الاسلامية كلها تحت لواء الارادة الانسانية لو طلبها واستخدمها (امراء هذا الجيش ومقدموه عساكره شعب الايمان المتعلقة بالجوارح ـ وهى العبادات وشعبه الباطنة المتعلقة بالقلب [1] .

ويلفت نظرنا أن استخدامه لفظى الجيش والجيوش لم يكن من قبيل الاستعارة أو التشبيه البليغ فحسب ، بل ان ابن القيم يعنى باختيار ألفاظه ليدلل على تصوره لهذه المعركة الفعلية الدائرة حقيقة ـ لا مجازا ـ فيقول لخائر العزم المنصرف الى اللهو ، (الحرب قائمة وأنت أعزل ؟ !) ليستحثه على الجهد الاخلاقى والحرص على نجاته فى هذه المعركة المصيرية التى يترتب عليها فى النهاية إما جنة وإما نار .

اذن هى حرب طاحنة ، وهى لا تزال سجالا ودولا ، الى أن يستولى أحدهما على الآخر [2] .

ولكى ينتصر الانسان لابد له من علم يقينى وعقيدة راسخة ، هى معرفته أن الجنة موطنه الاصلى ، وأن اسمى ما فيها هو رؤية الله عز وجل ، حيث يعود الانسان الظافر الى ربه محافظاً على ما فى قلبه من كنوز الايمان والتوحيد والاخلاص والمحبة والتعظيم والمراقبة [3] .

ومما يساعد الانسان على الاحتفاظ بهذه الكنوز ، دوام النظر والاستدلال بالآيات العيانية المتمثلة فى خلق العالم والانسان نفسه ، والآيات القولية السمعية المتلقاه بالوحى عن طريق الانبياء والرسل فقد نّوع سبحانه الادلة الدالة عليه ، وتنوّع أفعاله ومفعولاته من أعظم الادلة على ربوبيته [4] .

---

(١) الروح ص ٢٢٧ . (٢) الفوائد ص ٥٤ .

(٣) الوابل الصيب من الكلام الطيب ص ١٨ .

(٤) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص ١٥٢ المنيرة سنة ١٣٥٧ هـ .

ولابد أن يصاحب العلم العمل ، أى الحركة الارادية الدائبة المتجهة الى الله تعالى فى أنشطة الانسان كلها معبرة عن الاخلاص وصدق النية .

ولا حجة لاحد بعد أن حقق الانبياء والرسل النجاح الكامل من قبل ، فهم القدوة فى سلوك الطريق الى الله تعالى بما لا قوة فى الدنيا من الصعاب وأهوال وقد بلغوا الذروة فى ابتلاءاتهم فنجحوا وصاروا قدوة للطائعين ، وسيصيرون حجّة على العاصين يوم القيامة . ولذلك فلاحجة لأحد امام الله تعالى ، لأن ارسال الرسل وانزال الكتب نوع من الالزام للبشرية وهو نوع فريد من الالزام الخلقى ، وهنا نجد كلمات ابن القيم تكاد تقفز فوق الاسطر معبرة عن سخطه وألمه ، ناهيا على اللاهين اللاعبين ضعف العزيمة وخور الارادة (*أين أنت والطريق ؟ طريق تعب فيه آدم ، وناح لاجله نوح ـ ورمى فى النار الخليل ، واضطجع للذبح اسماعيل ، وبيع يوسف بثمن بخس ، ولبث فى السجن بضع سنين ونشر بالمنشار زكريا ، وذبح الحصور يحيى ، وقاسى الضر أيوب ، وزاد على المقدار بكاء داود ، وسار مع الوحش عيسى ، وعالج الفقر وأنواع الاذى محمد ﷺ*)[1] .

لهذا كلهّ ، فابن القيّم يؤكد حريّة الاراده ـ الركن البارز فى المشكلة الأخلاقية على النحو التالى :ـ

حرية الارادة الانسانية :

لم يكن ابن القيّم فريداً فى إثبات هذه الحرية ، فقد أثبت علماء الاسلام حرية الارادة الانسانية كدعامة من دعامات الاخلاق ومسئولية الانسان عن أفعاله . ولعل أفضل ما نستهل به هذا الموضوع ، هو اجابة السؤال الذى وجه الى جعفر الصادق

(١) الفوائد ص ٣٧ .

رضى الله عنه حيث سئل عن قول الله تعالى ﴿ **أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم الينا لا ترجعون** ﴾ ، لِمَ خلق الخلق ؟

فأجاب : لان الله كان محسنا بمالم يزل فيما لم يزل ، فأراد الله أن يفيض احسانه الى خلقه وكان غنيا عنهم ، لم يخلقهم لجلب منفعة ولا لدفع مضرة ، ولكن خلقهم وأحسن اليهم فأرسل اليهم الرسل ليفصلوا بين الحق والباطل فمن أحسن كافأة بالجنة ومن عصى كافأه بالنار) .

ويشرح ابن القيم أنواع الابتلاءات التى يتعرض لها الانسان أثناء حياته فى الدنيا محصياً الآيات القرآنية الدالة عليها .

ويذكر أن الله سبحانه وتعالى ابتلى العباد بالنعم كما ابتلاهم بالمصائب ، وأن ذلك كله ابتلاء فقال ﴿ **ونبلوكم بالخير والشر فتنه** ﴾ .

وقال : ﴿ **فأما الانسان اذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربى أكرمن وأما اذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربى أهانن** ﴾ [١] .

وقال : ﴿ **انا جعلنا ما على الارض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا** ﴾ .

وقال : ﴿ **الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا** ﴾ .

وقال : ﴿ **وهو الذى خلق السموات والارض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا** ﴾ .

فأخبر سبحانه أنه خلق العالم العلوى والسفلى وقدر أجل الخلق ، وخلق ما على الارض للابتلاء والاختبار ، وهذا الابتلاء انما هو ابتلاء صبر العباد وشكرهم فى

---

(١) فى تفسير ابن القيم الآية : قال الله تعالى :

كلا أى ليس الأمر كما يقول الانسان بل قد ابتلى بنعمتى وأنعم ببلائى .

الخير الشر والسراء والضراء .. [1].

كذلك وردت الاحاديث الكثيرة فى بيان ما يقابله المؤمن فى حياتة من ابتلاءات طوال عمره ، منها :ـ

* عن صهيب الرومى رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ . عجباً لأمر المؤمن ، إن أمره له كله خير وليس ذلك لأحد الا المؤمن ، ان أصابته سراء شكر فكان خيرا له وإن اصابته ضراء صبر فكان خيرا له) رواه مسلم .

* عن مصعب بن سعد عن أبيه قال يا رسول الله أى الناس أشد بلاء ؟ « أى محناً وشدائد » قال : الانبياء والامثل فالامثل ، يبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان دينه صلباً اشتد بلاؤه ، وإن كان فى دينه رقه ابتلاه الله على حسب دينه ، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يمشى على الارض وما عليه خطيئة (رواه ابن ماجه وابن ابى الدنيا والترمذى وقال حديث حسن صحيح) .

والعبد المؤمن يداوم شكره على النعم وصبره على البلاء حتى يجتاز طريق الدنيا ويعود الى الجنة ـ موطنه الاصلى كوعد الله تعالى اياه (فانه ماحرمه ـ عز وجل ـ إلا ليعطيه ، ولا أمرضه الا ليشفيه ، ولا أفقره إلا ليغنيه ، ولا أماته الا ليحييه ، وما أخرج أبويه من الجنة إلا ليعيدهما اليها على أكمل وجه . كما قيل : يا آدم لا تجزع من قولى لك اخرج منها ، فلك خلقتها وسأعيدك اليها) .

موقف الانسان :

الانسان اذن أمام هذه الحقيقة لا يملك فرارا ، فهو بين أمر يجب عليه امتثاله وتنفيذه ، ونهى يجب عليه اجتنابه وتركه ، والصبر مع هذين الطرفين لازم ولا يخلو من نوعين :

(١) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين : ابن القيم ص ١٢٥ (مطبعة الامام) .

أحدهما ـ يوافق هواه ومراده كالصحة والسلامة والجاه والمال .

والآخر ـ المخالف للهوى وهو على شكلين ، كما شرحنا عند تناول خلق الصبر :

أ ـ يرتبط باختياره كالطاعات والمعاصي ، وعليه يترتب الاجر .

ب ـ لا يرتبط باختياره كالمصائب ، وبها تمحى السيئات أو ترفع الدرجات ولكن الثابت أن الانسان لا يملك منح نفسه القدرات والمزايا الجبليّة كالذكاء والصحة والانوثة أو الذكورة ، ولا يملك اختيار أبويه فيرث عنهما مواهب وسمات معينه دون الاخرى ، ولا انتخاب الزمان الصالح ليعيش فيه ولا البيئة الصالحة ليمضي فيها طفولته . هذه كلها أمور لا يملكها الانسان وخارجة عن نطاق اختياره وليس مسئولاً عنها[1] .

ولكن المتعللين بالقدر على أفعالهم الانسانية يحتجون بآيات قرآنية يختارونها وفق أهوائهم ، كقول الله تعالى ﴿ **يضل من يشاء ويهدى من يشاء** ﴾ فاطر ٨ .

وهذا الاحتجاج سرعان ما يدحض أمام النظرة القرآنية لآيات أخرى تخيّر الانسان بين فعلين ، كقول عز وجل ﴿ **انا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفورا** ﴾ .

وقوله سبحانه وتعالى ﴿ **ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقوها** ﴾ .

والقرآن يفسر بعضه بعضا ، وهذا التفسير هو أدق التفاسير الذى يلجأ اليه العلماء لأن القرآن الكريم ميسر لكل ذى بصر وبصيرة . ﴿ **ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر** ﴾ القيامة ١٧ .

وبهذا الفهم يصبح تفسير الآية الاولى واضحا لا لبس فيه اذ معناها أن اضلال

---

(١) تعريف عام بدين الاسلام ، للشيخ على الطنطاوى ص ١٣١/١٣٢ دار الرائد ١٣٩٥هـ

الله لشخص لأنه آثر الغى على الرشاد فأقره الله على مراده وتمم له ما يبغى لنفسه قال تعالى ﴿ فلما زاغوا ازاغ الله قلوبهم والله لا يهدى القوم الفاسقين ﴾ الصف .

اذن ، فمعنى قوله تعالى ﴿ يضل من يشاء ﴾ لا يعارض وقوله ﴿ وما يضل به الا الفاسقين الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقة ﴾ البقرة ٢٦ ، ٢٧ كذلك الحال فى قوله تعالى ﴿ يهدى من يشاء ﴾ وعلينا النظر الى قيمة الارادة الانسانية فى ضوء قول الله تعالى وهو يتكلم عن ارادته ﴿ قل إن الله يضل من يشاء ويهدى اليه من أناب الذى آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله الا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ الرعد ٢٧ ، ٢٨ .

ثم يأتى دور مناقشة المحتجّين بالاحاديث النبوية وربما يقع أكثرهم على الحديث الآتى ويفسرونه خطأ بأنه يدل على الجبر ونفى حرية الارادة الانسانية .

والحديث : ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار ومقعده من الجنة ، فقالوا يا رسول الله ، أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل ؟ قال : اعملوا فكل ميسر لما خلق له فأما من كان من أهل السعادة فيصير لعمل أهل السعادة وأما من كان من أهل الشقاوة فيصير الى عمل أهل الشقاوة . ثم قرأ ﴿ فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى ﴾[1] .

---

(١) ويقول ابن القيم (فاتفقت هذه الأحاديث ونظائرها على أن القدر السابق لا يمنع العمل ولا يوجب الاتكال عليه بل يوجب الجد والاجتهاد ولهذا لما سمع بعض الصحابة ذلك قال : ما كنت أشد اجتهادا منى الآن ، وهذا مما يدل على جلالة فقه الصحابة ودقة أفهامهم وصحة علومهم) شفاء العليل ص ٢٥ . ويقول الشيخ محمد الغزالى : وهذا الحديث ـ للبصر النافذ ـ لا لبس فيه . (عقيدة المسلم ص ١٤٠) .

أما العلم السابق لله تعالى فيفسره بالآيات الاتيه :

قال تعالى ﴿ وما جعلنا القبلة التى كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه ﴾ البقرة ١٤٣ .

وقال ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ﴾ آل عمران ١٤٢ .

وقوله ﴿ ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم ﴾ .

وفيما يتصل بالعلم الالهى السابق ، نعود للآية الأولى التى ورد فيها (إلا لنعلم) فروى عن أبن عباس فى قوله (إلا لنعلم) أى (لنرى) وروى لنميز . وكذلك قال عامة المفسرين . إلا لنرى ونميز) وكذلك قال جماعة من أهل العلم ، قالوا : لنعلمه موجودا واقعا بعد أنه كان قد علم أنه سيكون ولفظ بعضهم ، قال : العلم على منزلتين – علم بالشئ قبل وجوده و علم به بعد وجوده – والحكم للعلم به بعد وجوده لأنه يوجب الثواب والعقاب .

قال : فمعنى قوله (لنعلم) أى لنعلم العلم الذى يستحق به العامل الثواب والعقاب ، ولا ريب أنه كان عالما سبحانه بأنه سيكون ، لكن لم يكن المعلوم قد وجد [1] .

ولا يشكل علم الله تعالى السابق ضغطا أو اجباراً على ارادة الانسان .

---

(١) الرد على المنطقيين : ابن تيمية ص ٤٢٦ ط لاهور ١٣٩٦ هـ – ١٩٧٦ . دار ومكتبة الشركة الجزائرية ١٩٦٨ .

آراء الامام عبد الحميد بن باديس في الاخلاق

التعريف بالامام عبد الحميد بن باديس :

ولد ابن باديس في ديسمبر سنة ١٨٨٩ وتلقى تعليمه أولا بحفظ القرآن الكريم فأتمه وهو في السنة الثالثة عشرة من عمره [١] وأخذ مبادئ العربية ومبادئ الاسلام عن الشيخ حمدان لونيسي ، ثم تلقى الدراسة الابتدائية بمدينة قسنطينة والثانوية بجامع الزيتونة حيث درس من عام ١٩٠٨ الى عام ١٩١٢ (وتوفى رحمه الله تعالى سنة ١٩٤٠ م) .

وخاض الامام في مجالات مختلفة تعليمية وصحفيه واجتماعية وسياسية محاولا تحرير بلده من الاستعمار الفرنسي واحياء الاسلام في نفوس الجزائريين بعد أن حاولت فرنسا نزع العقيدة الاسلامية من النفوس وسط حملة تغريب ضارية لم نجد لها في التاريخ مثيلا !

ونجح ابن باديس بمنهجه الاصلاحي المستمد من الاسلام في انقاذ بلاده واعادة شخصيتها وكيانها فحق اعتبار ذلك بمثابه **معجزة القرن العشرين** [٢] .

وقد اتخذ هذا الامام الكبير من الكتاب والسنة وسيرة السلف الصالح دليلاً ومرشدا في منهجه وأعماله كلها سيتضح لنا بعد قليل ، وقد خلّف لنا رحمه الله تجارب عظيمة في الاصلاح الاخلاقي والاجتماعي والسياسي .

---

(١) ابن باديس حياته وآثارة : عمار الطالبي جـ ١ ص ٧٤ .

(٢) الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائريه : د. محمود قاسم (الامام عبد الحميد بن باديس) ص ١٤ ط دار المعارف بمصر ١٩٦٨ .

آراء الامام عبد الحميد بن باديس فى الاخلاق [1]

منهجة :

من الممكن أن نلخص المنهج الذى اتبعه الامام عبد الحميد بن باديس من الكلمة الموجزة التى ألقاها بجمعية التربية والتعليم عام ١٣٥٨ هـ ـ ١٩٣٩ م بقوله (لم لا نثق بنفوسنا ، وقد أعطانا الله عقولا ندرك بها ؟ وقد اعطانا من هذا الدين الانسانى ، ومن هذا الدين العقلى والروحى ما يكمل عقولنا ويهذب أرواحنا ، اعطانامنه ما لم يعط لغيرنا، لنكون قادة وسادة وأعطانا وطنا شاسعاً مثل ما لغيرنا . فنحن اذن شعب عظيم يعتز بدينه ، يعتز بلغته ، يعتز بوطنه يستطيع أن يكون فى الرقى واحدا من هذه الشعوب ..)[2] .

كان معتزا بالاسلام لانه لا سبيل الى الناس فى دنياهم وأخراهم ومغفرة خالقهم ورضوانه إلا بالعمل بما أمر به والانتهاء عما نهى عنه ، وذلك مصداقا لقوله تعالى **﴿ قل هذه سبيلى أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين ﴾** يوسف ١٠٨ ، ويفسر الامام هذه الآية بأن الله خلق محمدا ﷺ أكمل الناس وجعله قدوتهم وفرض عليهم اتباعه والاقتداء به ، وقد بين سبيله بثلاثة أشياء (الدعوة الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا

---

(١) قام الاستاذ الدكتور محمود قاسم ـ رحمة الله تعالى ـ بدراسة شاملة لسيرة هذا الامام الجليل ، ومنهجه فى الاصلاح ، وفكره السياسى ، وفلسفته ، مع دراسة مقارنه بينه وبين الماتريدى وابن رشد فى فكرة السببية ، ونشر بعض النصوص من تفسير الامام للقرآن الكريم (ينظر كتاب الامام عبد الحميد بن باديس الزعيم الروحى لحرب التحرير الجزائرية ـ ط دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٨ للدكتور محمود قاسم) .

(٢) الزعيم الروحى لحرب التحرير الجزائرية : الامام عبد الحميد بن باديس (د. محمود قاسم)ص ٦٣

من المشركين) [1] .

وفى عبارة موجزة يعبر لنا عن مفهوم الدين عنده ، فالدين كله (عقيدة بالقلب ، ونطق باللسان ، وعمل بالجوارح الظاهرة والباطنة) [2] .

انه يتمسك بالقرآن للاصلاح فى كافة المجالات ، ومنها الاخلاق فقد بين لنا مكارم الاخلاق ونفعها ومساوئ الاخلاق وضررها ، ولكن المسلمين لم يستمسكوا بهذا الاصل وانصرفوا الى مناهج أخرى ، فمنهم من اندفع الى التصوف الاعجمى واعتبروا اياه عنوانا على السلوك القويم ، بينما الحقيقة أنه مختلط بتراث أمم وثنية ، أى أن المسلمين انصرفوا عن الاخلاق التى بينها القرآن والتى لا تدانيها أخلاق أى دين آخر أو أى مذهب فلسفى ، ووضعوا أوضاعا من عند انفسهم واصطلاحات مخترعة ابتعدوا بها عن الحقيقة السمحة ، وادخلوا من النسك الاعجمى ما هو بعيد كل البعد عن روح الاسلام ، بل معارضة القرآن بها [3] .

فمرد خطأ الصوفية فى منهجهم الالتجاء الى مصادر ثقافية ودينية أجنبية والاستناد الى قواعد أخلاقية غريبة عن الاسلام ، كما أخطأ المتكلمون أيضا عندما لم يستمدوا العقائد من القرآن وهى سهله قريبة فى متناول عامة المسلمين ، فكأنما هجروا القرآن ــ الى عباراتهم الاصطلاحية الصعبة (وقد كان من نتيجة هذا ما نراه اليوم فى عامة المسلمين من الجهل بعقائد الاسلام وحقائقة) [4] .

انه يؤمن بأن الحقيقة القرآنية متكاملة (تشمل الحياة الاخلاقية والسياسية

(١) تفسير ابن باديس جـ ١ ص ١٧٤ .

(٢) العقائد الاسلامية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية : ابن باديس ص ٥٣
مكتبة الشركة الجزائرية رواية وتعليق محمد الصالح رمضان ١٣٨٥ هـ ــ ١٩٦٦ م .

(٣) الامام عبد الحميد بن باديس : د. محمود قاسم ص ٥٤.

(٤) تفسير ابن باديس جـ ١ ص ٢٧٢ .

والاقتصادية والاجتماعية ، أو ما يعبر عنه بالدين والدولة أو الدنيا ، وليس الاسلام كالمسيحية التي اهتمت اهتماما بالغا بالاصلاح الروحي ، وأهملت النظام الاجتماعي ،وهو ما أراد بعض الناس أن يطبقه على الاسلام أيضاً) [1] .

كما اعترض الامام ابن باديس على طريقة المسلمين في تلقى القرآن وحفظه دون تطبيقة ، فإن هذه الطريقة مخالفة لطريقه السلف حيث استخدموا عقولهم لفهمه ، واستعملوا هممهم العالية لنشره وتعميمه (فإن القرآن لا يأتى بمعجزاته ، ولا يؤتى آثاره فى الإصلاح النفوس الا اذا تولته بالفهم عقول كعقول السلف ، وتولته بالتطبيق العملى نفوس سامية وهمم بعيدة ، كنفوسهم وهممهم) [2] .

هكذا فهم إمامنا رساله القرآن ، وكان هذا الفهم حجر الزاوية فى منهجه الاصلاحي ، لتخليص عقائد المسلمين من الشوائب ، وأخلاقهم من تأثيرات التصوف ، والاخذ بيدهم فى الارتقاء والتقدم . ويعتبر أن الشرع كله متوجه الى اصلاح النفوس ، فصلاح الانسان وفساده يقاس بصلاح نفسه وفسادها مستشهدا بقول الله تعالى ﴿ **قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها** ﴾ فعارض بذلك المدرسة الاجتماعية التى تضع فى المقدمة تغير المؤسسات الاجتماعية ، وتفترض أن الانسان صار الى ما صار اليه نتيجة عوامل مختلفة . وهو مع مناداته بالاصلاح فى ميادين الاقتصاد والاجتماع أيضاً ، إلا أنه يرى أنه ينبغى البدء بالانسان ، ولهذا فإن العامل الأخلاقى هو الاساس فى كل اصلاح عند ابن باديس بينما تجعله المدرسة الاخرى متأخرا عن المسائل المادية . ومن المهم أن ندرك ـ كما فعل الدكتور عمار الطالبى فى دراسته لمنهج الامام الجزائرى ـ أن كون النفس هى اساس الاصلاح ليس معناه التأمل الباطنى والانقطاع عن الحياة ، فإن هذا التصور كان بعيدا تماما عن

(١) مقدمة التفسير : عمار الطالبى جـ ١ ص ١٠٠ .

(٢) الامام ابن باديس : د. محود قاسم .. (النص الاول من تفسير الامام) ص ١٢٠.

الفكر الباديسي ، لان ميزته العقلية (أنه يجمع بين الفكر والعمل ، بين النظر والتطبيق ، وهى ميزة النفوس القويه ، وطبيعة المفكرين المؤمنين) [١] .

وكان معارضا لمنهج الفلاسفة كابن سينا وأمثاله (الذين يحاولون تطبيق العبارة الاسلامية على الفلسفة اليونانية والآراء الافلاطونية) [٢] ويقارن بينهم وبين الفقيه المغربى ابن العربى مادحاً إيّاه ، فيصفه بأنه حكيم اسلامى وفقيه قرآنى وعالم سنى ، ويوضح منهجه بأنه لا يبنى أنظاره إلا على أصول الاسلام ودلائل الكتاب والسنة .

المفهومات الاخلاقية :

من الضرورى أن نتعرف أولا على معانى ألفاظ كثيرة يستخدمها الامام ابن باديس مثل القلب ، الروح ، النفس ، العقل ، وسنحاول بيان المفهومات التى تناسب علم الاخلاق ، وذلك تمهيدا للحديث عن مذهبه فى الاخلاق .

يبدو من سياق آرائه أنه جعل القلب أساس الحياة الاخلاقية . وقد ذكر القلب كثيرا فى القرآن الكريم ، فإذا فاجأنا الى استطلاع حكيم أخلاقى سابق عليه وهو الراغب الاصفهانى لعثرنا على معنى القلب عنده ، فالمراد بالقلب (فى كثير من الآيات : العقل والمعرفة) [٣] ، ومن هنا نفهم قول العالم الجزائرى المسلم (ان اطلاق لفظ الفؤاد والقلب على العقل مجاز مشهور) [٤] ، أما القوى النفسية فهو فى الغالب يقصد بها الانفعالات والهواجس ، لأنه يقسم النفوس البشرية الى ثلاث أقسام ، قسم يصدر عنه الضرر ويعمله ، وقسم لا يريد الخير فيسعى فى سلبه وانتزاعه ، وهو شر من الاول ، والقسم الثالث وهو الاعظم خطراً لأنه (يوسوس بكلمه السوء مزينة الظاهر مغطاة القبح حتى تستنزل صاحبها الى الهلاك) [٥] . هذا ان

(١) مقدمة التفسير : د. عمار الطالبى ص ١٠٢ . (٢) تفسير جـ ١ ص ٤٦٠ .
(٣) تفسير القاسمى جـ ٢ ص ٤١ . (٤) تفسير ابن باديس جـ ١ ص ٢٦٦ .
(٥) نفسه ص ١٢١ .

كان القلب شريرا خاليا من دواعى العلم والايمان ، أما اذا كان محصنا بالايمان فحينئذ يصبح مجلى العقول فلا يستطيع الوسواس له نقبا [1] .

والنفس الكريمة هى التى كملت بمحاسن الاخلاق التى بها كمال النفوس [2] ووسيلتها الى ذلك التحلى بعقائد الاسلام فى الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر كله ، وتذوق حلاوتها ، فتتكون لها منها (ارادة قوية فى الفعل والترك تملك بها زمامها، تلك الارادة التى لا تكون الا عن عقيدة راسخة) [3] .

ان للنفس اذن عند ابن باديس معنى أعم من القلب ، ولكن نظرا لاهمية القلب ، فإنه يعبر به عن النفس على طريق المجاز .

إن المكلف المخاطب من الانسان هو نفسه ، ويسرى عليها ما يسرى على البدن من صحة ومرض ، فكما أن صحة البدن هو اعتدال مزاجه وقيام اعضائه بوظائفها ، ومرضها هو تعطيل اعضائه وضعفها وعجز بعضها أو كلها عن القيام بوظائفها ، فالامر كذلك أيضا بالنسبة للنفس من حيث اعتلالها ومرضها ، وطريقة علاجها وتقويمها ، فعلاج البدن بالدواء (واصلاح النفس بمعالجتها بالتوبه الصادقة وافساد البدن بتناول ما يحدث به الضرر ، وافساد النفس بمقارفة المعاصى والذنوب) [4] .

واستنادا الى الآيات والاحاديث يقدم لنا الادلة على صحة ما يذهب اليه ، ففى قوله تعالى ﴿ **قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها** ﴾ الضحى ١٠ ـ ١١ دليل على أن رقى الانسان وانحطاطه برقى نفسه وانحطاطها . والحديث (ألا وان فى الجسد مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله واذا فسدت فسد الجسد

---

(١) نفسه ص ١٢٦ .

(٢) نفسه ص ٣٠١ جـ ١ .

(٣) نفسه جـ ١ ص ١٣٢ ـ ١٣٣ .

(٤) تفسير ابن باديس جـ ١ ص ٢٣١ .

كلـه ألا وهى القلب) .

ويمضى معلقا على هذا الحديث فيقول (وليس المقصود من القلب مادته وصورته ، وانما المقصود النفس الانسانية المرتبطة به ، وللنفس ارتباط بالبدن كله ولكن القلب عضو رئيسى فى البدن ومبعث دورته الدمويه على قيامه بوظيفته تتوقف صلاحية البدن لارتباط النفس به فكان حقيقيا لأن يعبر به عن النفس على طريق المجاز) [1] .

والحياة الاخلاقية ترتبط ارتباطا وثيقا بالقلب بمعنى النفس ، فإن الصلاح يتم بالعقائد الحقة والاخلاق الفاضلة ـ أى بصحة العلم وصحة الارادة . وتبنى الاعمال على العقائد والاخلاق ، ولذا فعلينا فى رأيه أن نوجه الاهتمام الاعظم لتربية أنفسنا وتربية غيرنا ووسيلتنا (تصحيح العقائد وتقويم الاخلاق ، فالباطن أساس الظاهر) [2] .

وأشار الامام الى الغرائز دون تفصيل ، ففى تفسيره لقول الله تعالى ﴿ **واذا أنعمنا على الانسان أعرض ونئا بجانبه واذا مسه الشر كان يؤسا** ﴾ الاسراء ٨٣ ـ ٨٤ يذكر أنه فى النوع الانسانى غرائز غالبة عليه لا يسلم منها إلا من عصم الله أو وفق الى الايمان والعمل الصالح ، ورأى أن فى هذه الآية بيان الإعراض عن النعمة واليأس من الرحمة . (فليحذر المؤمن من هذين الوصفين الذميمين والعمل على اجتنابهما واجتثاثهما من أصلهما [3] وقد أوضح القرآن الكريم بيان لكثير من الغرائز للتحذير من شرها والتنبيه على سوء مغبتها ، منها أيضا محبة الانسان نفسه . والناحية النافعة فى هذه المحبة هو جلب للنفس حاجتها ودفع عنها ما يضرها والسعى فى تكميلها ، ولكنها من ناحية أخرى هى مدخل من أعظم مداخل الشيطان ،

(١) نفسه جـ ١ ص ٢٣٢ . (٢) نفسه جـ ١ ص ٣٣٩ .

(٣) نفسه جـ ١ ص ٣٣٧ .

فيحسن للانسان اعماله (وهو لمحبة نفسه يحب أعماله ويغتربها فيذهب مع هواه فى تلك الاعمال على غير هدى ولا بيان فيهلك هلاكا بعيدا ، والوقاية من هذا الهلاك هو أن يوزن الانسان أعماله بميزان الشرع لا سيما اذا ما اشتدت رغبته فى أمر تدعوه اليه نفسه ، فعليه أن يتهم اياها [1] .

وفى علاجه لموضوع الغرائز يضع العلاج لها ، وينبه الى امكان السيطرة عليها بحيث تجلب النافع وتدفع الضار ، ووسيلته الى ذلك هو عقائد الاسلام التى تتكون منها ارادة قوية فى الفعل والترك تملك بها زمام النفس [2] .

ان الخلق اذن عند الامام قابل للتعديل والتحسين حتى يصير ملكة نفسه ، اذ يعرف الخلق بأنه (الملكة النفسية التى تصدر عنها الاعمال) [3] .

ومصدره فى بيان الاخلاق هو القرآن الذى جاء موضحاً الاخلاق الصحيحة وعظيم نفعها وحسن عاقبتها ، ومبينا الاخلاق الفاسدة وسوء أثرها وقبح مغبتها ، فجاء مصححا للعقائد مقوما للاخلاق وبهما سلامة الارواح وكمالها . ان فيه شفاء للفرد والجماعة بما شرع من أصول العدل وقواعد العمران ونظم التعامل وسياسة الناس . فبالاجمال تضمن شفاء العقائد والاخلاق ـ وهما أساس الاعمال ـ والمجتمع . هذه الثلاثة لا تكاد تخلو آيات القرآن من معالجتها وبيان ما هو شفاء لها . ولا شفاء لها إلا بالقرآن ـ وبيان النبى ﷺ راجع الى القرآن ـ ومن طلب شفاءها ـ أى امراض العقول والنفوس ـ فى غير القرآن فإنه لا يزيدها إلا مرضا) ويضرب على ذلك مثلا بالامم الغربية التى امتلات بالجنايات والفضائح المنكرة بالرغم من سجونها ومشانقها ومحاكمها ، بينما بعض الممالك الاسلامية التى داوت الامراض بالقرآن قد استقرت فيها السكينة بلا سجون ولا مشانق .

---

(١) نفسه جـ ٢ ص ٤٥ ـ ٤٦ . (٢) نفسه جـ ١ ص ١٣٣ .

(٣) نفسه جـ ١ ص ١٢٧ .

التربية الاخلاقية

قلنا فى بداية هذا الحديث ان الامام ابن باديس يرى أنه ينبغى البدء بالاساس هى منهجه الاصلاحى (والاصلاح هو ارجاع الشئ الى حالة اعتداله بازالة ما طرأ عليه من فساد) [1]

ومن هذا العبارة ، نفهم كيف سعى الى بيان طريقته فى التربيه التى رأى أنه لابد فيها من الشرع ، وأنها (لا تكون مجدية الا على أساس تصحيح العقائد وتقويم الاخلاق) [2] يقول الاستاذ الدكتور قاسم (ومن قبل حاول اوجست كونت مثل هذه النهضة لكنه فصل الاخلاق عن الدين وحاول بعض أتباع مدرسته أن ينشئ الاخلاق على أساس من العلم لا من الدين فلم يفلح لقد ظنت المدرسة الفرنسية أن المجتمع هو الذى يفرض القيم الاخلاقية فرضا . ورأى ابن باديس ، ومثله جمال الدين الافغانى أن الاخلاق هى التى تنبع من اعمال الضمير المتدين لا من قهر المجتمع ، لأن صوت الضمير أقوى من مئات القوانين) [3]

وفى تفسير بن باديس لقول الله تعالى **﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ﴾** الاعرف ٩٥ يعنى أن الايمان والتقوى هما العلاج الوحيد للمسلمين . فليبدؤا من الايمان بتطهير عقائدهم من الشرك وأخلاقهم من الفساد وأعمالهم من المخالفات (فبدوام السعى واستمراره يأتى ذلك القليل من الاصلاح على صرح الفساد العظيم من أصله ، وليكن دليلنا فى ذلك وامامنا كتاب ربنا وسنة نبينا ﷺ وسيرة صالح سلفنا) [4] ، والدين كله عمل صالح وتوحيد خالص [5]

---

(١) نفسه جـ ١ ص ٢٣١
(٢) الامام عبد الحميد بن باديس د محمود قاسم ص ٥١
(٣) نفسه ص ٥١
(٤) التفسير جـ ١ ص ٣٠٠
(٥) نفسة ص ٣٦٥

هذا هو الدليل الصحيح الذى ينبغى الاسترشاد به فى التربية والاصلاح والنهوض بالامة الاسلامية ، وليست المدنية الغربية المادية فى نهجها وغايتها ونتائجها اذ تجعل القوة فوق الحق ، والعدل ، والرحمة ، والاحسان ، وكانت سبيلا فى ضلال العقائد ، وفساد الاخلاق ، وتعذيب الانسانية بالازمات الخانقة والحروب المخربة (هذه هي بلايا الانسانية التى يشكو منها أبناء هذه المدنية المادية التى عمرت الارض وأفسدت الانسان) [١].

وندرك من موقفه من الحضارة الغربية فهمه العميق لمقوماتها - ولا ننسى أن حديثه هذا قاله عام ١٩٣٥ - أى فى الظروف التى كانت تتهيأ فيه أوروبا للحرب العالمية الثانية ثم أنه عانى مع مسلمى الجزائر من آثار هذه الحضارة بسبب الاستعمار الفرنسى للجزائر لقد افسدت هذه الحضارة الانسان ، فلابد من البدء بالانسان واصلاحه على أساس من الدين ودليله هو القرآن العظيم (ففيه بيان العقائد وأدلتها ورد الشبه عنها وفيه بيان الاخلاق ، محاسنها ومساوئها ، وطرق الوصول الى التحلى بالاولى والتخلى عن الثانية ومعالجتها . وفيه أصول الاحكام وعللها)[٢].

أما عن وسيلة الانتفاع به ، لكى تتهذب به الاخلاق وتتزكى به النفوس وتتأدب بجميع آدابه فهو الانكباب عليه وتفهمه وتدبره كما قال تعالى ﴿ **كتاب أنزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب** ﴾ ص ٢٩ [٣] .

ويتم تقويم الاخلاق بالسلوك النبوى ، والتأسى بمحمد ﷺ الذى كان خلقه القرآن (فكان تذكيره بآيات القرآن : يتلوها ويبينها بالبيان القولى والبيان العملى متمثلا فى ذلك كله أمر ربه تعالى بقوله ﴿ **فذكر بالقرآن من يخاف وعيد** ﴾ ق ٤٥ [٤]

---

(١) نفسه جـ ١ ص ٣٥٦
(٢) نفسه ص ٤٢٩
(٣) نفسه ص ٤٩٠
(٤) نفسه ص ١٢٧

ان الغاية التى يسعى اليها كل عاقل هو السعادة الحقة ، وقد شرعت التكاليف الاسلامية لسوق الانسان اليها ، ويرى أن اعجاب المرء بنفسه سبب اقتراف كل شر والابتعاد عن كل خير ،ودليله على ذلك قول الله تعالى **﴿ ولا تمش فى الأرض مرحا انك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا ﴾** الاسراء ٣٧ ـ ٣٩ ويسمى هذه الآية آية الاخلاق ، حيث سيتبين لنا سبب هذه التسمية .

فالعجب هو أصل الهلاك لانه سبب الكبر ، والكبر يؤدى الى احتقار الناس فلا يعتقد المتكبر لهم حرمة ولم يراقب فيهم إلًا ولا ذمة ، ويصبح من اظلم الظالمين (وابليس اللعين ـ نعوذ بالله تعالى منه ـ كان أصل هلاكه من عجبه بنفسه ـ وانه خلق من نار ، وأنه خير من آدم ، فتكبر عليه فكان من الظالمين الهالكين) [1] ، ولذا فإن ترك العجب شرط فى حسن وكمال الاخلاق ، لانه أساس الرذائل والمانع من اكتساب الفضائل ، لأن المرء ان لم يكن معجبا بنفسه ، فان تلك الجبلة تدعوه الى التخلق بمحاسن الاخلاق والتنزه عن نقائضها (وإذا رغب فى الكمال كانت داعية فلا يزال بين التذكيرات الالهيه والجبلة الانسانية الخلقية يتهذب ويتشذب حتى يبلغ ما قدر له من كمال . ولهذه المعانى التى تتصل بتفسير هذه الآية الكريمة ـ وهى أصول فى علم الاخلاق ـ عنونا عليها بآية الاخلاق) [2] .

ثم يرى فى الآية التى تعقبها تأكيد الاوامر والنواهى المتقدمة بطريق الايجاز فى قوله تعالى **﴿ كل ذلك كان سيئه عن ربك مكروها ﴾** ، فالقبائح المنهى عنها فيما تقدمها من آيات قبيحة لذاتها ولنهى الله تعالى عنها ، اذ أنها مبغوضة له تعالى ويعاقب عليها ويسخط على مرتكبها ، فنفهم من ذلك أوامر الشرع ونواهيه على مقتضى العقل الصحيح والفطرة السليمة ، فإن الله سبحانه لا يأمر الا بحسن ولا ينهى إلا عن قبيح ،وفى ذلك ما يحملنا على الامتثال والترغيب فى الحسن لأن

---

(١) نفسه جـ ١ ص ٢٧٧ . (٢) نفسه ص ٢٧٧ .

النفس تميل اليه وتنفر من القبيح . وفى قوله تعالى ﴿ **عند ربك** ﴾ غاية الترغيب فى الحسن والتنفير من القبيح فإن الحسن جد الحسن ما كان حسنا عند الله تعالى ، والقبيح جد القبيح ما كان قبيحا عنده) [1] .

وتربيه النفس يقتضى التوبة وترك المعاصى ثم العمل الصالح ، اذ استثنى الله تعالى التائبين من الذنبين فى قوله عز وجل ﴿ **الا من تاب وآمن وعمل صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما** ﴾ الفرقان ٧٠ .

ووجوه التبديل فى هذه الآية أن السيئات الماضية محقت بالتوبة وان التائب صار يعمل الصالحات بدلا من السيئات ، كما أن نفس التائب بعد أن كانت مظلمة شريرة بالمعصية ، أصبحت منيرة خيرة بالتوبة والعمل الصالح ، فالتبديل اذن قد تم فى الكتب والعمل وحالة النفس) [2] .

وقد جاء الاسلام بالوسائل التى تهذب النفس وتربيها تربية فاضله . منها الصلاة التى تنهى عن الفحشاء والمنكر وتربى النفس على استصغار الدنيا وما فيها [3] والصبر من الامور الضرورية للتهذيب والتربية ، لأن الانسان لا ينهض بامتثال المأمورات وترك المنهيات الا به ، فالصبر (خلق من الاخلاق التى تربى وتنمو بالمران والدوام فواجب على المكلف أن يجعل تربية نفسه عليه وتعويدها به من أكبر همه) [4] .

وباختصار فقد أوضح القرآن أصول الطاعات وأمهات المعاصى (وقدّم اثبات الطاعات على انتفاء المعاصى تنبيها على أن من راضى نفسه على الطاعة ودانت نفسه والانقياد لأوامر الشريعة ضعفت منه أو زالت دواعى الشر والفساد فانكف عن

---

(١) نفسه ص ٢٧٩ .
(٢) نفسه جـ ١ ص ٤٧٨ .
(٣) نفسه ص ٤٦٤ .
(٤) نفسه ص ٥٠٠ .

المعصية) [١] ، وهو يقصد تقديم اثبات الطاعات بالآيات القرآنية التى تصف عباد الرحمن فى سورة · الفرقان) وتبدأ بقوله تعالى ﴿ **وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هونا واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما** ﴾ ٦٣ ، حيث توضح هذه الآية وما بعدها صفات عباد الرحمن وأخلاقهم وآدابهم فى صلاتهم وعلاقاتهم بخلقه . ثم نفت عنهم الآيات القرآنية فى ختام وصف الكمل من عباد الله امهات المعاصى فى قوله تعالى ﴿ **والذين لا يدعون مع الله الهـا آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون** ﴾ ٦٨ الفرقان .

ويستخلص إمامنا من النظر فى هذه الآيات وتفسيرها أن على المسلم الذى يجتهد لتزكية نفسه (أن يواظب على الطاعات بأنواعها وأن يجتهد فى حصول الانس بها والخشوع فيها ، فإن ذلك زيادة على ما يثبت فيه من أصول الخير يقلع منه أصول الشر ويميت منه بواعثه) [٢] .

ان تربية النفس وتهذيبها اذن ينبى على عاملين : أحدهما المواظبة على الطاعة لتدعيم أصول الخير وتدعيمها، والثانى اجتثاث أصول الشر واماتة بواعثه ومقدماته ، وهذا ما تفعله العبادات . فالمؤمن يطلب أسمى الغايات تنفيذا لامره تعالى ﴿ **واستبقوا الخيرات** ﴾ ومعناها طلب الرتب العليا فى الخير والكمال والسبق اليها . ومن لم يطلب الكمال بقى فى النقص ، بينما طلب الكمال كمال لأن الساعى اليه (حتى اذا لم يصل لم يبعد وحتى يكون فى مظنة الوصول بصحة القصد وصدق النية) [٣] .

ويرى أن هذا الكمال الانسانى يتوقف على قوة العلم وقوة الارادة وقوة العمل (فهى أسس الخلق الكريم والسلوك الحميد اللذين ينهض بهما بجلائل الاعمال

(١) نفسه ص ٤٦٨ . (٢) نفسه ص ٤٦٩ .

(٣) التفسير جـ ١ ص ٤٩٥ .

ويبلغ بهما اسمى غايات الشرف والكمال)[1] .

ان قوه العلم وقوة العمل من الاسباب التى ينبغى الأخذ بها نحن معشر المسلمين - كما يذكر الامام ابن باديس - (لنكون أهلا للدفاع عن الحق وحزبه ، ومقيمين لسلطان الله فى أرضه بالحق والعدل والاحسان . معتمدين مع تحصيل تلك الاسباب - على الله وحده ومنتظرين منه الفرج والتيسير)[2] . وهنا يتضح لنا ايمان هذا العالم المسلم الكبير بحرية ارادة الانسان ومحاربته لدعوى الجبر والتواكل التى سادت فى عصره على لسان الصوفية .

وكان إمامنا - رحمه الله - معبراً عن التقاء الفكر بالعمل فى سلوكه وأخلاقه ، وهاهو يعلن فى الكلمة التى ألقاها بمناسبة ختم القرآن . أنا زارع محبة ، ولكن على أساس من العدل والانصاف والاحترام مع كل أحد من أى جنس كان ومن أى دين كان)[3] .

لم يخلق الانسان للأرض :

يقول الامام ابن باديس (لم يخلق الانسان للارض وان خلق منها ، وانما خلق للسماء وللملأ الأعلى)[4] ، فماذا يعنى بهذه العبارة ، وما مغزاها فى مجال الحياة الاخلاقية للانسان ؟

اذا تأملنا نظريته المستخرجة من القرآن الكريم عن الانسان منذ بدء الخلق فإننا نستطيع أن ندرك ما تنطوى عليه هذه العبارة من مغزى أخلاقى ، اذ أنه ينبغى على الانسان أن يسعى لطلب السعادة التامة فى الآخرة ، وان يجعل الغاية النهائية لحياته هو

---

(١) نفسه جـ ٢ ص ٢٠٩ . (٢) نفسه جـ ١ ص ٣٢٣ .

(٣) نفسه جـ ٢ ص ١٤٤ وكان الاحتفال يوم ١٣ ربيع الثانى ١٣٥٧ هـ - ١٩٣٨ م

(٤) تفسير جـ ٢ ص ١٧٧ .

اختيار الباقية على الفانية . فالدنيا طريق الاختبار والابتلاء (لينال الانسان ما يستحقه على حسن تصرفه أو سوء تصـرفه من عادل الجزاء ، بعد خروجـه من دار الفناء الى دار البقـاء) [1] .

وخلق الانسان من روح وبدن يقتضى أن يبقى على بدنه بالغذاء وامر الله أن يكون المأكل من الطيبات لتغذيه ولا تؤذيه بخلاف الخبائث التى يكثر فيها الاذى ويقل بها الغذاء ، وأمر أيضا بالعمل الصـالح الذى تزكو بها نفسه . وليس من الاسلام تحريم الطيبات التى أباح أكلها كما يفعل غلاة الصوفية ، وقد نهى الاسلام أيضاً عن تعذيب البدن كما يفعل صوفيه الهنادك ومن قلدهم من المنتسبين للاسلام ، فالغذاء الطيب له أثره على القلب والبدن فتصلح الاعمال (كما أن الغذاء الخبيث يفسد به القلب والبدن فتفسد الاعمال) [2]

واذا كان الامر كذلك ، فالحياة حياتان ـ حياة الروح وحياة البدن ،وحياة الروح وحريتها هما أصل حياة البدن وحريته ، واذا شرع الله الصوم لتحصيل حرية الروح ليترك المؤمن طعامه وشرابه وشهوات بدنه لتحرير روحه من سلطة المادة والشهوة ويرتفع بها الى عالم علوى من الطهر والكمال [3] .

لقد كرم الله سبحانه النوع الانسانى بقوله تعالى ﴿ **ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا** ﴾ الاسراء ٧٠ .

والارواح الانسانية كريمة الجوهر لانها من عالم النور ، لأن نفخ الروح يتم بواسطة الملك ،والملائكة ـ خلقوا من النور ـ وقد ورد فى الحديث الصحيح (أن

---

(١) نفسه ص ١٧٧ . (٢) نفسة جـ ١ ص ٣٦٥ .

(٣) نفسه جـ ٣ ص ٤٨١ .

أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوما نطفة ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل اليه الملك فينفخ فيه الروح ... الخ) . ان الروح كريمة الخلقة أيضا لأنها فطرت على الكمال اذ اضافها الله تعالى اليه فى قوله **﴿ ثم سواه ونفخ فيه من روحه ﴾** ، واذا ما اتصلت بالجسد قد ترقى بالتزكية فترتفع الى معارج الكمال ، أو تنحط الى أسفل سافلين (وبعد ارتباطها بالبدن يتكون منهما المخلوق العظيم العجيب المسمى بالانسان ، الذى جعله الله تعالى خليفة فى الارض ليعمرها ويستثمرها) [١] .

ويعيش الانسان فى الدار الدنيا الموضوعة على المحنة والابتلاء فينهض بامتثال المأمورات وترك المنهيات ، وحياته من البداية الى النهاية مبنية على الارادة والفكر والعمل ، وهى المذكورة فى قوله تعالى **﴿ وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكــر أو أراد شكورا ﴾** فيستخرج الامام بن باديس من هذه الآية بأن الانسان يستفيد مما خلقه الله له وجعله لأجله . والتذكر يتم بالتفكر والشكر يتم بالعمل . ولكن هذه الاركان تعتمد على ثلاثة أخرى هى البدن اللازم للعمل ، والعقل للتفكر ، والارادة التى تتوقف على الخلق . فالتفكير الصحيح يرتبط بالعقل الصحيح ، والارادة القوية ناجمة عن الخلق المتين ، والعمل المفيد يؤديه البدن السليم (فلهذا كان الانسان مأمورا بالمحافظة على هذه الثلاثة عقله وخلقه وبدنه ، ودفع المضار عنها ، فيثقف عقله بالعلم ويقوم أخلاقه بالسلوك النبوى ، ويقوى بدنه بتنظيم الغذاء وتوقى الاذى والتريض على العمل)[٢] .

وتفسيرا لاحدى الآيات القرآنية ، يصور لنا الامام حركة المسلم فى حياته ، فإن كل فرد من أفراد بنى الانسان لا ينفك فى كل ساعة بل كل لحظة من لحظات عمره عن المداخل باعتبار دخوله فيها مما قبلها ، ومخرج لخروجه منها الى غيرها ،

(١) التفسير جـ ١ ص ٢٥٢ .　　(٢) نفسه جـ ١ ص ٤٣٤ .

فعليه اذن أن يقضيها صادق العقيدة صادق القول ، صادق السلوك فتصبح بذلك مدخل صدق ومخرج صدق ، والعكس اذا قضاها بسوء فى النيه والقول والعمل فهى مدخل كذب وفجور ومخرج كذب وفجور . فالانسان محتاج فى كل لحظة من حياته لتوفيق الله وتأييده وحفظه وامداده فجاء هذا الدعاء القرآنى منبها على هذه العقيدة) [١] . قال تعالى ﴿ **وقل رب ادخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا** ﴾ الاسراء ٨٠ .

فالسلوك الامثل هو أنه على الانسان ألا يدخل فى أمر أو يخرج منه الا على بصيرة به وبحث ومعرفة لحكم الله تعالى فيه ، دون تفرقة بين أمر وآخر ، أو كبير وصغير ، أو جليل وحقير ، مع الأخذ بالاسباب [٢] .

وأخذاً بالحديث النبوى ، يصف الامام بن باديس الناس فى الحياة الدنيا بصفتين حارث وهمام أى عامل ومريد . وبالنظر فى الآيات القرآنية التى تتناول من يريد الدنيا ومن يريد الاخرة ، يقسم حكيمنا العباد ـ من حيث المال فى الاخرة والسعى فى الدنيا ، والحصول على الثواب أو الاستحقاق للعقاب الى أربعة أقسام :

١ـ مؤمن آخذ بالاسباب الدنيوية ، فهذا سعيد فى الدنيا والآخرة .

٢ـ ودهرى تارك لها ، فهذا شقى فيهما .

٣ ـ ومؤمن تارك للاسباب فهذا شقى فى الدنيا وينجو ـ بعد المؤاخذة على الترك فى الآخرة .

٤ ـ ودهرى آخذ بالاسباب الدنيوية ، وهذا سعيد فى الدنيا ويكون فى الآخرة من الهالكين [٣] .

---

(١) تفسير جـ ١ ص ٣٢١ .

(٢) نفسه ص ٣٢٣ .

(٣) نفسه ص ٢٠٢ .

ان الانسان اذن فى موقف الاختيار بين طلب الدنيا وطلب الآخرة ، قال تعالى **﴿ من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا ﴾** ١٨ ـ١٩ الاسراء . فمن يريد الدار العاجلة وقصر همه عليها دون النظر الى ثواب أو عقاب بعدها ، ولا يتقيد فى سلوكه بشرائع العدل والاحسان ، فإنه يصبح مطروداً من الرحمة فى الآخرة ومصيره الى النار (١) .

والقسم الثانى من الخلق قصد بعمله الآخرة كما قال تعالى **﴿ ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا ﴾** ١٩ الاسراء ، والآية توضح شروط قبول عمله للآخرة وهو أن يقصد بعمله ثواب الآخرة قصدا مخلصا ، ويمتثل أوامر ربه ونواهيه ،كما ينبغى أن يكون مؤمنا موقنا بثواب الله تعالى وعظيم جزائه (واذا اختل واحد منهما فليس العمل بمتقبل ولا بمثاب عليه بضرورة انعدامالمشروط بانعدام شرطه) (٢) .

واذا أمعنا النظر فى تقسيم الامام للعباد من حيث طلب الدنيا وطلب الآخرة لرأينا أن الامام يجعل الاخذ بالاسباب هى الاساس سواء فى العمل ابتغاء السعادة فى الدنيا أو لطلبها فى دار البقاء والخلود . ان هذه النزعة واضحة فى كتاباته كلها ، فهو يثبت للانسان حرية الاختيار ويشيد بالعقل الانسانى الذى يمتاز بقوة التحليل والتركيب والتطبيق فتغلب بذلك على عناصر الطبيعة واستعمل الحيوان والجماد فى مصلحته ، والتمييز بين الخير والشر (٣) ، وقد وضع الدين للانسان قوانين ثابته للخير والشر موضحا أن الخير مانفع وأن الشر ما ضر (٤) .

ولكنه وان أوتى قوة التمييز لم يؤت قوة الاستعصام امتحانا وابتلاء من الله، واستمد نظرية الامتحان والاختبار من معنى قولة تعالى **﴿ وجعلنا بعضكم لبعض**

---

(١) تفسير جـ ١ ص ٢٠٠ .

(٢) نفسه ص ٢٠٣ .

(٣) نفسه جـ ٢ ص ٢٢ .

(٤) نفسه جـ ٢ ص ١١٢ .

فتنة أتصبرون وكان ربك بصيرا ﴾ الفرقان ٢٠ ، فالفتنه فى هذه الآية تعنى الابتلاء والامتحان والاختبار ، فجعل الله الرسل بشرا يأكلون ويتكسبون لامتحان العباد فى الاقتداء بالرسل من حيث الصبر على الجهد والبلاء وجعل الغنى امتحانا للفقير والفقير امتحانا للغنى ، والصحيح فتنه للمريض ، والمريض فتنه للصحيح وهكذا . وفى كل أحوال البشر فإن الله تعالى مطلع على ما يكون من عباده عند الامتحان ليجازيهم عليه ، وإذا تساءلنا عن الحكمة من الامتحان مع سبق علم الله سبحانه بما يكون عليه العباد ، فإن اجابة الامام صريحة فى اثبات الفعل للانسان لأنه متمكن من الفعل والترك وله القدرة على الاختيار ، ولهذا يمتحن الله العباد (لتظهر حقائقهم ويقع جزاؤهم على ما كسبت أيديهم باختيارهم ، ولا حجة لهم فى تقدم علمه تعالى بما يكون منهم ، لأن تقدم العلم لم يكن ملجئا لهم على أعمالهم ، ففى هذا الامتحان قيام حجة الله على العامليين أمام أنفسهم وأمام الناس ، كما فيه اظهار لحقيقتهم لأنفسهم ولغيرهم [1] .

* * *

(١) تفسير جـ ١ ص ٣٩٨ .

المذهب الأخلاقي عند الإمام ولي الله الدهلوي

تمهيد

لاحظنا فيما تقدم ما امتاز به علماؤنا في بحوثهم الأخلاقية انهم يتعاملون مع الانسان في حياته وحركته الدائبه الواقعية استرشادا بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، لا الانسان الساكن ، أو الانسان في (عالم المثل) كما تخيلته الفلاسفة .

ويأتي الامام ولي الله الدهلوي فيضخّم هذا التصور ويغذّيه بعلمه وتجاربه الوجدانية فيجعلنا نعايش الانسان المؤمن الحريص دائماً على الارتفاع بمستوى نفسه وروحه الى مستوى الملائكة ، وهو دائم الحركة النشطة لتزكية نفسه بالعبادات وتصحيح سلوكه في ضوء العلوم الفقهية الدالة على اجتياز سلوك الطريق المستقيم (فلا يزال المؤمن طول عمره في مجاهدة نفسه) [1] .

ويصح وصف هذه الظاهرة بأنها تعبّر عن عظمة الاسلام التي تتجلى دائما في شخصيات حسية (تفهمه حق الفهم ، وتؤمن به أعمق الايمان ، وتعيش كل مبادئه وتعاليمه ومن ثم ينعكس ايمانها في « سلوك » اسلامي هو « أعمال صالحة ») [2] .

أمر آخر لم يعالجه الفلاسفة وهو اكتشاف الصلة الوثيقة بين الطهارة الجسميه الحسية والطهارة النفسية الروحية ، ومن هنا شرع الاغتسال والوضوء والتطهر من النجاسات وتنظيف البدن والثياب وأثر كل ذلك على النفس والروح والسلوك . وأيضا صلة الأطعمه والأشربه بالسلوك الخلقي .

---

(١) حجة الله البالغة جـ ٢ ص ١٠١

(٢) الشخصية الانسانية في ضوء القرآن الكريم للدكتور أحمد عبد الحميد غراب ص١٢/١١ ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٥ م .

إن الامام الدهلوى يحذر من تناول الأطعمة والأشربه المحرمة لصلتها الوثيقة أيضاً بالخلق . قال (إعلم أنه لما كانت سعادة الانسان فى الأخلاق الأربعة ـ أى الطهارة والإخبات والسماحة والعدالة ـ وشقاوته فى أضدادها ، أوجب حفظ الصحة النفسانية وطرد المرض النفسانى أن يفحص عن أسباب تغيّر مزاجه الى إحدى الوجهتين فمنها أفعال تتليس بها النفس .. ومنها أمور تولد فى النفس هيئات دنية توجب مشابهة الشياطين والتبعد من الملائكة وتحقق أضداد الأخلاق الصالحة [1] فان ما يتناوله الانسان يؤثر فى بدنه ويتحول مزاجه الى مشابهة الحيوان المأكول فيُجبل على الأخلاق المضادة للأخلاق المطلوبة من الانسان .

وسنعرض فى الصفحات التاليه بإيجاز شديد لبعض معالم المذهب الأخلاقى للامام الدهلوى بعد التعريف به وبمنهجه :

* * *

(١) حجة الله البالغة جـ ٢ ص ١٧٩ / ١٨٠ وسأتى شرح هذه الأخلاق تفصيلا .

ويحدد ذكر أنواع الحيوانات والطيور المحرمة كالخنزير والسبع والحمار والغراب والحية والعقرب الخ ... فمنها ما جبل على الإيذاء والاختطاف ومنها ما جبل على الصغار والهوان ، ومنها ما تتعيش بالنجاسات أو الجيفة .

التعريف بولي الله الدهلوي

يُعدّ هذا الامام ـ كما وصفه الشيخ أبو الحسن الندوى ـ من نوابغ بلاد الهند ، بل عباقرتها الأفذاذ الذين قل أن يوجد لهم نظير حتى فى العالم الاسلامى أيضاً ، وكان معروفاً بحكيم الاسلام [(١)] .

وُلد عام ١١١٤ هـ وتلقى العلوم عن والده وقرأ أمهات الكتب فى العلوم المختلفة ، وفرغ من التحصيل وهو فى الخامس والعشرين من عمره واشتغل بالتدريس نحواً من اثنى عشرة سنة

وكانت إقامته بالحرمين الشريفيين لمدة عامين كاملين فرصة سانحة لتلقى دروس عن كتب السنّة على الشيخ ابى طاهر محمد بن ابراهيم الكردى بالمدينة المنورة فأجازه ، كما حضر دروس الشيخ تاج الدين القلعى المكىّ .

وامتاز الامام الدهلوى بالفصاحة فى اللغة العربية نثراً وشعرا ، والتبحر فى علوم القرآن وأصول الحديث وأصول الفقه والدين مما جعله موضع ثناء علماء عصره ، وانتفع بعلمه الكثيرون ، كما سعى لإزاله فتن الإشراك والبدع ومحدثات الأمور فى الدين [(٢)] .

وله مصنفات عدة فى علوم القرآن والحديث وأصول الدين والسلوك والسير والأدب [(٣)] .

أما كتابه الشهير (حجة الله البالغة) ـ مصدر هذه الدراسة ـ فهو مأثرة الامام

---

(١) ص ٥ ـ ٧ من مقدمة كتاب (الفوز الكبير فى أصول التفسير للامام الدهلوى
بقلم المترجم سلمان الحسينى الندوى .
ط دار الصحوة ١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٦ م .

(٢) نفسه ص ١٤ ـ ١٨ (٣) نفسه ص ٢٠ ـ ٢٣

الدهلوى العلمية الرائعة ، وهو كتاب موسوعى يحتوى على اجتهاداته فى علوم الفقه والحديث والتفسير والعقائد والتصوف ومقارنة الأديان والأخلاق ، والسيرة النبوية وأشراط الساعة ، كما ينفرد ببيان وشرح أسرار العبادات كلها ، وثمراتها المتحققة فى الأخلاق الفاضلة وتحقيق السعادة . توفى - رحمه الله - سنة ١١٧٦ هـ بمدينه دلهى وله ثنتان وستون سنة .

منهجه :

تجاوز الامام الدهلوى علاج قضية الأخلاق فى نطاق العقل النظرى باحثاً فى أسرار الدين بمنهج علمى سماه علم (المصالح والمفاسد) مبرهناً على أن العبادات تثمر مصالح ، أى فوائد نفسية وأخلاقية مرتفعاً بالأخلاق العملية المتحققة بالطهارة والإخبات لله تعالى والسماحة والعدالة الى مستوى الاقتراب من الملائكة .

أنه يرتفع بنا إذا ما صاحبناه بنظراته النافذة وتوجيهاته المخلصة الى مستوى السلوك الإيمانى فى مقامات تبلغ بالانسان مرحلة القرب من الله عز وجل وتذوق محبته ، مخططاً لنا المنهج العملى الذى يجعل نفوسنا (الملكية) قاهرة لنفوسنا (البهيمية) - ثم نتجاوز هذا الخط الرفيع فننتقل من حياة دنيوية بالحس والغرائز الى مستويات تلامس درجات الملائكة ونحيا على حافة الجنة متطلعة الى نعيمها !

ويبدو للباحث فى ثنايا كتابه (حجة الله البالغة) انه يسجل أذواقه ومواجيده فى عبارات صادقة وأسلوب متميز بخصوصيته فى التعبير ، فإنه مثلا يفصح عن أثر السهر فى العباده فيصفه بأنه خاصية عجيبة فى إضعاف البهيمية (أى إحدى صفتى النفس وهى المضادة للملكية) وهو بمنزلة الترياق [1] .

أو عندما يشرح المفعول المجرّب لصلاة الاستخارة فيذكر أن فوائدها أن يغنى

---

(١) جـ ٢ ص ١٥ ، ١٦

الانسان عن مراد نفسه وتنقاد بهيميته لملكيته ويسلم وجهه لله عز وجل ، فيسعى العبد فى الأمر بعدها بداعية إلاهية لا داعية نفسانية ، ثم يضيف بأن ثمرتها ترياق مجرب لتحصيل شبه الملائكة [١] .

وهو فى كتاباته واجتهاداته وفتاويه يستند الى الآيات القرآنية والأحاديث النبويه ، فقال فى (باب الاعتصام بالكتاب والسنة) :

قد حذرنا النبى ﷺ مداخل التحريف بأقسامها وغلظ النهى عنها وأخذ العهود من أمته فيها ، فمن أعظم أسباب التهاون ترك الأخذ بالسنة) [٢] .

ومن أحاديثة ﷺ (فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين من بعدى) ، وخط رسول الله ﷺ للصحابة خطاً ثم قال : هذا سبيل الله ثم خط خطوطا عن يمينه وشماله وقال : هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه وقرأ : ﴿ **إن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله** ﴾ .

وبعد أن أورد الامام الدهلوى هذه النصوص عقب عليها بقوله (الفرقة الناجية هم الآخذون فى العقيده والعمل جميعا بما ظهر فى الكتاب والسنة وجرى عليه جمهور الصحابة والتابعين وان اختلفوا فيما بينهم فيما لم يشتهر فيه نص ولا ظهر من الصحابة اتفاق عليه استدلالا منهم ببعض ما هنالك أو تفسيرا لجمله ، وغير الناجية كل فرقة انتحلت عقيده خلاف عقيدة السلف أو عملا دون أعمالهم[٣] .

ونراه ينقد بعنف علماء عصره المخالفين لهذا المنهج محذراً من اتباعهم فوصفهم بعلماء السوء طلاب الدنيا (فإنك اذا أردت أن ترى نماذج اليهود فى هذه الأمة فانظر الى علماء السوء ، طلاب الدنيا ، المولعين بتقليد آبائهم ، المعرضين عن

(١) جـ ٢ ص ١٩ .

(٢) جـ ١ ص ١٦٩

(٣) نفسه ص ١٧٠

كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ ، الذين يستندون الى تعمقات العلماء وتشديداتهم ، واستنباطاتهم التى لا أصل لها من الكتاب والسنة ، تاركين كلام الشارع المعصوم — ﷺ — يتبعون الأحاديث الموضوعة ، ويجرون وراء التأويلات الفاسدة) (١) .

مكانة الانسان بين المخلوقات

فى تعريفه للانسان جعل مدخل الدراسة اختصاص الانسان بتعريف خاص يميّزه عن سائر المخلوقات مع اشتراكه معها فى بعض الصفات كالطول وعظم القامة — فان كانت السعادة هذه فالجبال أتم سعادة ، وصفات يشارك فيها النبات كالنمو المناسب والجمال ، فان كانت السعاده هذه فالورود أتم سعادة وصفات يشارك فيها الحيوان كشدة البطش وجهورية الصوت وكثرة الأكل والشرب ووفور الغضب والحسد ، فان كانت السعادة هذه فالحمار أتم سعادة .

كذلك فان التدبيرات والصنائع لا ينفرد بها الانسان لأن بعض الحيوانات تنفرد بالشجاعة وحب الانتقام والثبات فى الشدائد والاقدام على المهالك وهذه كلها متوفرة فى الفحول من البهائم وكذلك أصل الصناعات موجود فى الحيوان كالعصفور الذى ينسج العش ، بل رب صنعة يصنعها الحيوان بطبيعته لا يتمكن منها الانسان بتجشم .

ولكن من مزايا الانسان وصفاته التى لا يشاركه فيها الحيوان القدرة على التعلم ، لا بقوى الادراك العقلية فحسب بل بتلقى أيضاً المعارف بطريق الحدس أو الرؤيا أو الهاتف مع اختلاف الأفراد ، فمنهم الكامل ومنهم الناقص ، والناقص يحتاج الكامل ، وله صفات يجل طورها عن طور صفات البهائم وهى صفات أخلاقية كالخشوع

---

(١) الفوز الكبير فى أصول التفسير ص ٥٣ .

ويبدو انه لقى العنت من معاصريه حيث قال فى مقدمة كتابه (انى فى زمان الجهل والعصبية واتباع الهوى واعجاب كل أمرئ بآرائه الرديه وان المعاصرة أصل المنافرة ، وان من صنّف قد استهدف .

والنظافة والعدالة والسماحة [١] .

كما (أن النفس الانسانية تبلغ من أرواح الأعمال ما اتفق عليه أمم بنى آدم من عمل الرياضات والعبادات ومعرفة أنوار كل ذلك وجداناً وشعبةً هى أحوال ومقامات سنية كمحبة الله والتوكل عليه مما ليس فى البهائم جنسها [٢] (فان كمال الانسان أن يتوجه الى ربه ويعبده) [٣] .

وينفرد الانسان أيضاً بطائفة من العلوم التى ترتفع به الى المستويات العليا الايمانية أى إلى مقامات تبلغ بالانسان درجة القرب من الله تعالى بمعرفته ومحبته ، وهذه العلوم (يسدّ بها العقل خلته فيكمل كماله المكتوب له ، وتلك الطائفة منها علم التوحيد والصفات ، ويجب أن يكون مشروحاً بشرح يناله العقل الانسانى .. فشرح هذا العلم المشار إليه بقوله « سبحان الله وبحمده » فأثبت لنفسه صفات يعرفونها ويستعملونها بينهم من الحياة والسمع والبصر والقدرة والارادة والكلام والغضب والسخط والرحمة والملك والغنى ، وأثبت مع ذلك انه ليس كمثله شئ فى هذه الصفات فهو حى لا كحياتنا بصير لا كبصرنا قدير لا كقدرتنا مريد لا كإرادتنا متكلم لا ككلامنا ونحو ذلك [٤] .

ومن الصفات التى يختص بها الانسان ولا يشاركه فيها باقى المخلوقات من الحيوانات والنباتات فهى الأخلاق المهذبه والتدبيرات الصالحة والصنائع الرفيعه والجاه العظيم [٥] .

ويبدو من بحوث كتاب (حجة الله البالغة) اهتمام الامام الدهلوى بإنقاذ الانسان من التردى نحو هاوية إشباع الغرائز والشهوات التى تغذى ما سماه (بالنفس البهيمية) والاستعلاء عليها بتزكية ما سماه (بالنفس الملكية) اى إعدادها لتلقى

(١) جـ ١ ص ٢٢ (٢) جـ ١ ص ٢٣ (٣) جـ ١ ص ٥٥
(٤) جـ ١ ص ٢٣ (٥) جـ ١ ص ٥١ ـ ٥٢

هواتف الملك كما ورد في الحديث النبوى .

ان للملك لمة بقلب ابن آدم وللشيطان لمةً ، فلمّة الملك إيعاد بالخير وتصديق بالحق ولمة الشيطان إيعاد بالشر وتكذيب بالحق) [1] ، وذلك تفسيراً لقوله تعالى ﴿ **الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء ، والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم** ﴾ البقرة ٢٦٨ .

التدافع بين قوى النفس البهيمية والملكية :

يشرح الامام الدهلوى المقصود بقوتى النفس البهيمية والملكية والتدافع بينهما فيأتى الى قصة خلق آدم عليه السلام ، ويرى أن الله تعالى أراد بخلقه أن يكون نوع الانسان خليفة فى الأرض ، يذنب ويستغفر فيغفر له ، ويتحقق فيهم التكليف وبعث الرسل والثواب والعذاب ومراتب الكمال والضلال ، وكان أكل الشجرة حسب مراد الحق ووفق حكمته .

وكان آدم عليه السلام ـ مالم يأكل الشجرة لا يظمأ ولا يضحى ولا يجوع ولا يعرى ، وكان بمنزلة الملائكة ، فلما أكل غلبت البهيمية وكمنت الملكية .

وتنتهى القصة بانه عليه السلام استغفر وتاب فتاب الله عليه [2] .

ومن هنا فعلى العبد المؤمن السعى الدائم لردع بهيميته وتقوية ملكيته ، ومن أدبه أن لا يجترئ على طلب سلب نعمة ، والحياة نعمة كبيرة لأنها وسيلة الى كسب الاحسان ويظل يترقى حباً فى لقاء الله ، حسب قوله ﷺ : « من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه »

وهذا بخلاف العبد الفاجر الذى لم يزل يسعى فى تغليظ البهيمية يشتاق الى الحياة الدنيا ويميل إليها [3] .

---

(١) قال الترمذى (هذا حديث حسن غريب) .(٢) جـ ١ ص ١٦٦ باختصار .(٣) جـ ٢ ص ٣٤

ومن استلهام الامام الدهلوى لقصة خلق آدم عليه السلام يرى ان السعادة الحقيقية لبنيه فى هذه الحياة (انقياد البهيمية للنفس النطقية ، واتباع الهوى للعقل ، وكون النفس الناطقة قاهرة على البهيميه ، والعقل غالبا على الهوى)[1] .

وهنا تتحقق مصلحة الانسان فى ان يجعل غاية همته ومطمح بصره تهذيب النفس وتحليتها بهيئات تجعلها شبيهة بما فوقها من الملأ الأعلى وهم أفاضل الملائكة وتحقيق السعادة عند هذا المقام بالعبادات حيث تنجذب الى النفس انجذاب الحديد الى المغناطيس[2] .

فبالصلاة تظهر النفس الملكية وتقهر البهيمية وبالصوم تنكسر البهيمية وتذعن للملكية[3] . وسمحت له حصيلته الوفيرة فى حفظ وفهم الآيات والأحاديث من تتبع الآثار المتبادلة بين تزكية النفوس ونشأة الخواطر بواسطة الملائكة[4] . أو أثر النظافة المؤثرة فى جذر النفس تقدس النفس وتلحقها بالملائكة[5] .

ويحثنا دائما على التعرض لصلاة الملائكة والاستعداد لذلك كالحديث النبوى الذى يصف المصلى المحافظ على هيئته بعد صلاة الجماعة بالمسجد انه اذا صلى لم تزل الملائكة تصلى عليه ما لم يحدث[6] .

وفى حثة الى الدعوة الى الله تعالى ونشر دينه ، يبشر الدعاة بجائزة غالية من وراء الغيب تكسبه سعادة فى الدنيا قبل الآخرة ، فان الداعى اذا ذكر الله فى ملأ وكان همه إشاعة دين الله وإعلاء كلمة الله ، فجزاؤه أن الله تعالى يلهم محبته فى قلوب الملأ الأعلى يدعون له ويبركون عليه ، ثم ينزل له القبول فى الأرض !

---

(١) جـ ١ ص ٥٠ ـ ٥١
(٢) جـ ١ ص ٥١
(٣) جـ ٢ ص ٢٤ ، ٤٨
(٤) جـ ١ ص ١٦٦
(٥) جـ ١ ص ١٧٤ .
(٦) جـ ١ ص ١٩٢ .

هدفه من شرح أسرار الدين :

إن ما يقصده بشرح أسرار الدين ، يهدف به تجلية المصالح العائدة على العباد من التديّن وأداء العبادات من الصلاة والزكاة والصيام والحج وأفعال الخير كلها .

يقول الدهلوى : (ان مدار السعادة النوعية وملاك النجاة الأخروية هى الأخلاق الأربعة ، فجعلت الصلاة المقرونه بالطهارة سببا ومظنة لخلقى الإخبات والنظافة ، وجعلت الزكاة المقرونه بشروطها المصروفة الى مصارفها مظنة للسماحة .. ولا بد من طاعة قاهرة على النفس ليدفع بها الحجب الطبيعية ولا شئ فى ذلك كالصوم [1] . والحاج من شأنه أن يذلل نفسه لله فضلا عن المصالح المرعية وأعظمها تعظيم شعائر الله [2] .

انه بهذه التفسيرات يرد على من يظن أن الأحكام الشرعية غير متضمنة لشئ من المصالح وانه ليس بين الأعمال وبين ما جعل الله جزاء لها مناسبة وان مثل التكليف بالشرائع كمثل سيد أراد أن يختبر طاعة عبده فأمره برفع حجر أو لمس شجرة مما لا فائدة فيه غير الاختبار فلما أطاع أو عصى جوزى بعمله .

ويرى الامام الدهلوى ان هذا ظن فاسد تكذبه السنة وإجماع القرون المشهود لها بالخير ، فان الأعمال معتبرة بالنيات والهيئات النفسانية التى صدرت منها وهى شرط فى الثواب والعقاب . لا مجرد أعمال آلية [3] ، فان النية روح والعبادة جسد ولا حياة للجسد بدون الروح ... وشبه الرسول ﷺ فى كثير من المواضع من صدقت نيته ولم يتمكن من العمل لمانع بمن عمل ذلك العمل كالمسافر والمريض لا يستطيعان وردا واظبا عليه فيكتب لهما ، وكصادق العزم فى الانفاق وهو مملق يكتب كأنه أنفق . ويضيق المقام عن ذكر المواضع التى يتضح فيها أن الأحكام معللة بالمصالح وأن

---

(١) جـ ١ ص ١٦٤ (٢) جـ ٢ ص ٥٨ ـ ٥٩

(٣) جـ ١ ص ٩

الأعمال يترتب عليها الجزاء من جهة كونها صادرة من هيئات نفسانية تصلح بها النفس وتفسر وتدفع الانسان الى إصلاح قلبه ، ففى الحديث قال النبى ﷺ (ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، واذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب) . . .

وهى مواضع تجل عن الحصر نكتفى باجتزاء بعضها فمنها أن القصاص شرع زاجرا عن القتل كما قال الله تعالى ﴿ **ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب** ﴾ وان الحدود والكفارات شرعت زواجر عن المعاصى كما قال الله تعالى ﴿ **ليذوق وبال أمره** ﴾ وأن الجهاد شرع لإعلاء كلمة الله وإزالة الفتنة كما قال الله تعالى ﴿ **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله** ﴾ ، وان أحكام المعاملات والزواج شرعت لإقامة العدل وهكذا ... [1] .

وغيرها وغيرها ، فتحيا الأمة فى ظل شجرة الأخلاق الوارفة الظلال ، وتتضاءل آلام الحياة الدنيوية الى أدنى مستوى .

إنه تتبع العبادات كلها وقدم تفسيرا نفسيا وأخلاقيا لكل منها ، وعندما عارضه البعض ، ناقش اعتراضاتهم بالأدلة وفندها واحدا فواحد وهى :

١ ـ ان هذا العلم يضيف نوعا من المعجزات لنبينا محمد ﷺ اذ أتى من الله تعالى بشريعة هى أكمل الشرائع متضمنه لمصالح يعجز عن مراعاة مثلها البشر وعرف أهل زمانه شرف ما جاء به بنحو من أنحاء المعرفة حتى نطقت به ألسنتهم ، فلما انقضى عصرهم وجب توضيح وجوه هذا النوع من الاعجاز.

٢ ـ يحصل به الاطمئنان الزائد على الايمان كما قال ابراهيم عليه الصلاة والسلام (بلى ولكن ليطمئن قلبى)

---

(١) جـ ١ ص ٧

٣ ـ تدفع طالب الإحسان الى الاجتهاد فى الطاعات وهو يعرف وجه مشروعيتها ويقيد نفسه بالمحافظة على أرواحها وانوارها نفعه قليلها ، ولهذا المعنى اعتنى الامام الغزالى فى كتب السلوك بتعريف أسرار العبادات .

٤ ـ معرفة الصواب فى حالة الخلاف بين الفقهاء فان علم أسراء الدين بمنزلة علم أصول الفقه بتفاريع الفقهاء ، وسبب اختلافهم فى الفروع هو اختلافهم فى العلل المخرجة المناسبة وتحقيق ما هو الحق هنالك لا يتم إلا بكلام مستقل فى المصالح .

٥ ـ الرد على المبتدعة المتوهمين لتعارض بعض أمور الشرع مع العقل ولا دفع لهذه المفسده إلا ببيان المصالح وتأسيس القواعد .

٦ ـ الرد على من زعم رد الأحاديث المخالفة للقياس ، فبين أهل الحديث انها توافق المصالح المعتبرة فى الشرع [١] .

من مقاصد الشريعة اكتساب الأخلاق الفاضلة :

وفي شرح هذا الغرض يرى الامام الدهلوى أن الشارع أفادنا نوعيين من العلم متمايزين :

أحدهما : علم المصالح والمفاسد (أى جلب المصالح ودرء المفاسد) .

الثانى : علم الشرائع والحدود والفرائض

ويعنى الدهلوى ـ فى حديثه عن أسرار الدين ـ بالنوع الأول لأنه المختص بتهذيب النفس باكتساب الأخلاق النافعة فى الدنيا والآخرة وإزالة أضدادها ، غير مقدر لذلك بمقادير معينه ، بل رغّب فى المحامد وزهد فى الرذائل ، تاركا كلامه إلى ما يفهم

(١) جـ ١ ص ٩

أهل اللغة ، مديراً للطلب أو المنع على أنفس المصالح ، فمدح الشجاعة وأمر بالرفق والتودد والقصد فى المعيشة [1] .

انه بهذا التحليل يضفى الصبغة الأخلاقية على الشريعة ، وان من مقاصدها توفير الحياة السعيدة للأفراد والجماعة والأمة بل العالم .

كذلك فانه دائب الإلحاح على هذا المعنى فأخذ يتتبع صيغ الترغيب والترهيب فى الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ـ مقرراً ان كل مصلحة حثنا الشرع عليها وكل مفسدة ردعنا عنها ، فان ذلك لا يخلو من الرجوع الى أحد أصول ثلاثة :ـ

١ـ تهذيب النفس بالخصال الأربع المبنية عليها السعادة وتهذيب النفس إثباتا أو نفياً ، وهى النظافة والخشوع لرب العالمين وسماحة النفس والسعى فى إقامة العدل بين الناس .

ويشرح على ما يترتب على الأعمال من الثواب والعذاب ومعرفة مناسبة الأعمال لأجزيتها وأنها ترجع الى أصل معقول المعنى وأن الأحكام معلقة بأصول كلية .

ونظير ذلك ما قاله الفقهاء فى حديث (لو كان على أبيك دين أكنت قاضيه ؟ قال : نعم ، قال : فدين الله أحق أن يُقضى) .

ومنها أن الصدقات ترجع الى تهذيب النفس كالتسبيح والتهليل والتكبير [2] .

وهكذا ، فان للترغيب والترهيب طرق ، ولكل طريقة سر .. فمنها بيان الأثر المترتب على العمل فى تهذيب النفس من انكسار إحدى القوتين أو غلبتها وظهورها ، ولسان الشارع أن يعبر عن ذلك بكتابة الحسنات ومحو السئات كقوله ﷺ (من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شئ قدير

---

(١) جـ ١ ص ١٢٩ . (٢) جـ ١ ص ١٤٤

فى يوم مائة مرة ـ كان له عدل عشر رقاب وكتبت له مائة حسنة ومحيت عنه مائه سيئه ، وكانت له حرزا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسى ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر منه [١] .

ومنها تشبيه ذلك العمل بما تقرر فى الأذهان حسنه أو قبحة ، كما شبّه المرابط فى المسجد بعد صلاة الصبح الى طلوع الشمس بصاحب حجة وعمره ، وشبّه العائد فى هبته بالكلب العائد فى قيئه [٢] .

ومنها ما ينّبه على حال العمل إجمالا من غير تعرض لوجه الحس أو القبح كقول الشارع (تلك صلاة المنافق [٣] ، وليس منا من فعل كذا ـ وهذا العمل عمل الشياطين أو عمل الملائكة ، ورحم الله امرءاً فعل كذا وكذا ، ونحو هذه العبارات .

ومنها حال العمل فى كونه متعلقا لرضا الله أو سخطه وسببا لإنعطاف دعوة الملائكة إليه أو عليه كقول الشارع ـ ﷺ ـ ان الله يحب كذا وكذا ويبغض كذا وكذا ـ وقوله ﷺ (إن الله تعالى وملائكته يصلون على ميامن الصفوف [٤] .

٢ ـ إعلاء كلمة الحق وتمكين الشرائع والسعى فى اشاعتها فان (غلبة الدين على الأديان لها أسباب ، منها إعلاء شعائره على شعائر سائر الأديان ، وشعائر الدين أمر ظاهر يختص به يمتاز صاحبه من سائر الأديان كالختان وتعظيم المساجد والأذان والجمعة والجماعات .

٣ ـ انتظام أمر الناس وإصلاح سلوكياتهم وذلك لأن اكثر المكلفين لا يعرفون المصالح ولا يستطيعون معرفتها إلا إذا ضبطت بالضوابط وصارت محسوسه

---

(١) جـ ١ ص ١١٣   (٢) جـ ١ ص ١١٥

(٣) تمام الحديث (يجلس يرقب الشمس حتى اذا اصفرت وكانت بين قرنى الشيطان قام فنقر أربعاً لا يذكر الله فيها إلا قليلا) رواه مسلم .

(٤) جـ ١ ص ١١٥

يتعطاها كل متعاط [1] .

النوع الثانى من العلم :

وهو علم الشرائع والحدود والفرائض حيث حدد المقادير وضبط أنوع البر بتعيين الأركان والشروط والآداب بين الندب والايجاب والتحريم ، أى الأحكام المنصوص عنها بالشرع ، وهى الأمور التى لا سبيل الى إدراكها إلا الإخبار الإلهى [2] ويجعل التوحيد أصل أصول البر وعمدة أنواعه وذلك لانه يتوقف عليه الإخبات لرب العالمين الذى هو أعظم الأخلاق الكاسبة للسعادة وهو أصل التدبير العلمى [3] .

وتتحقق السعادة فى رأيه على مستويين :

المستوى الأول للقلة من أهل الرياضيات الشاقة والتفرغ القوى لاصلاح النفس للآخرة وهم من المتألهين من الحكماء والمجذوبين من الصوفيه فوصل بعضهم غاية مداها . ولكن لو اتبع أكثر الناس طريقتهم لخربت الدنيا [4] .

المستوى الثانى هم العاكفون على اصلاح أنفسهم البهيمية وتقويم اعوجاجها ودفع الآلام المتوقعة فى المعاد عنها (اذ لكل نفس أفعال ملكية (أى تتشبه فيه بالملائكة) تتنعم بوجودها وتتألم بفقدها [5] .

وتتم طرق سعادة هؤلاء بأخلاق أربعة :

١ـ الطهارة

وحقيقتها ان الانسان عند سلامة فطرته وصحة مزاجه وتفرغ قلبه من الأحوال السفلية الشاغلة له عن التدبير اذا تلطخ بالنجاسات وما شابهها انقبضت نفسه وأصابه

---

(١) جـ ١ ص ١١٩ (٢) جـ ١ ص ١٣٠ (٣) جـ ١ ص ٥٨ ـ ٥٩ .
(٤) جـ ١ ص ٢٥ ـ ٥٣ (٥) جـ ١ ص ٥٣

ضيق وخزى ووجد نفسه فى غاشية عظيمة ، فاذا ما اغتسل وتطهر ولبس أحسن ثيابه وتطيب اندفع عنه ذلك الانقباض ووجد مكانه انشراحاً وسروراً وانبساطا [١] .

٢ـ الإخبات لله تعالى

وحقيقته ان الانسان عند سلامته وتفرغه اذا ذكر بآيات الله تعالى وصفاته وأمعن فى التذكر تنبهت النفس النطقية وخضعت الحواس والجسد لها ، فتتهيأ النفس للتوجه نحو بارئها عز وجل وهيمانها فى جلاله واستغراقها فى تقديسه [٢] .

٣ ـ السماحة

وحقيقتها كون النفس بحيث لا تنقاد وتخضع مستسلمة لدواعى القوة البهيمية من الشهوات بأنواعها ، أو الغضب أو الشح ، ولكنها تظل متيقظة ، فاذا استغرقت منها هذه الأحوال البهيمية ساعة ، فانه سرعان ما تتخفف وترتفع فوق العلائق الظلمانية الى مستوى النفس الملكية فيحصل لها الانس وتصير فى أرغد عيش [٣] .

والسماحة وضدها لها ألقاب كثيرة بحسب ما يكونان فيه : فما كان منهما فى المال يسمى سخاوة وشحا ، وما كان فى داعية العزيزة الجنسية يسمى عفة وشره ، وما كان فى داعية الرفاهية والبعد عن المشاق يسمى صبرا وهلعا ، وما كان فى داعية المعاصى الممنوعة شرعاً يسمى تقوى وفجورا .

ومن وظائف السماحة جعل نفس صاحبها يسعى نحو الكمال المطلوب علما وعملا .

واذا تمكنت السماحة من الانسان بقيت نفسه عرية عن شهوات الدنيا واستعدت للذات العلية المجردة[٤] .

---

(١) جـ ١ ص ٥٣ (٢ ، ٣) نفسه ص ٥٤

(٤) جـ ١ ص ٥٤

٤ ـ العدالة

وهي ملكيه في النفس تصدر عنها الأفعال التي يقام بها نظام المدينة والحى بسهولة وتصبح بهذه الصفة كالملائكة . والنفوس المجردة عن العلائق الجسمانية التى ينطبع فيها ما أراد الله في خلق العالم من اصلاح النظام بإقامة العدل ، فاذا بعث الله نبيا لإقامة الدين وليخرج الناس من الظلمات الى النور ويقوم الناس بالعدل ، فمن سعى في إشاعة هذا النور ووطأ له في الناس كان مرحوما ومن سعى لردها وإخمالها كان ملعونا مرجوما [١] .

انه بهذا الرأى يعالج قيمة العدل على المستويين الأخلاقي والسياسي وهذا دأب علمائنا ـ لا تقليداً لبعضهم البعض ـ ولكن بسبب وحدة المنهج الملتزم بالكتاب والسنة لأن قيمة العدل من أبرز القيم الأخلاقية في الشريعة الاسلامية ، وتختص بها الحضارة الاسلامية دون غيرها من الحضارات .

ونذكر في هذا الصدد ابن ابى الربيع مؤلف كتاب (سلوك المالك في تدبير الممالك) الذى حققه حديثا الدكتور حامد ربيع رحمه الله وقال تعقيباً على مفهوم العدالة بالذات (ولعل مفهوم العدالة ليحتل الشطر الأكبر من اهتمامات ابن ابى الربيع . هى ليست مجرد وظيفة ، ولكنها أيضا شرط لازم لصلاحية الممارسة ، والعدل هو حكم الله تعالى في أرضه ، وهذا النظام للقيم يخلق مجموعة التزامات لا تقتصر على أن تكون نظامية ودينية بل انها كذلك معنوية ... والواقع ان مفهوم العدل لدى ابن ابى الربيع يتسع فاذا به يشمل جميع أنواع وعناصر المثاليات السياسية ، وهو في هذا انما يعكس التقاليد الاسلامية في أنقى خصائصها [٢] .

---

(١) جـ ١ ص ٥٤ ـ ٥٥

(٢) سلوك المالك في تدبير الممالك لابن ابى ربيع جـ ٢ ص ٢٩٢ تحقيق د/ حامد ربيع دار الشعب بالقاهرة ١٤٠٣ هـ ـ ١٩٨٣ م . (١) جـ ٢ ص ٨١ ـ ٨٢

كيفيه اكتساب الأخلاق

وبعد هذه التعريفات النظرية المجملة ، تأتى التفصيلات وتخطيط الطريق العملى لاكتسابها ، وهى :ـ

(١) طرق النظافة والطهارة

لا يخلو منها كتاب من كتب الفقه ، وأثرها مجرّب يلحق صاحبها بالملائكة وربما يقصد خروج المتطهر من الذنوب كما وردت بالأحاديث ومنها (من توضأ فأحسن الوضوء خرجت خطاياه من جسده حتى تخرج من تحت أظافره) رواه مسلم.

(٢) يُكتسب الإخبات لله تعالى

بالتجرد من الرذائل البشرية وعدم قبول النفس نقوش الحياة الدنيا وعدم الاطمئنان بها وذلك بالتفكر وهو أنواع :

أ ـ التفكر فى آلاء الله تعالى .

ب ـ التفكر فى صفات الله كالعلم والقدرة والرحمة والإحاطة أى المراقبة عملا بحديث النبى ﷺ (الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك) .

ثم يتصور آيات المعيّة كقوله تعالى ﴿ وهو معكم أينما كنتم ﴾ وقوله عز وجل ﴿ ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ﴾ وقوله سبحانه ﴿ والله بكل شئ محيط ﴾ وقوله تعالى ﴿ وهو القاهر فوق عبادة ﴾ وغيرها من الآيات والأحاديث .

جـ ـ التفكر فى أفعال الله تعالى الباهرة ، والأصل فيه قوله تعالى ﴿ الذين يتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا ﴾ فيلاحظ

إنزال المطر وإنبات العشب ونحو ذلك ويستغرق فى منّة الله تعالى .

د ـ التفكر فى أيام الله تعالى ، وهو تذكر رفعه قوما وخفضه آخرين ، والأصل فيه قوله لموسى عليه السلام (فذكرهم بأيام الله) .

هـ ـ التفكر فى الموت وما بعده والأصل فيه قوله ﷺ (أذكروا هازم اللذات) وصفته ان يتصور انقطاع النفس عن الدنيا وانفرادها بما اكتسبته من خير وشر وما يرد عليها من المجازاة [1] .

(٣ ـ ٤) السماحة والعدالة :

يجمع الامام الدهلوى بين هذين الخلقين ويعطى اهتماما خاصا للعدالة فى ضوء شرح لحديث الرسول ﷺ ﴿ **خياركم أحاسنكم أخلاقا** ﴾ . ويتركب حسن الخلق من مجموع أمور جامعة بين السماحة والعدالة ، فخص باب السماحة : الجود والعفو عن ظلم والتواضع وترك الحسد والحقد والغضب ومن باب العدالة : التودد الى الناس وصلة الرحم وحسن الصحبة مع الناس ومواساته المحتاجين .

والباب الأول يعتمد على الثانى لا يتم إلا بالاول فبينهما تشابك وارتباط .

وتكتسب أخلاق السماحة بخصال تتوافر فى النفس فمنها :

١ ـ الزهد

فان النفس ربما تميل الى شره الطعام واللباس والنساء حتى تكتسب من ذلك لونا فاسدا يدخل فى جوهرها فاذا نفضه الانسان عن نفسه فذلك الزهد فى الدنيا ، وليست ترك هذه الاشياء مطلوبا بعينه بل إنما يُطلب تحقيقا لهذه الخصلة .

---

(١) جـ ٢ ص ٨٤ ـ ٨٥

٢ ـ القناعة

وذلك أن الحرص على المال ربما يغلب على النفس حتى يدخل فى جوهرها فاذا نفضه من قلبه وسهل عليه تركه فذلك القناعة وليست القناعة ترك ما رزقه الله تعالى من غير إشراف النفس [١] .

قال النبى ﷺ (ليس الغنى عن كثرة العرض (أى المتاع) ولكن الغنى غنى النفس)

٣ ـ الجود

وذلك لأن حب المال وحب إمساكه ربما يملك القلب ويحيط به جوانبه ، فاذا قدر على إنفاقه ولم يجد له بالاً فهو الجواد وليس الجواد إضاعة المال . وليس المال مبغضا لعينه فانه نعمة كبيرة .قال رسول الله ﷺ (لا حسد إلا فى اثنين : رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار ورجل آتاه الله مالاً فهو ينفق منه آناء الليل وآناء النهار) . ويرى الأمام الدهلوى أن أنفع الأخلاق فى المعاد بعد الإخبات لله تعالى هو سخاوة النفس [٢] .

٤ ـ قصر الأمل

وذلك لأن الانسان يغلب عليه حب الحياة حتى يكره ذكر الموت . وليس العمر فى نفسه مبغضاً بل هو نعمة ـ لأنه يصدر عنه الأعمال الصالحات المفضيات الى درجة الملائكة ـ قال ﷺ (كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل) وخط خطا مربعا وخط خطا فى الوسط خارجا منه وخط خطوطا صغار الى هذا الذى فى الوسط من جانبه الذى فى الوسط فقال :

---

(١) جـ ٢ ص ٣٩

(٢) جـ ٢ ص ٨٥ ـ ٨٦

هذا الانسان ، وهذا أجله محيط به ، وهذا الذى هو خارج أمله ، وهذه الخطط الصغار الأعراض (أى الآفات والبليات والأمراض) ، فان أخطأه هذا نهشه هذا وإن أخطأه هذا نهشه هذا [١] .

وقد عالج النبى ﷺ ذلك بذكر هاذم اللذات وزيادة القبور والاعتبار بموت الأقران .

٥ ـ التواضع :

وهو أن لا تتبع النفس داعية الكبر والاعجاب حتى يدرى بالناس فان ذلك يفسد نفسه ويثير على ظلم الناس والازدراء [٢] .

٦ ـ الحلم والأناة والرفق

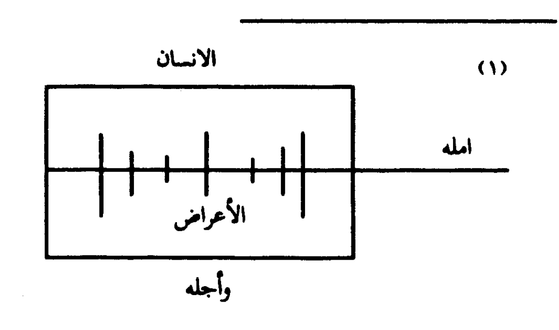
وحاصلها أن لا يتبع داعية الغضب حتى يروى ويرى فيه مصلحة ، وليس الغضب مذموما فى جميع الأحوال .

٧ ـ الصبر

وهو عدم انقياد النفس لداعية الدعة والهلع والشهوة والبطر .

---

(١)



---

(٢) جـ ٢ ص ٨٦ ـ ٨٨ .

٨ ـ خلق العدالة

وهى تجمع فى إطارها كل هذه الأخلاق وتضيف إليها بيان حقوق المسلم على أخيه المسلم وحق الوالدين والزوجة على زوجها والزوج على زوجته والأولاد والجار والمريض والشيخ الكبير وحامل القرآن وذى السلطان المقسط .

وقد أورد الامام الدهلوى أحاديث كثير فى هذه العلاقات وهى تنبه على خلق العداله وحسن المشاركة ...

****

بحمد الله تعالى وحسن توفيقه

تم الكتاب .

****

المصادر والمراجع

* الاسلام والمذاهب الفلسفية المعاصرة .
د/ مصطفى حلمي .
دار الدعوة ١٩٨٦ م . ١٤٠٦ هـ

* الاسلام على مفترق الطرق .
محمد اسد
دار العلم للملايين بيروت

* الاسلام كبديل
د. مراد هوفمان
ترجمة النور الكويتية ـ مؤسسة بافاريا ١٤١٣ هـ ـ ١٩٩٣ م

* الاخلاق فى الاسلام
د/ عبد اللطيف العبد
مكتبة دار العلوم ١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٥ م

* الاخلاق وعلم العادات الاخلاقية .
ليفى بريل ترجمة د/ محمد قاسم
ط الحلبى ١٣٧٣ هـ / ١٩٥٣ م .

* الاخلاق والدين
ر جيه (رجاء) جارودى ترجمة نزيه الحكيم
دار الوثبه ـ دمشق .

* الاخلاق بين الفلسفة وعلم الاجتماع
د / السيد بدوى
دار المعارف بالاسكندرية ١٩٦٧ م .

* ابن باديس حياته وآثاره

اعداد وتصنيف د/ عمار البالى

دار مكتبه الشركه الجزائريه ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ .

* آداب الاسلام

محمد ابو بكر وآخرون .

* الانسان ذلك المجهول

الكسيس كارليل ترجمه شفيق اسعد فريد .

بيروت

* التبيان فى اقسام القرآن

ابن القيم تصحيح وتعليق طه يوسف شاهين .

مكتبه انصار السنه المحمديه بعابدين بمصر ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م .

* التبشير والاستعمار فى البلاد العربيه

د / مصطفى الخالدى و د / عمر فروخ

المكتبه العصريه بيروت ١٩٧٣ م .

* الاتجاه الاخلاقى فى الاسلام

مقداد يالجن . ط الخانجى بمصر .

* الاخلاق فى الفلسفه الحديثه

اندريه كرسون .

* التربيه الاخلاقيه

اميل دور كليم .

* التصوف والاتجاه السلفى فى العصر الحديث

د/ مصطفى حلمى

دار الدعوه بالاسكندريه .

* الثقافه الاسلاميه والحياه المعاصره

د / محمود عبد الله .

مكتبه النهضه ومؤسسه فرانكلين .

* الثقافه الاسلاميه والحياه المعاصره
د / محمود عبد الله .
مكتبه النهضه ومؤسسه فرانكلين .
* الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح
ابن تيميه
مطبعه المدنى بدون تاريخ .
* الجوانب الفكريه فى مختلف النظم الاجتماعيه
د/ فؤاد زكريا .
جامعه عين شمس ١٩٧٢ م .
* حجة الله البالغة
ولى الله الدهلوى
دار المعرفة ـ بيروت بدون تاريخ
* الدين
محمد عبد الله دراز
دار القلم ـ الكويت ١٣٩٠ هـ ـ ١٩٧٠ م .
* الدين والوحى والاسلام
مصطفى عبد الرازق مولفات الجمعيه الفلسفيه المصريه
ط الحلبى ١٣٦٤ هـ ـ ١٩٤٥م .
* الدعوه الاسلاميه دعوه عالميه
محمد الراوى
دار العربيه بيروت لبان ١٣٨١ هـ ـ ١٩٦٢ م .
* الذريعه الى مكارم الشريعه
تحقيق طه عبد الرؤوف
ط مكتبه الكليات الازهريه ١٣٩٣ هـ ـ ١٩٧٣ م .
* الرد على المنطقيين لابن تيميه
لاهور ١٣٩٦ هـ ـ ١٩٧٦ م م.

* الرواقيه
د / عثمان امين .
* الزهاد الاوائل
د / مصطفى حلمى
دار الدعوه بالاسكندريه .
* اسس الفلسفه
د/ توفيق الطويل .
مكتبه النهضه المصريه ١٩٥٥ م .
* السلفيه بين العقيده الاسلاميه والفلسفه الغربيه
د / مصطفى حلمى
دار الدعوه ١٤٠٣ هـ ـ ١٩٨٣ م .
* اسس الفلسفة الخلقيه
د/ توفيق الطويل .
* شفاء العليل فى مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل .
الخانجى ١٣٢٣ هـ .
* العقائد الاسلامية من الآيات القرآنيه والاحاديث النبويه
ابن باديس روايه وتعليق محمد الصالح رمضان
مكتبه الشركه الجزائريه ١٣٨٥ هـ ـ ١٩٦٦ م .
*الغنيه لطالبى طريق الحق
عبد القادر الجيلانى
ط الحلبى ١٣٧٥ هـ ـ ١٩٥٦ م .
* الفلسفه العامه والاخلاق
د/ كمال جعفر .
* الفلسفه الخلقيه نشأتها وتطورها
د/ توفيق الطويق .
دار النهضه العربيه

* الفلسفه الاخلاقيه فى الفكر الاسلامى
د/ احمد صبحى
دار المعارف ١٩٦٩ م .
* الفصل فى الملل والاهواء والنحل
ابن حزم
صبيح ١٣٤٧ هـ .
* الفرقان بين اولياء الرحمن واولياء الشيطان
ابن تيميه .
المكتبه السلفيه .
* فلسفه كونت
ليفى بريل .
* القرآن فى التربيه الاسلاميه
الشيخ نديم الجسر .
مجله البحوث الاسلاميه ١٣٩١ هـ ـ ١٩٧١ م .
* المجمل فى تاريخ علم الاخلاق
د. هـ سلجويك . ترجمه وتعليق د/ توفيق الطويل وعبد الحميد حمدى
دار النشر الثقافيه بالاسكندريه ١٩٤٩ م .
* المشكله الاخلاقيه والفكر المعاصر
البارودى . ترجمه د/ محمد غلاب . مراجعه د / ابراهيم بيومى مدكور
ط الانجلو المصريه ١٩٥٨ م .
* المفردات فى غريب القرآن
تحقيق وضبط محمد سيد كيلانى .
ط الحلبى ١٣٨١ هـ ـ ١٩٦١ م .
* المفكرون من سقراط الى سارتر
هنرى توماس . ترجمه عثمان نويه .
مكتبه الانجلو المصريه . ١٩٧٠م .

* الزعيم الروحى لحرب التحرير الجزائريه
الامام عبد الحميد بن باديس د / محمود قاسم
دار المعارف بمصر ١٩٦٨ م
* الموسوعه الفلسفيه المختصره .
ترجمه فؤاد كامل ـ جلال عشرى ـ عبد الرشيد صادق
مراجعه د/ زكى نجيب محمود
مكتبه الانجلو المصريه .
* امراض القلوب وشفاؤها
ابن تيميه .
المطبعه السلفيه .
* المشكلة الخلقيه
زكريا ابراهيم
مكتبه مصر بالفجاله ١٩٦٩ هـ .
* الملل والنحل
الشهرستانى . تحقيق بدران .
* الانسان والحضارة فى العصر الصناعى
د/ فؤاد زكريا .
الناشر مركز كتب الشرق الاوسط ١٩٥٧ م .
* الوابل الصليب من الكلم الطيب
لابن القيم
المنبريه ١٣٧٨ هـ .
* الوحى المحمدى
محمد رشيد رضا .
المطبعه السلفيه .

* الايمان والحياه
د/ يوسف القرضاوى
مكتبه وهبه بالقاهره .
* بارتملى : مقدمه كتاب علم الاخلاق الى نيقوماخوس
لارسطو ترجمه احمد لطفى السيد
مطبعة دار الكتب ١٣٤٢ هـ ـ ١٩٢٤ م .
* تاريخ الفلسفه اليونانيه
يوسف كرم
دار المعارف
* تاريخ الفكر الفلسفى فى الاسلام
د/ محمد على ابو ريان .
* تاريخ الفلسفيه الحديثه
برتراند رسل . ترجمه محمد فتحى الشنيطى
الهيئه المصريه العامه للكتاب ١٩٧٧ م .
* تأملات فى سلوك الانسان
د/ الكسيس كارل ترجمه محمود القصاص . مراجعه محمود قاسمى .
* تاريخ الفلسفه الغربيه
برتراند رسل
ترجمه ـ ذكى نجيب محمود . مراجعه ـ احمد امين .
لجنه التأليف والترجمه والنشر ١٩٦٧ م .
* تأسيس مينافيزيقيا الاخلاق
كَنْتْ : ترجمه د / عبد الغفار مكاوى .
* تاريخ الفلسفه الحديثه
يوسف كرم .
دار المعارف .

* تاريخ الفكر الفلسفى
د/ ابو ريان .
الدار القوميه ١٩٦٥ م .
* تفسير ابن كثير
دار الشعب بالقاهره .
* تفسير المنار
الشيخ رشيد رضا
المطبعة السلفيه .
* تفسير القاسمى
محمد جمال الدين القاسمى تصحيح محمد فؤاد عبد الباقى .
ط عيسى البابى الحلبى ١٣٧٦ هـ ـ ١٩٥٧ م .
* تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين
الاصفهانى .
سلسله الثقافه الاسلاميه ١٣٨٠ هـ ـ ١٩٦١ م .
* تمهيد لتاريخ الفلسفه الاسلامية
مصطفى عبد الرازق . لجنه التأليف والترجمه والنشر .
* دراسات اسلاميه فى العلاقات الاجتماعيه والدوليه
د/ دراز
دار القلم بالكويت ١٣٩٣ هـ . ١٩٧٣ م .
* دراسات فى الفلسفه الاسلاميه
د/ محمود قاسم
دار المعارف ١٩٧٢ م .
* دروس ونفوس
د/ توفيق سبع
ط مجمع البحوث الاسلاميه .

* الاخلاق فى القرآن
د/ محمد عبد الله دراز ترجمه د/ عبد الصبور شاهين .
* سر تطور الامم
جوستاف لوبون ترجمه احمد فتحى زغلول باشا
مطبعه المعارف بمصر ١٣٣٤ هـ - ١٩١٣ م .
* شفاء العليل فى مسائل القضاء والقدر
ابن القيم
مكتبه الرياض الحديثه . مصوره عن طبعه الخانجى ١٣٢٣ هـ .
* عده الصابرين وذخيره الشاكرين
ابن القيم . تعليق زكريا ابراهيم .
مطبعه الامام بمصر .
* الفوز الكبير فى أصول التفسير
ولى الله الدهلوى ترجمه سلمان الحسينى الندوى.
دار الصحوه ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦ م .
* فلسفه اوجست كونت
ليفى بريل . ترجمه د / قاسم .
* قيم الحياه فى القرآن
محد شديد
دار الشعب ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م .
* مبادئ الفلسفه والاخلاق
د/ زكريا ابراهيم .
مكتبه مصر بالفجاله .
* محاسن التأويل
القاسمى . تصحيح فؤاد عبد الباقى .
ط عيسى البابى الحلبى . ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧ م .

* محاضرات جارودى
مجله الطليعة بالقاهرة ١٩٧٠ .
* مدخل لدراسه الفلسفه
ليون جوتييه . ترجمه محمد يوسف موسى
دار الكتب الاهليه ١٣٦٤ هـ - ١٩٤٥ م .
* مدخل الى دراسه القرآن الكريم
د. دراز ترجمه محمد عبد العظيم على . مراجعه د/ السيد بدوى .
دار القرآن الكريم - دار القلم بالكويت ١٣٩١ هـ ١٩٧١ م .
* مدارج السالكين
تحقيق الشيخ محمد حامد الفقى
المطبعة السلفيه .
* مشكله الفلسفه
د/ ذكريا ابراهيم .
* مفتاح دار السعاده ومنشور ولايه العلم والاراده .
صبيح ١٣٤١ هـ .
* مقدمه كتاب روجيه باستيد مبادئ علم الاجتماع الدينى
د/ محمود قاسم
ط الانجلو المصريه .
* مقدمه كتاب المجمل فى تاريخ الاخلاق
د/ توفيق الطويل .
* مقدمه كتاب سدجويك
توفيق الطويل
دار نشر الثقافه بالاسكندريه ١٩٤٩ م .
* مقدمه فى الفلسفه العامه
د/ يحى هويدى .

د/ مصطفى حلمى .
مجله الداره بالرياض . ١٣٩٧ هـ ـ ١٩٧٧ م .
* مقدمه اسس مينا فيزيقيا الاخلاق
د / الشنيطى .
* مناهج البحث الاسلامى فى العلوم الانسانيه
د/ مصطفى حلمى .
دار الدعوه بالاسكندريه .
* نظرات فى الاسلام
د/ دراز تحقيق محمد موفق البيانونى .
مكتبه الهدى حلب ١٣٩٢ هـ ـ ١٩٧٢ م .
* نوابغ الفكر الغربى
جون سيتوارت . د/ توفيق الطويل
دار المعارف .

* * * * *

الفهرس

الباب الثانى

مذاهب اخلاقيه فى الفكر الاسلامى

الفصل الأول :

معالم القانون الأخلاقى فى القرآن الكريم

الفصل الثانى :

حكماء الاسلام والقضايا الأخلاقيه

******* انتـــــــهـى *******

رقم الايداع

٨٦ / ٧٢٠٨